شعاع

من المحراب

الجزء السادس

إعداد

سليمان بن حمد العودة



المرأة المسلمة نماذج ووسائل[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . .

أما بعد: فيتساءل بعضُ الناس عن دور المرأة المسلمة عمومًا، وفي أزمنة الأزمات والفتن خصوصًا . . ولا أبلغ في إجابة هؤلاء من قراءة السيرة النبوية؛ إذ هي محلُّ الأسوة والقدوةِ من جانب، وفيها -من جانب آخر- قدمت المرأة المسلمة عطاءً طيبًا ومميزًا، وخلَّدت ذكرى عطرةً في سبيل خدمة دين الله، ومحبة رسوله ﷺ، والسير على هداه، ومجانبة الشرور، والترفُّع عن دنايا الأمور. مما لا يمكن الإحاطة به، ولعل في الإشارة ما يُغني عن الإطالة، وفي النوع ما يكفي عن الكم، وهكذا.

أيها المسلمون والمسلمات: وتبقى خديجةُ بنتُ خويلد رضي الله عنها تاجًا على رؤوس النساء، إذ هي أولُ خلق الله أسلم بإجماع المسلمين -كما قال ابنُ الأثير رحمه الله[2].

وهي سيدةُ نساء العالمين في زمانها، وأول من آمن بالرسول ﷺ وصدقه، وثبَّت جأشه، كما نقل الذهبيُّ رحمه الله[3].

لله أنتِ يا أم المؤمنين وإيمانُكِ وثباتُك، بل وتثبيتك لرسول اللهِ ﷺ يظل منقبةً

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٩/ ١٠/ ١٤١٩هـ.

(٢) أسد الغابة ٧/ ٧٨.

(٣) السير ٢/ ١٠٩.

للنساء، وهو مسطورٌ في أصح الكتب بعد كتاب الله ففي «صحيح البخاري» وفي أول كتاب منه (بدء الوحي) جاء حديث خديجة حين جاءها رسولُ الله ﷺ يرجفُ فؤاده ويقول: «**زمّلوني زمّلوني**»، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، ثم قال لخديجة: «**لقد خشيت على نفسي**» وأخبرها بنزول الوحي عليه لأولِ مرة، فكان ردُّ خديجةَ رضي الله عنها: كلا والله ما يخزيك اللهُ أبدًا، إنك لتصلُ الرحمَ، وتحمل الكلَّ، وتكسبُ المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان على صلةٍ بأهلِ الكتابِ ومعرفةٍ بالنبوات.. فزاد من طمأنينة النبي ﷺ.. الحديث[1].

أجل، لقد احتفظ رسولُ الله ﷺ بمكارم خديجة وقدَّرها حقَّ قدرها، وعبَّر عن ذلك بقوله: «**والله لقد آمنتْ بي إذ كذّبني الناسُ، وآوتني إذ رفضني الناسُ، ورُزقتُ منها الولدَ..**» الحديث وإسناده حسن[2].

ولم يكن الإيمانُ والثباتُ وحسن العشرة والسابقةُ في الدين هي المناقب الوحيدة للمرأة الأولى في الإسلام، بل كان بذلُ المال في سبيل نشرِ الخير ونصرةِ الدين والإيناسُ والمواساةُ وتخفيفُ آلامِ المشركين على الرسول ﷺ، كذلك في عداد مناقب هذه السيدةِ الجليلة.

أيتها المرأة المسلمة: ولا تظني أن الالتزامَ بالدين في ظروفه الصعبة والانضمام إلى قافلةِ المؤمنين وهم يؤذون ويشردون، خاصٌّ بخديجة رضي الله عنها - رغم تفوقها وتقدمها في ذلك، فقد انضمّ إلى خديجة مجموعةٌ من النساء سبقن في إسلامهن، وصبرن على ما أصابهن في أيام الإسلام الأولى، ويكفي أن يُعلمَ أن عمرَ بن

---

(١) الفتح ١/ ٢٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ١١٢، الإصابة ١٢/ ٢١٧.

الخطاب ﷺ أسلم بعد أربعين رجلًا وعشرٍ من النسوة، كما ذكر ابنُ سعد في «الطبقات». وهذا مؤشرٌ إلى دخولِ عددٍ من النساءِ في الإسلام في مراحله السرية الأولى، واستجابةِ المرأة لنداءِ الخير مبكرًا.

أيها المسلمون والمسلمات، وحين احتاج الإسلامُ إلى الدعوةِ علنًا، والهجرة عن الأهل والوطن فرارًا بالدين وإسهامًا في تبليغه لأقوام آخرين، كان للمرأة المسلمةِ وجودٌ وأثرٌ لا ينكر، وفي هجرة الحبشة أسماءُ خيِّرات من النساء من أمثال رقية بنتِ رسول الله ﷺ، وأسماء بنت عميس، وليلى بنتِ حثمة ﷺن بل منهن من خرجت مراغمةً لأهلها إذ كانوا حينها من صناديد الكفر، من أمثال أُمِّ حبيبة بنتِ أبي سفيان، وفاطمة بنتِ صفوان بن أمية، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو[١].

أفلا تفخر المرأة المسلمةُ المعاصرةُ بهذه النماذج السابقة من النساء، وتتخذ منهن نموذجًا يُحتذى؟

أختاه في الإسلام! ولا تقفُ نماذجُ التمسكِ بالإسلام وإثبات الذات عند المرأة في أرض مكة وحيث يوجدُ بينهن رسول الله ﷺ يوجههن ويسليهن؛ بل ثبت في كتب التراجم ما يشير إلى حرص المرأة المسلمة على دينها وثباتها على عقيدتها خارج أرضِ مكة، وفي ظروف صعبة وزوجُها لم يُسلمْ معها، بل كان يؤذيها.

وفي ترجمة «حواء بنتِ يزيد بن سنان الأنصارية» أنها أسلمت وكانت تكتم زوجها «قيس بن الخطيم، الشاعر» إسلامها، وحين علم بذلك كان يصدها عن الإسلام ويعبثُ بها حين تقومُ لصلاتِها - وهي صابرةٌ ثابتة حتى بلغ خبرُها رسولَ الله ﷺ، فأوصاه بها خيرًا.. ﷺ[٢].

(١) السيرة لابن هشام ١/ ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٦.
(٢) الإصابة ١٢/ ٢٠٤.

أيها المسلمون والمسلمات! وما تأخرت المرأة المسلمة في عصر النبوة، عن الدعوة والبيعة، والهجرة والجهاد وتعلُّمِ العلمِ النافعِ وتعليمه وتربية النَّشْءِ على الخير والفضيلة، وساهمت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل كانت تُستَشار وتُشير، وبرز منهن العابدةُ والصابرةُ المحتسبة. لكن ذلك كلَّه وفق تعاليمِ الدين، ولم يخرج بهن عن الحشمة والحياء.

فأين تعطيل المرأة من المشاركة في الحياة، كما يزعم المرجفون؟

وكتبُ الطبقاتِ والتراجمِ مليئةٌ بمشاركتها الإيجابية في الحياة!

ألا وإن من الانتكاس في المفاهيم أن يظنَّ رجال أو نساءٌ أن تفعيل المرأةِ في المجتمع إنما يكون في الغناء والتمثيل ونزع الحجاب، والخلطة بالرجال، والسفرِ دون محرم، ومزاحمةِ الرجل في كل موقع، وتحطيم حواجز الحياء، والسعي الحثيث لإخراج المرأة من بيتها بأي شكل من الأشكال، ولأدنى هدف، ومتابعة الموضة، واتّخاذ النساء الساقطات مثلًا، والتقليد الأبلَه، إلى غير ذلك. . ، ويأبى الله ذلك ورسولُه والمؤمنون. ولئن روَّج لهذه الأفكار الرديئة أعداءٌ من الخارج وفتن بها مفتونون من الداخل، فخرجت المرأةُ المسلمةُ عن طورها في البلاد الإسلامية، وأُنسيت الهدف من وجودها - فما ينبغي للمرأة المسلمة في جزيرة الإسلام وبلاد الحرمين أن تخدع بهذه الصيحات المغرضة - بل ينبغي أن تقدم النموذجَ الأمثلَ للإسلام في ظروفه الراهنة، كما قدمته أخواتُها المسلماتُ في عصر النبوة وما بعده من عصور الإسلام الزاهية . . وليس التحدي في تقليد أصحاب الهِمَم الدنيئة ونزع الحجاب والارتكاس في حمأة الرزيلة، ومجاراة النساءِ الساقطات. ولكن التحدي في الثبات على المبدأ الحق إذا زلت أقدامُ آخرين، واستشعار العزة الإيمانية إذا راجت أفكارُ العلمنة والتغريب. التحدي الحقُّ في

الالتزام بالهويةِ الإسلامية الصافية، في زمن بات الأممُ تدرك أن من عوامل البقاء أمام غزو الآخرين صدق الانتماء، ونزاهة الولاء، والتحصن بالفكرِ السَّليم، والتسلح بسلاحِ العقيدةِ الحقة في زمن حربِ العقائد وصراع الأفكار، وإثبات الهوية، وتحقيق الذات. وما أسهل السيطرة على أي أمة إذ سُلبت مقوماتُ ثباتِها وكانت تبعًا لغيرها في أفكارها وسلوكياتها، فلا بُدَّ من اليقظة والتذكُّر، أما الغفلة عن التذكير فتورث الانفتاح والفرح الوهمي ثم يعقبه الإبلاس والإفلاس، أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾[1].



(١) سورة الأنعام: الآية ٤٤.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين خلق فسوى وقدَّر فهدى، وإليه المنُتهى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدهُ ورسوله، ترك الأمة على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوة الإسلام ولا غرابة أن يوجِّه الإسلامُ عنايته بالمرأة تكريمًا وتحذيرًا، فهنَّ شقائقُ الرجال، وهي -كما يقال- نصفُ المجتمع، وإذا قامت بدورها المطلوب في الرعاية، فهي تتشكل مع المجتمع كلِّه، وربما بالغ بعضُهم فقال: إذا وجهت رجلًا فإنما توجه فردًا، وإذا وجهت امرأةً فإنما توجه أسرة.

وبكلّ حال، فلا ينبغي للمرأة المسلمة أن تكون في مهبِّ الرياح..

يأخذ بناصيتها كلُّ ناعق وناعقة، بل عليها أن تستشعر العزة بإيمانها، وأن تعضَّ بالنواجذِ على إسلامها وقيَمِها، وينبغي ألا تُنيب الخيِّرين في الدفاع عن أصالتها وإبطالِ كيدِ الكائدين لها، وفضح المحاولاتِ العابثة لطمس هويتها، وجعلها رقمًا هامشيًا، تابعًا للمرأة الغربية في مسيرتها! حتى ولو كانت النهاية جُحرَ الضبِّ الخَرِبِ، ولا ينبغي لها كذلك أن تتيح الفرصة للأشرار للتقوّل عليها.

أيتها المرأة المسلمةُ! وهناك وسائل كثيرة لإسهام المرأة في الدعوة والإصلاح، وأعرض نماذج للتذكير لا الحصر، منها: أن تتواصل المرأةُ المسلمةُ مع القضايا المحيطة بها، من خلال القراءة النافعة، والوعي بالواقع، وبالطرق المشروعة. وثمةَ مجلاَّتٌ إسلامية نافعة، ومطويات مفيدة، وأشرطةٌ حافلة بالمفيد. وهذه وتلك لا ينبغي الزهدُ فيها، بل المشاركةُ فيها قراءةً وكتابةً ودعمًا وتشجيعًا. وفي محيط

البيت تُسألُ المرأةُ عن المساهمة الإيجابية في البرامج المفيدة للأسرة، ولا مجال للسلبية، أو الشعور بالنقص، أو التواضع المرفوض، بل ويسأل الوليُّ: ماذا أعدَّ في بيتهِ من برامج؟

وأوسع من ذلك محيطُ الأسرة الأكبر غير اللقاءات العائلية ومناسبات الأعياد والأفراح.. فأين أثرُ المرأةِ المسلمةِ في هذه اللقاءات، والكلمةُ الطيبة صدقة، والرسول ﷺ يقول: «**بلِّغوا عنِّي ولو آيةً**».

وأضعفُ الإيمان أن تكون المرأة في ذاتها قدوةً حسنة لبناتِ جنسها؛ في هيئتها، ولباسها، وعلوِّ همِّتها، لا أن تكون سوقًا حُرةً يُروج فيها ما يُصدر من البيئات الموبوءة، وتتلقف كلَّ جديد مطروح ولو كان فيه حتفُها.

أيتها النساءُ، أيُّها الأولياء: وفي الحديث عن وسائل الإصلاح تُسأل الطالبةُ - ما دون الجامعة - ما أثرها في نشر الخير في مدرستها، والأمرُ أهم بالنسبة لطالبات الجامعة، وربما ظنت بعضُ الخيِّرات منهن أن دورهن ينتهي عند حدِّ الالتفاف مع مثيلاتهن، وقضاء الوقت في النقد دون تقديم الحلول، وربما صَعُبَ على بعضهن الخلطةُ مع غيرهن، وأنَّى لهؤلاء أن يساهمن في تقويم ما انحرف من سلوك أو تلوث من فكر؟!

والمؤمن يألف ويؤلف، ويؤثر وينفع.

وتسأل المعلمةُ والمسؤولة عن دورها في تربية الطالبات وتوجههن للخير، ومعالجة ما ترى من سلوكيات شاذة بالأسلوب الأمثل والطريقة التربوية البناءة.

أيتها المرأة الموهوبةُ في الكتابة! أين أنتِ من جهاد الكلمة عبر قنواتِ التأثيرِ واسعة الانتشار؟!

أيتها المرأة القادرةُ على التأليف! أنتِ أقدرُ الناسِ على الكتابة في قضايا المرأة وفق رؤية أصيلة، تعتمد على البرهان وتختار العبارة المناسبة، وتتحرَّى الأسلوبَ الأمثل في التأثير.

معشر النساءِ: أين أنتنَّ من حِلَق تحفيظ القرآن النسائية تعلمًا أو تعليمًا، ومن الدورات النسائية الصيفية مشاركةً وتوجيهًا، ورصد الظواهر النسائية السلبية وعلاجها كتابةً أو محاضرة ونحوها؟

أيتها الشقائق! وفي سبيل الحماية من الأخطار لا بد من شعور المرأة المسلمة أنها مستهدفةٌ من قبل الأعداء بالإفساد، فذلك يدعوها للاحتراز والاحتياط وعدم الانخداع.

ولا يكفي أن ينتهي دورُها عند حدود ردِّ الهجمات الغازية، بل لا بد لها -مع ذلك- من تقديم البرامج المفيدة وطرح المفاهيم الإسلامية بكل عزةٍ وافتخار.

أيتها المرأة المسلمة! وفي سبيل المقارنة بين ما يُريده لك دعاة الإسلام وما يريده لك أدعياء التحرر.. اقرئي التاريخ بعناية، وتأمّلي نتائج الدعوتين والفرق بين المنهجين، والفصل في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

أيتها المرأة المسلمة! لا مجال للكسل والتواني، ولا يسوغ لك التفرج في وقت تتصارع فيه الأفكار، ويجلب عليك الأعداءُ بخيلهم ورجلهم.

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٠٠.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٧.

فكري واعملي . . . واجتهدي توفقي . . . ولا تحقري من المعروف شيئًا، ولا يخيفنك الذين لا يوقنون، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. وكيد الشيطان ضعيف، ولا يحيق المكرُ السيئُ إلا بأهله.



الموتة الصغرى[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله صاحب الفضل والإحسان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده مقاليدُ السماوات والأرض. . . وأمرُ الخلق إليه في الليل والنهار، وفي اليقظة والمنام، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، جاءت سنته شاملةً لكل شيءٍ. والموفَّق من كان له في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة.

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

إخوة الإيمان! نِعَمُ الله علينا كثيرة لا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[4]، ومن بين هذه النعم نعمةٌ أنعم الله بها علينا، ونتلبس بها جميعًا، بل لا يكاد يمرُّ يومٌ إلا ونحن تحت تأثيرها، وقلَّ أن يُحسب لهذه النعمة حسابُها. وفينا من يشكر الله عليها . .

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٧/ ١١/ ١٤١٩هـ.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الحشر: الآية ١٨.

(٤) سورة النحل: الآية ١٨.

ومنا من هو غافلٌ عن شكره فيها، كما هو غافلٌ عن الشكر في نعمٍ أخرى مثيلة لها.. إنها نعمةُ النوم.. نعمةٌ مجهولٌ قدرُها، فإذا ما أصيب المرءُ بمرض، أو أرق، أو مسَّه شدةُ جوع أو بردٍ، أو حالت هموم دون نومه؛ أدرك قيمة هذه النعمة. وما أطول ليل الأرقين! وما أقضَّ مضاجع المرضى والمهمومين!

وفي المقابل، فما ألذَّ النومَ بعد الإعياء والتعب وطول الكَدِّ والبحث في سبل الحياة في مسارب النهار دون أن يكدره مرض أو هموم.

عباد الله: والنوم - كما هو نعمةٌ - فهو آية من آيات الله، ألا ترى الخالق - جلَّ جلالُه - يُغشي الليل النهار، فيظلم الكونُ، وتسكن الحياةُ، وينكفِئ الأحياء، وتقلُّ الحركة، ويهدأ الناس، فيطيب المنام، وتسكنُ الأعضاءُ بعد كللها، وتستريحُ بعد تعبها، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[1].

تفكَّر أيها العبدُ -وأنت مدعوٌّ للتفكُّر- وتأمل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[3].

أيها المسلمون.. تلك رحمةٌ من رحمات الله على عباده تستوجب الشكر: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤٧.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٦.

(٣) سورة الروم: الآية ٢٣.

(٤) سورة القصص: الآية ٧٣.

ترى أيُّ قوة في هذا الكون -سوى قوة الله- تستطيع أن تجعل من الليل هادئًا ساكنًا للمنام، والنهار مبصرًا للحركة وانتشار الأنام؟!

وأيُّ قوة -مهما بلغت- تستطيع أن تتصرف لو استمر الزمان ليلًا سرمديًا.. أو نهارًا أبديًا؟! لا أحد إلا الذي خلق الخلق وقدَّره تقديرًا، وكم هي آياتٌ عظيمة، والتفكرُ فيها يدعو لمزيد الإيمان، ألا وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(١).

عباد الله وفي النوم سرٌّ من أسرار الله في هذا الكون لا يقدر عليه إلا الله.. أليس في النوم موتٌ ووفاة؟ بلى.. لكنها موتة صغرى، ووفاةٌ إلى أجل.. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

إن الأنفس في المنام يتوفاها الله جميعًا.. فمن شاء أن يُفسح لها في الأجل، أعادها إلى الحياة مرة أخرى، ومن قَدَّر عليها الوفاة، أمسكها فلا يقظة بعد هذه النومة - فمن ذا الذي يُقدِّر هذا ويقدر عليه؟ لا أحد إلا الله، تأمل الآية في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

سرٌّ عجيبٌ في النوم يتكرر ولا يكاد يوقظ قلوب الغافلين، أو يستدعي تفكر

---

(١) سورة القصص: الآية ٧١، ٧٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٦٠.

(٣) سورة الزمر: الآية ٤٢.

المتفكرين.. وفي لحظة سريعة يغيب المرءُ عن الحياةِ والأحياء.. وفي أخرى يستيقظ، فإذا هو يعيش الحياة ويبصر الأحياء.

تُرى، أيُستدل بالنومِ (الموتة الصغرى) على الوفاةِ الكبرى؟

وبالاستيقاظ على البعث والنشور؟ إي وربي لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون. وهناك في أرض المحشر ينكشف ليل المفسدين وتُكشف سوءاتُ الذين ينتشرون بجنح الظلام على فسقهم وفجورهم.. وينسون أنهم، وإن غابوا عن أعين الخلق فهم في رقابة الخالق الذي لا تخفى عليه منهم خافية.

هناك ينكشف الفرق بين قوم كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون، صلاةً وتلاوةً وذكرًا ودعاءً، وبالأسحار هم يستغفرون، وبين من يُحيون الليل بسهراتٍ صاخبة، ومجونٍ وفواحش وهم يظنون أنها ليالي حمراء، وغدًا تبدو لهم ولغيرهم لياليَ سوداء وحسرةً وندامةً.

وخلاصة القول: فلا ينبغي للعاقل أن يتخذ من هدأة الليل مجالًا للفجور والفسوق.. بدل أن يشكر الله على هذه النعمة، ويأوي إلى فراشه ذاكرًا شاكرًا، مستودعًا ربَّه نفسه إن أمسكها رحِمَها، وإن أرسلها فليحفظها بما يحفظ به عباده المؤمنين.. وكذلك كان يُعلِّم النبي ﷺ أصحابَه؛ أن يقول أحدُهم إذا أوى إلى فراشه: «**باسمك اللهم ربي وضعتُ جنبي، وباسمك أرفعه، إن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادَك الصالحينَ**» وما أجمل هذا الدعاء لو تعلمناه وعملنا به!

عباد الله: وكما أن النوم نعمةٌ وعبادةٌ يُستعان بها على طاعة الله، فهو ليس كذلك إذا حال بين العبد وبين طاعة ربه، فالصلاةُ خيرٌ من النوم، وهو نداءٌ يطلقه المؤذنون مع انبلاج فجر كلِّ يوم، والخيرون من الناس هم الذين يستجيبون لهذا

النداء، ومن تكرر نومه عن صلاة الفجر دون عذر شرعي، فذلك الذي بال الشيطانُ في أذنه.. وإذا كان هذا في الصلاة، فالنوم كذلك من ضعف النفس ونزغ الشيطان إذا حال بين المرء وطلب علم نافع.. أو داعبَ الأجفان في خطبة الجمعة، أو حال بين المرء وعملٍ صالح.. وهو رحمةٌ وأَمَنَةٌ في حال الجهاد، وقد أصاب المسلمون ومعهم الرسولُ ﷺ منه شيءٌ في بعض ملاحمهم مع المشركين كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[1].

أعوذ بالله من الشطان الرجيم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[2].



(١) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٢) سورة غافر: الآية ٦١.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[(١)] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[(٢)] ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[(٣)].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، كان نومه أعدل النوم، وهو - كما قال ابن القيم رحمه الله -: أنفع ما يكون من النوم، والأطباء يقولون: هو ثلث الليل والنهار ثمان ساعات[(٤)]. اهـ.

اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوة الإسلام: وللمصطفى ﷺ هديٌ في النوم حريٌّ بنا أن نعلمه ونعملَ به، فكان إذا أوى إلى فراشه للنوم قال: «**باسمكَ اللهمَّ أحيا وأموتُ**»[(٥)]. وكان من هديه أن يجمع كفيه ثم ينفث فيهما ويقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[(٦)]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[(٧)]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[(٨)]، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده - يفعل ذلك ثلاث مرات[(٩)].

وكان ﷺ ينام على شقِّه الأيمن، ويضع يدَه اليمنى تحت خده الأيمن، ثم

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٦.
(٢) سورة هود: الآية ٥٦.
(٣) سورة هود: الآية ٦.
(٤) زاد المعاد ١/ ١٥٩.
(٥) رواه البخاري: ٧/ ٨٤.
(٦) سورة الإخلاص.
(٧) سورة الفلق.
(٨) سورة الناس.
(٩) رواه البخاري وغيره.

يقول: «**اللهمَّ قِنِي عذابَك يوم تبعثُ عبادَك**». رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بإسنادٍ صحيح[١].

ومن دعائه - كذلك إذا أوى إلى فراشه: «**الحمدَ لله الذي أطعَمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي**»[٢].

وهذا الحديث يذكرنا بجموع من المسلمين في زماننا هذا تسلط عليهم الأعداء فأخرجوهم من ديارهم، فهاموا على وجوههم بحثًا عن الزاد والمأوى، ونسأل الله أن يردهم إلى بلادهم ويمكّن لهم في أرضهم ويهلك عدوّهم، ومن أصبح آمنًا في سربه معافىً في بدنه، وعنده ما يقيته ويؤويه فليشكر ربه.

وكان من هديه -عليه الصلاة والسلام- ذكر الله حال النوم، كالتسبيح والتحميد والتكبير، فتلك وصيته لأقرب الناس له، فاطمة بنت محمد ﷺ وزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، حينما سألاه الخادم فقال: «إذا أَويتما إلى فراشِكُما فسبِّحا اللهَ ثلاثًا وثلاثين، واحمدَاه ثلاثًا وثلاثين، وكبِّراه أربعًا وثلاثين، فذلكم خيرٌ لكُمَا من خادم» رواه الشيخان وغيرهما[٣].

ومن هديه ﷺ -حال النوم- الوضوء وفي هذا يقول: «**طهِّروا هذه الأجساد طهَّركم الله، فإنه ليس عبدٌ يبيت طاهرًا إلا بات معه مَلَك في شغاره، لا ينقلب ساعةً من الليل إلا قال: اللهمّ اغفرْ لعبدك فإنه بات طاهرًا**»[٤].

ومن هديه قراءة آية الكرسي، فلا يزال على قارئها من الله حافظ، ولا يقربه

---

(١) زاد المعاد ١/ ١٥٦.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» ح٢٧١٥.

(٣) انظر: جامع الأصول ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٥.

(٤) رواه الطبراني بسند حسن عن ابن عمر. «صحيح الجامع»: ٤/ ١٥.

شيطان حتى يصبح - كما أخبر النبي ﷺ بذلك أبا هريرة ﷺ. وبالجملة: ف «**من اضطجع مضجعًا لا يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله تِرة**». رواه أبو داود بإسناد حسن[(١)].

وإذا كان من هديه الاضطجاع على الشق الأيمن، فهناك صفة ذميمة في النوم، أيقظ النبيُّ ﷺ صاحبها؛ ألا وهي النوم على البطن.

عن ابن طخفة الغفاري ﷺ قال: قال أبي: بينما أنا مضطجع في المسجد على بطني إذا رجلٌ يحركني برجله فقال: «**إنَّ هذه ضِجعة يبغضها الله**»، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ. رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح[(٢)].

وفي بعض الروايات: «**تلك نومة أهلِ النَّارِ**».

ومن أدب الإسلام ألا ينام المرءُ وبيده بقايا من أثر الطعام حتى يغسلها؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**من نام وفي يده غمرٌ ولم يغسله، فأصابه شيء، فلا يلومنَّ إلا نفسَه**». رواه أحمد وأبو داود بسند صحيح[(٣)].

ومن آداب النوم أن ينفضَ الإنسانُ فراشَه احتياطًا لما قد يخلفه فيه من بعده، فقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا أوى أحَدُكم إلى فراشِه فلينفضْهُ بداخِلَة إزارِه فإنه لا يدري ما خلَّفَه عليه، ثم ليضطجعْ على شقِّه الأيمن، ثم ليقل: باسمِكَ ربِّي وضعتُ جنْبِي، وباسمِكَ أرفعُه، إن أمسكتَ نفسي فارحمْهَا، وإن أرسلتَهَا فاحفظْها بما تحفظُ به عبادَكَ الصالحين[(٤)]**».

---

(١) رياض الصالحين: ٣٥٧، ٣٥٨. والتِّرة: النقص، أو التبعة.

(٢) رياض الصالحين: ٣٥٧.

(٣) صحيح الجامع: ٦/ ٣٦١.

(٤) صحيح الجامع الصغير: ١/ ١٧٠، ١٧١.

أيها المسلم والمسلمة: وإذا كنت لا تدري إذا صعدت روحُك إلى بارئها -حال النوم- أتكون ممن تُمسك روحه فلا تعود، أم ممن ترسلُ لتستكمل بقية أجلِها.. فليس يليق بك أن تودّع الدنيا بالفجور والعصيان، أو يكون آخر ما يقرع سمعَك ألحان الغناء، وأصوات الموسيقى والتخيلات الباطلة، بل ودِّع الدنيا بخير ما ينبغي أن تودع به؛ نم على ذكر الله، واشكره على عافيته وكفايته، وإيوائه لك، ونم وأنت عازم على القيام للصلاة المكتوبة، وإذا استيقظت فاحمد الله، وقل كما قال المصطفى ﷺ: «**الحمدُ لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشورُ**». رواه البخاري ومسلم.

وإذا تعاريت من الليل -أي استيقظت- فقد أرشدك النبي ﷺ أن تقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يُحيي ويميت بيده الخير وهو على كلِّ شيء قدير، سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر**»، فإن قلت: اللهم اغفرْ لي، أو دعوت استجيب لك، وإن قمت فتوضأت ثم صلِّيت، قُبلت صلاتُكَ. رواه أحمد والبخاري وغيرهما[١].

أيها المسلم! أما إن أصابك أرق أو فزع أو وحشة، فقد ورد أنه ﷺ كان يعلِّم أصحابه من الفزع أن يقولوا: «**أعوذُ بكلماتِ الله التَّامة من غضبه ومن شرِّ عباده ومن شرِّ همزات الشياطين وأن يحضرون**». حديث حسن أخرجه أحمد وغيره[٢].

وورد أن رجلًا شكى للنبي ﷺ الأرق، فقال له: «**قل: اللهم غارت النجومُ، وهدأتِ العيونُ، وأنت حيٌّ قيوم، يا حيُّ يا قيّوم أَنِمْ عيني، وأهدئ بالي**» فقالها الرجل، فذهب عنه الأرق[٣].

---

(١) صحيح الجامع: ٦/ ٢٧١. (٢) زاد المعاد: ٢/ ٤٦٨.

(٣) تفسير ابن كثير عند الآية ٢٣ من سورة الروم: ٤/ ٧٠٩.

وهكذا إخوة الإسلام يبدو الإسلام عظيمًا في كل تشريعاته، ينظم أمور الحياة في الليل والنهار، ويرعى المسلم في حال اليقظة وحال المنام، وصدق الله ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1].

اللهم فقهنا في ديننا، وارزقنا شكرك وذكرَك وحسنَ عبادتك...

اللهم لك الحمدُ كما آويتنا وكفيتنا... اللهم اكفِ وأوي من لا كافي له ولا مؤوي من المسلمين.



(١) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

الجهاد في سبيل الله[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وكان فيما أنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، حكم بأن الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله أعظم تجارة تحصل بها النجاة من عذاب الله، وهي سبيل لمغفرة الذنوب، ودخول الجنان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

وأشهد أن محمدًا عبدهُ ورسوله، رغَّب في الجهاد وجعله ذروة سنام الإسلام، وجاءت شريعتُه معلية لمنازل المجاهدين في سبيل الله فقال: «**وأخرى يُرفع بها العبدُ مئة درجة في الجنة، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماءِ والأرض**»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**الجهادُ في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله**»[4].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٦/ ٥/ ١٤٢٠هـ.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) سورة الصف: الآيات ١٠ - ١٣.

(٤) رواه مسلم: «مختصر المنذري» رقم ١٠٧١.

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى سائر أنبياء الله ورسله، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[2].

أيها المسلمون: الحديث عن الجهاد في سبيل الله حديثٌ عن معالي الأمور، وإن كرهته النفوس كما قال ربنا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

إنه حديث عن تحرير الفرد والأمة من عبودية الشهوات، واستنقاذٌ للنفوس من الوَهْنِ والجبن والخور، وهو طريقٌ إلى نشر الدين وإرهاب العدوِّ، ومَدِّ رواق الإسلام في أنحاء المعمورة، وتخليص الأمة من ذُلِّ التبعية، وبه يتميز أهل الإسلام والكفر، وينكشف المنافقون وأهل الريب ومن في قلوبهم مرض. وما فتِئ القرآنُ ينزل معظِّمًا للجهاد وتحذر آياتُه من التباطُؤ عن الخروج لسبب من الأسباب، أو عائق من العوائق الأرضية، ويقول جل ذكره: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٥.
(٢) سورة التوبة: الآية ١١٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٦.
(٤) سورة التوبة: الآية ٢٤.

ونظرًا لتأخر النفوس أحيانًا عن الجهاد لسببٍ من أسباب الدنيا، فقد جاء العوضُ -في روحةٍ أو غدوةٍ- في سبيل الله كبيرًا وغير متكافئ مع متاع الدُّنيا، وقال ﷺ: «**لغدوةٌ في سبيل الله أو روحةٌ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها**» رواه البخاري[١]. فإذا كان هذا في الغدوة والروحة، فما الظنُّ بما هو أعظم من ذلك من درجات الجهاد؟

أجل، لقد أعلنها محمدٌ ﷺ على الملأ، وأقسم، وهو الصادق الأمين، برغبته في الجهاد وفضل الشهادة في سبيل الله يوم أن قال: «**والذي نفسي بيدهِ لو لا أنَّ رجالًا من المؤمنين لا تطيبُ أنفسُهم أن يتخلَّفوا عنِّي ولا أجدُ ما أحملُهم عليه، ما تخلَّفتُ عن سريةٍ تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددتُ أنِّي أُقْتَلُ في سبيل الله، ثم أحيا ثم أُقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل**» رواه البخاري[٢].

وفي «صحيح» البخاري ومسلم، واللفظ له، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ما من أحدٍ يدخلُ الجنة يحبُّ أن يرجعَ إلى الدنيا، وأن له ما على الأرض من شيءٍ، غيرُ الشهيد، فإنه يتمنَّى أن يرجعَ فيُقتل عشر مراتٍ، لما يرى من الكرامةِ**»[٣].

عباد الله: لا بد من إحياء شعيرة الجهاد في النفوس، ولا بد من العلم أن الجهاد أفضل ما تطوع به الإنسان، وتطوعه بالجهاد في سبيل الله أفضل من تطوع الحج والعمرة وعمارة المساجد، قال تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

(١) الصحيح مع الفتح: ٦/ ١٣.
(٢) الصحيح مع الفتح: ٦/ ١٦.
(٣) مختصر المنذري: ح ١٠٧٩، «الفتح» ٦/ ٣٢.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[1] ومن هنا تسابق المؤمنون إلى ميادين الجهاد، ورغبوا في الشهادة، ولا غرابة أن يُلقي أحدُهم بتمرات كانت معه ويقول: لئن أنا بقيت حتى آكل هذه إنها لحياة طويلة!!

ولا غرابة كذلك أن يتسابقوا إلى المرابطة في الثغور وهم يسمعون المصطفى يقول: «**رباط يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامِه، وإن مات جرى عليه عملُه الذي كان يعمله، وأُجري عليه رزقُه، وأمِنَ الفتَّان**»[2].

ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: لأن أُرابط ليلةً في سبيل الله أحبُّ إليَّ من أن أقوم ليلة القدرِ عند الحجرِ الأسودِ[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا كان الرباط في الثغور أفضل من المجاورة بمكة والمدينة، والعمل بالرمح والقوس في الثغور أفضلُ من صلاة التطوع[4]. اهـ.

أيها المسلمون: حقًا إن الجهاد في سبيل الله رفعًا لذُلِّ الأمةِ المسلمة، وما فتئ المسلمون، ومنذ غابت عنهم هذه الفريضةُ الإسلامية يتمرغون في أوحال الذلِّ والتبعية، ويسومهم العدوُّ سوء العذاب، وتلك وربي واحدة من أعلام نبوة محمد ﷺ وهو القائل: «**إذا تباعيتم بالعينة -وهي نوع من الربا- وأخذتم بأذنابِ البقرِ، ورضيتُم بالزَّرع، وتركتم الجهادَ، سلَّط اللهُ عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجِعُوا**

(١) سورة التوبة: الآية ١٩، ٢٠.

(٢) رواه مسلم، مختصر المنذري: ح ١٠٧٥.

(٣) الفتاوى: ٢٨/ ١٢.

(٤) الفتاوى: ٢٨/ ١٢.

إلى دِينكم» رواه أحمد وأبو داود بإسنادٍ صحيح[١].

ومن هنا يَفْرُقُ أعداءُ الملةِ من الجهاد، ويتخوفون كثيرًا من المجاهدين الصادقين، ولذا يَعمدون إلى تشويه صورة الجهاد، ورمْي المجاهدين بأبشع الألقاب، وتكاد صيحاتُ المجاهدين وتكبيرهم تقطع أنياط قلوبهم، وإن كان استعدادهم ضعيفًا.

وإذا لم يُستغرب هذا من الأعداء، فإن المؤسف والمستغرب حقًّا أن تروج مثلُ هذه الشائعات في بلاد المسلمين، وتتسلل هذه الأفكار المحيطة للجهاد والمشوهة لصورة المجاهدين عند بعض أبناء المسلمين، ويتردد في الإعلام العربي والإسلامي مفاهيم خاطئة عن الجهاد وأهدافه، وعن المجاهدين وصولاتهم.

عباد الله: والجهادُ في سبيل الله طريقنا إلى العز والتمكين في الدنيا، وهو طريقٌ موصل للجنة ونعيمها في الآخرة فـ «الجنَّةُ تحت بارقةِ السُّيوفِ» و«الجنّةُ تحت ظلالِ السيوفِ» رواه البخاري[٢].

تُرى، كم نُحدث أنفسنا بالجهاد، وهل نتخوف على أنفسنا من النفاق حين لا نغزو ولا نحدث أنفسنا بالغزو؟ وفي الحديث الصحيح قال ﷺ: «**من مات ولم يغزُ ولم يُحدِّث به نفسَه، مات على شعبةٍ من نفاقٍ**».

قال عبد الله بنُ المبارك: فنرى أن كان على عهد رسول الله ﷺ[٣].

وقال غيره: والظاهر الموافق للسنة الصحيحة عمومُ ذلك، ولا دليل على هذا التخصيص[٤].

---

(١) صحيح الجامع: ١/ ١٧٥ ح ٤١٦.
(٢) الفتح: ٦/ ٣٣.
(٣) مسلم، «مختصر المنذري» ح ١٠٧٣.
(٤) حاشية المنذري: ٣.

ومن هنا -معاشر المسلمين- تبدو خطورة تناسي الجهاد، وعدم تحديث النفس به، ويرحم الله أقوامًا وأممًا كانت تنام وتستيقظ على أخبار الجهاد، وترابط الشهور، بل الأعوام، في الثغور لحماية أمة الإسلام، ونشر دين الله ما بلغ الليل والنهار.

وفي سنن المرسلين وسِيَرهم عليهم السلام هممٌ عالية للجهاد، وفي «صحيح البخاري»: باب من طلب الولد للجهاد، وفيه ساق الحديث عن النبي ﷺ قال: **«قال سليمانُ ابنُ داودَ عليهما السلام: لأطوفنَّ الليلةَ على مئة امرأةٍ، أو تسعٍ وتسعين، كلهنَّ يأتي بفارس يجاهدُ في سبيلهِ، فقال له صاحبُه: قل: إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فلم تحمل منهن إلا امرأةٌ جاءت بشقِّ رجلٍ، والذي نفسُ محمدٍ بيده لو قال: إن شاءَ الله؛ لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون»**[1].

وهنا فائدة حيث قال الحافظ ابن حجر: قوله (باب من طلب الولد للجهاد) أي: ينوي عند المجامعة حصول الولد ليجاهد في سبيل الله، فيحصل له بذلك أجرٌ، وإن لم يقع ذلك[2].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3].

نفعني الله وإياكم.

---

(١) الفتح ٦/ ٣٤.
(٢) الفتح ٦/ ٣٤.
(٣) سورة النساء: الآية ٩٥، ٩٦.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، جاهد في الله حق جهاده بالقلب واللسان، وبالسيف والسنان، حتى أتاه اليقين، وأقرَّ الله عينه بنصرة الدين، اللهمَّ صل وسلم عليه وعلى سائر المرسلين.

عباد الله: ولا ريب أن الجهاد يكون بالنفس، والمال، والقلبِ، واللسان.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: والتحقيقُ أن جنس الجهاد فرضُ عين، إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمالِ، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع[١]. اهـ

أيها المسلمون وليس يخفى أن الإخلاص شرط في قبول الأعمال كلها، وقد جاء النص عليه في الجهاد، قال ﷺ: «**والله أعلم بمن يجاهد في سبيله**»[٢].

وجاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم والرجلُ يقاتل للذِّكر، والرجلُ يقاتل ليُرى مكانُه، فمن في سبيل الله؟ قال: «**مَنْ قاتل لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا، فهو في سبيلِ الله**»[٣].

ومن هنا يكون الحديث عن الجهاد الذي ترفع به راية الإسلام وينشر به العدل، ويحقَّق به حكمُ الله في الأرض، ويُذلُّ به الكفار، وتطهر به الأرضُ من الظلم

(١) عن الفوزان: الخطب المنبرية.
(٢) البخاري، الفتح ٦/٦.
(٣) رواه البخاري، «الفتح»: ٦/٢٨.

والجور، ويُخلى بين الناس وعبوديتهم لرب العالمين. وليس الجهادُ الذي تُزهق به الأرواح بغير حق، أو تُدمر به الممتلكات بغير علم ودون فائدة، أو تُرفع به الرايات العميَّة، أو يكون ميدانًا للشهرة، أو تبرز فيه العصبيات والإقليميات الضيقة.

أيها المؤمنون، وفي فترات العز والقوة للمسلمين ترفع راياتُ الجهاد، ويبرز القادة المجاهدون، وكلما خيم الضعف في الأمة توارت رايات الجهاد وقلَّ المجاهدون. ومنذ أن بدأ محمدٌ ﷺ جهاده للأعداء، وراية الجهاد مرفوعةٌ على أيدي خلفائه الراشدين من بعده حتى انساح الإسلام في مشرق الأرض ومغربها، وجاءت الدولة الأموية والعباسية، لتكملا مسيرة الفتح الإسلامي، وهكذا الدولة الأيوبية والمماليك وغيرها من دول الإسلام.

وحينها كان الإسلام عزيزًا، والعدوُّ مقهورًا، وأهل الكتاب الذين لا يدينون دين الحقِّ يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

ومع قوة المسلمين وغلبتهم وتحريرهم البلاد وقلوب العباد كان العدلُ قائمًا، والناس يدخلون في دين الله أفواجًا. ومن روائع عدل المسلمين ما تناقلته كتب التاريخ؛ أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين استُخلف وفدَ عليه قومٌ من أهل سمرقند ورفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر، فكتب عمرُ إلى عامله أن ينصِّب لهم قاضيًا ينظرُ فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا، فنصب لهم جُمَيع ابن حاضر الباجي، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء، فكره أهل سمرقند الحرب، وأقرُّوا المسلمين، فأقاموا بين أظهرهم .اهـ[1]. ولا عجب أن يؤدي هذا العدلُ من المسلمين إلى انتشار

---

(١) فتوح البلدان: ٤١١.

الإسلام فيما وراء النهر وغيرها من بلاد الله[١].

تُرى ما الذي حلَّ بالمسلمين حتى تراجعوا عن مراكز القيادة، ولم يتركوا الجهاد فقط، بل تخطفهم العدوُّ وغزاهم في قعر دارهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢]. ومن لم يَغْزُ غُزي، ومن لم يدع إلى الخير دُعي للشر.

أمة الإسلام، ومع فترات الضعف التي تمر بها الأمة المسلمة أحيانًا - فهي أمة خير، وذات رحم ولودَ، بل وذات رسالةٍ خالدةٍ، وقد يفتر جيلٌ أو يتراخى أهلُ عصرٍ ثم يبعث الله جيلًا آخر أكثر قوة وشجاعة، فينصر الله بهم الدين، ويَكبت الأعداء، ويفضح المنافقين.

ومن سمات هذه الأمة أن الجهاد فيها ماضٍ إلى يوم القيامة، ومع البَرِّ والفاجر، وذلك بخبر الذي لا ينطق عن الهوى حين قال: «**الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة؛ الأجرُ والمغنم**»[٣].

واستنبط العلماء من الحديث: بشرى بقاء الإسلام وأهله إلى يوم القيامة؛ لأن مِنْ لازم بقاءَ الجهاد بقاء المجاهدين وهم مسلمون[٤].

أيها المسلمون: ونحن نرى اليوم كم أَرهبت حركات الجهاد -وإن كانت متواضعة- أعداء الله، فأطفال الحجارة في فلسطين، هددوا كيان العدو الصهيوني في فلسطين المحتلة، وكم أَرعب الأفغان والشيشان من بعدهم روسيا الشيوعية - على الرغم من فارق العددِ والعُدَّة، وهكذا الأمر في البوسنة والهرسك وكوسوفا،

---

(١) البلدان الإسلامية والأقليات، محمود شاكر وزملاؤه ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١.

(٣) رواه البخاري، «الفتح»: ٦/ ٥٦.

(٤) ابن حجر، «الفتح»: ٦/ ٥٦.

وكشمير والفلبين وغيرها من بلاد المسلمين، واليوم في داغستان جهادٌ يثير مخاوف الروس ومَنْ حولهم. ونسأل الله أن يُمكِّن للمسلمين وينصر المجاهدين الصادقين، ويذلَّ الكفرة ويهزمهم أجمعين.

عباد الله: والجهادُ بالمال معناه أن تدفع مالًا يستعين به المجاهدون في سبيل الله في نفقتهم ونفقة عيالهم، وفي شراء الأسلحة وغيرها من معدات الجهاد، وفضله عظيم، وقد ذكره الله في كتابه مقدمًا على الجهاد بالنفس، مما يدل على أهميته ومكانته عند الله[١].

وفي «سنن ابن ماجه»: باب التغليظ في ترك الجهاد، ساق الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«مَنْ لم يغزُ، أو يجهِّزْ غازيًا، أو يخلُف غازيًا في أهلِهِ بخيرٍ، أصابَهُ اللهُ سبحانه بقارعةٍ قبلَ يومِ القيامةِ»**[٢].

ألا فحدثوا أنفسكم معاشر المسلمين بالجهاد، وربُّوا ناشئتَكُم على حُبِّه، وعلِّموهم الرماية وركوب الخيل، وأعينوا المجاهدين الصادقين بأموالكم ودعواتكم. اللهم ارفع راية الجهاد وأزل به ما انتشر من البلاء والفساد.



(١) الشيخ صالح الفوزان، «الخطب المنبرية»: ١/ ١٧٤.
(٢) إسناد حسن، «صحيح سنن ابن ماجه» ٢/ ١٢٣ ح ٢٢٣١.

(١) عداوة الشيطان(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله وراقبوه واحذروا عداوة الشيطان وجاهدوه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٣).

عباد الله: وهناك حقيقة نعترف بها جميعًا، ونحسُّ بأثرها كلما زلَّت بنا القدم عن صراط الله المستقيم، إنها حقيقة من حقائق القرآن، وهي بليةٌ من بلايا بني آدم، تنتقل من الأجداد إلى الآباء إلى الأحفاد، وستظل إلى يوم يبعثون، كذا قدر الله وأراد ليمتحن الناس -وهو بهم أعلم- فيتميّز حزب الله عن حزب الشيطان.

والمصيبة -يا عباد الله- أننا نعلم الداء، وربما صعب علينا الاستمرارُ على

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٩/ ١٠/ ١٤١٨هـ.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٥.

(٣) سورة التوبة: الآية ١١٩.

تعاطي الدواء، تُرى أَيُّنا يُنكر عداوة الشيطان للإنسان، والله يقول مؤكِّدًا: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(١).

فالعداوةُ حقٌ لا مرية فيها، تُقرِّرُها هذه الآية ومثيلاتها في القرآن، والهدف منها واضح لا غموض فيه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. وبداية العداوة قديمة تتصل بأبينا آدم عليه السلام حين أُمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس خانه أصله ساعة الابتلاء، فأبى أن يسجد لآدم متعللًا بأنه أشرف منه، فقارن بين الأصول ولم يلتفت إلى الأمر بالسجود فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(٢).

ومن عجب أن إبليس وهو يتكبر يعترف ويقرُّ بأن الله هو الخالق، بل يُقر بالبعث والجزاء - وهو القائل: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٣).

ومن عجب أيضًا أن إبليس -لعنه الله- يطلب النظرة إلى يوم البعث، لا ليندم على خطيئته، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفِّر عن إثمه الجسيم، ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه اللهُ وطرده، يربط لعنَةَ الله له بآدم ولا يربطها بعصيانهِ لله(٤).

أيها المسلمون: وإذا كانت هذه بداية العداوة الأولى للشيطان مع الإنسان بشكل عام، فله بدايةٌ مع كل مولودٍ بشكل خاص. روى مسلم في «صحيحه» عن

(١) سورة فاطر: الآية ٦.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤.
(٤) الظلال ٤/ ٢١٤١.

أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**صياحُ المولودِ حين يقعُ نزغةٌ من الشيطان**»(١).

وروى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مولودٍ يولد إلا نخسَه الشيطانُ فيستهلُّ صارخًا من نخسةِ الشيطان، إلا ابنَ مريمَ وأُمَّه**»، ثم قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(٢).

قال النووي -يرحمه الله-: قال القاضي عياض: إن جميع الأنبياء عليهم السلام يشاركون عيسى في هذه الخصوصية(٣).

إخوة الإيمان: ولا بد من مراغمة الشيطان، والاستعداد للمعركة معه في كل ميدان، إذ من الناس من يبيت معهم الشيطان حيث باتوا ويقيل معهم حيثما قالوا.. يحلُّ معهم ويرتحل، يُحسِّن لهم القبيحَ، ويُكرِّه لهم الحسن، وكفى بما جاء في كتاب الله وصفًا دقيقًا: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾(٤).

وَرَدَ عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: أي: من قِبَل دنياهم، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: أمر آخرتهم، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: من قبل حسناتهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ أي: من قِبَل سيئاتهم. وقيل غير ذلك.

---

(١) الفضائل حديث ١٤٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٦.

(٣) شرح النووي لمسلم ١٥/ ١٢١.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٦، ١٧.

واختار ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ؛ أن المراد جميعُ طرقِ الخير والشر، فالخيرُ يصدهم عنه، والشرُّ يحبِّبُه لهم[١].

وقد ثبت في صحيح السنة أن الشيطان يبيت مع الإنسان، فأين يبيت يا ترى؟

في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واللفظ لمسلِم؛ أن النبي ﷺ قال: «**إذا استيقظ أحدُكم من منامِه فليستنثرْ ثلاث مراتٍ، فإنَّ الشيطانَ يبيتُ على خياشيمه**»[٢].

قال الحافظ ابن حجر: ظاهرُ الحديث أن هذا يقع لكل نائم، ويُحتمل أن يكون مخصوصًا بمن لم يحترز من الشيطان بشيء من الذِّكر، كحديث أبي هريرة وفيه: «**فكانت له حِرْزًا من الشيطان**». وحديث آية الكرسي وفيه: «**ولا يقربُكَ شيطانٌ**».

ويحتمل أن يكون المراد بنفي القرب هنا أنه لا يقرب من المكان الذي يوسوسُ فيه، وهو القلب، فيكون مبيتُه على الأنف ليتوصّل منه إلى القلب إذا استيقظ[٣].

وقال القاضي عياض -يرحمه الله-: يحتمل أن يكون المبيتُ على حقيقته، فإن الأنف أحدُ منافذِ الجسم التي يُتوصل إلى القلب منها، ويُحتمل أن يكون على الاستعارة، فإن ما ينعقد من الغبارِ ورطوبةِ الخياشيم قذارةٌ توافق الشيطان[٤].

كما ثبت أيضًا أن الذكر وتلاوة القرآن طاردٌ للشيطان. ويكفي أن تقف على قوله ﷺ، وتعمل به إذا أردت السلامة من الشيطان، فقد ثبت في «صحيح مسلم» من حديث جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إذا دخل الرجلُ بيتَهُ**

---

(١) تفسير ابن كثير لآية الأعراف: ٣/ ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) شرح النووي لمسلم ٣/ ١٢٧.

(٣) الفتح ٦/ ٣٤٣.

(٤) شرح مسلم ٣/ ١٢٧.

فذكَر اللهَ عند دخولِه وعند طعامِه قال الشيطانُ: لا مَبيتَ لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكرِ الله تعالى عند دخولِه قال الشيطان: أدركتمُ المبيتَ، وإذا لم يذكرِ اللهَ تعالى عند طعامِه قال: أدركتم المبيتَ والعَشاءَ»[١].

أيها المسلمون: وهناك فرق بين عداوة الشيطان للإنسان، وعداوة الإنسان للإنسان، أبانَ الله عنها في ثلاث آيات لا رابع لهن، فتأملوهن وتأملوا ما فيهن من توجيه وفرق، قال في الأولى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]، وقال في الثانية: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[٣]، وقال في الثالثة: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، إلى قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤].

قال الحافظ ابن كثير -يرحمه الله-: فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي، والإحسان إليه ليرده عن طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمرُ بالاستعاذة من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانًا، ولا يبغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل.

فهل نتنبَّه لطبيعة العداوة مع الشيطان، وهل نراغمه في الإصلاح فيما بيننا؟

---

(١) شرح النووي ١٣/ ١٩٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٩٩، ٢٠٠.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٩٦ - ٩٨.

(٤) سورة فصلت: الآية ٣٤ - ٣٦.

عباد الله! ونحن نشهد آثار عداوة الشيطان ومكره كلما امتد الزمان أو اختلف المكان.

فإذا رأيت القتل بغير حق فثَمَّ الشيطان، وإذا رأيت التفريق بين المؤمنين، وشيوع الحسد والبغضاء والقطيعة والشحناء فهناك تُنصب رايةُ الشيطان، وإذا رأيت شيوع الفواحش وانتشارَ المنكرات، ففي أجوائها يطرب الشيطان ويجتمع، وعلى موائد الحرام وأماكن اللهو المحرم يحضر الشيطان وجنده، وكلما قلَّ ذكرُ الله احتوشت الشياطينُ وأحاطت. إلى غير ذلك من وسائل الشيطان وخطواته فاحذروها.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1].



(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حفظ أولياءه المخلصين من كيد الشيطان، وجعل سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مؤمنون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى إخوانه وآله وأصحابه.

إخوة الإسلام: وقد ذكر ابنُ القيم رحمه الله أن عداوة الشيطان للإنسان تتمثل في ست مراتب، فتأملها وانظر فيما أنت منها، وجاهد نفسك على الخلاص منها:

(١) المرتبة الأولى: الكفرُ والشرك، ومعاداةُ الله ورسوله -عياذًا بالله من ذلك- فإذا ظفر الشيطان بذلك من ابن آدم بردَ أنينُه، واستراح من تعبه معه، وذلك أول ما يريد من العبد، فإن ظفر به صيَّره من عسكرِه ونوابه، فصار من دعاته. فإن يئس من ذلك نقله للمرتبة الثانية من الشرِّ وهي:

(٢) البدعة؛ لأنها أحبُّ إليه من الفسوق والعصيان؛ لأن ضررها متعدٍّ في الدين، وهي مخالفة لدعوة الرسل عليهم السلام. فإن كان الشخص ممن يعادي أهل البدع نقله إلى المرتبة الثالثة وهي:

(٣) الكبائر على اختلاف أنواعها، فيحرصُ أن يوقعه فيها، خاصة إذا كان عالمًا متبوعًا، لينفر الناس عنه، فإن عجز عن هذه نقله إلى التي بعدها وهي:

(٤) الصغائر التي إذا اجتمعت ربما أهلكت صاحبها، ولا يزال يسهلها عليه حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالًا منه. فإن أعجزه العبدُ عن هذه نقله للخامسة وهي:

(٥) إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوتُ الثوابِ

الذي ضاع عليه باشتغاله بها. فإن أعجزه العبدُ عن هذه بأن كان حافظًا لوقته شحيحًا به نقله للتي بعدها وهي:

(٦) إشغاله بالعمل المفضول عن الفاضل ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، ويفتح له أبواب خير كثيرة، كما ورد أنه يأمرُ بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصل إلى باب واحدٍ من الشر، أو ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين وأجلَّ وأفضل، وهذه المرتبة لا يتوصلُ إلى معرفتها إلا بنور الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له، وهذا لا يعرفه إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلافائه في الأرض، والله يمن بفضله على من يشاء من عباده.

اللهم مُنَّ علينا بفضلك ولا تجعل للشيطان علينا سبيلًا[١].

يا أخا الإيمان: وسائِلْ نفسَك مع أيِّ الأصناف أنت في المعترك مع الشيطان، فقد رُوي أن الشيطان تبدَّى ليحيى بن زكريا عليه السلام بهيئة الناصح، فكذبه يحيى، وطلب منه أن يخبره عن بني آدم، فقال: هم عندنا على ثلاثة أصناف:

أما صنفٌ منهم، فهم أشدُّ الأصناف علينا، نُقبل عليه حتى نفتنه ونستمكن منه، ثم يتفرغ للاستغفار والتوبة، فيفسد علينا كلَّ شيء أدركنا منه، ثم نعود فيعود، فلا نحن نيأسُ منه، ولا نحن ندرك منه حاجتنا، فنحن من ذلك في عناء.

وأما الصنف الآخر: فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم، نتلقفهم كيف شئنا، قد كفونا أنفسهم.

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٢٦٠، ٢٦٢ باختصار.

وأما الصنف الآخر فهم مثلك -يعني يحيى- معصومون لا نقدر منهم على شيء[١].

أيها المسلمون! وللشيطان مداخل ومنافذ على الإنسان، ووسائل للإغراء والإضلال، ولا شك أن القلب أعظمُ مداخله وأوسع منافذه.

يقول ابن القيم في «إغاثة اللهفان»: ولما علم عدوُّ الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصدُّه عن الطريق، وأمدَّه من أسباب الغَيِّ بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصائد والحبائل، فإن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعرض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بِذُلِّ العبودية للدخول في ضمان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[٢].

ويصوّر ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تلبيس إبليس» أسوار القلب المنيعة، وجنود الشيطان المتسللة من أي ثغرة، والمعركة الدائرة؛ فيقول:

واعلم أن القلب كالحصن، وعلى ذلك الحصن سورٌ، وللسور أبواب وفيه ثُلَمٌ -أي نوافذ- وساكنهُ العقل، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن، وعلى جانبه رُبضٌ فيه الهوى، والشيطان يختلف إلى ذلك الربض من غير مانع، والحربُ قائمة بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزالُ تدور حول الحصن تطلبُ غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم، فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن

(١) وقاية الإنسان من الجن والشيطان، وحيد بالي ص١٢٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٥، «إغاثة اللهفان» ١/ ٦.

الذي قد وُكِّل بحفظه، وجميع الثُلَمِ، وأن لا يفتر عن الحراسة لحظةً، فإن العدو ما يفتر. . إلى أن يقول: وللعدو حملاتٌ؛ فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكرُّ عليه الحارس فيخرج، وربما دخل فعاث وأفسد، وربما أقام لغفلة الحارس، وربما جرح الحارس لغفلته وأسر واستخدم. .

ثم يختم حديثه ببيان أسباب تمكُّنه من الإنسان، ودخوله القلب ويقول: وأقوى القيد الذي يوثق به الأسرى: الجهل، وأوسطه في القوة: الهوى، وأضعفه: الغفلة، وما دام درعُ الإيمان على المؤمن فإنَّ نبل العدوّ لا يقع في مقتل. .[١]

إخوة الإيمان: ويبقى حديثٌ عن وسائل الشيطان للإغراء والإغواء، وطرائق الوقاية وسبل التحصين أرجئ الحديث عنها لخطبةٍ لاحقةٍ بإذن الله تعالى، اللهم اعصمنا من كيد الشيطان. . اللهم إنا نعوذ بك من همزات الشياطين، ونعوذ بك ربَّنا أن يحضرونا.



(١) «تلبيس إبليس» ص٣٨، «وقاية الإنسان»: ١٦٩.

(٢) عداوة الشيطان(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(٢).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾(٣).

إخوة الإسلام: ولا يزال الحديث متصلًا عن عداوة الشيطان وكيده وإضلاله للإنسان، فإذا سبق ما يكشف عداوتَه ومراتب كيده، فحديث اليوم عن وسائله وطرائقه ومداخله على الإنسان.

أيها المسلمون: وإذا كان الشرُّ والباطلُ مستقبحًا للنفوس السوية في صورته الطبيعية، فمن وسائل الشيطان في إغواء الإنسان:

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٦/ ١٠/ ١٤١٨هـ.

(٢) سورة الحشر: الآية ١٨.

(٣) سورة النساء: الآية ١.

١ - تزيين الباطل وإظهاره بصورةٍ حسنةٍ، عُلم ذلك من قول الشيطان نفسه لربه: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١].

ويصف ابن القيم هذه المكيدة للشيطان ويقول:

ومن مكايده أنه يسحرُ العقل دائمًا حتى يكيده، ولا يسلمُ من سحره إلا من شاء الله، فيزينُ له الفعلَ الذي يضره حتى يُخيل إليه أنه من أنفع الأشياء، ويُنفرُ من الفعل الذي هو أنفع الأشياء، حتى يُخيل له أنه يَضره، فلا إله إلا الله! كم فتن بهذا السحر من إنسان!! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان! وكم جلا الباطل وأبرزه في صورةٍ مستحسنة، وشنَّعَ الحقَّ وأخرجه في صورة مستهجنة![٢].

٢ - ويندرج تحت هذا وسيلةٌ أخرى للشيطان في إضلال الإنسان ألا وهي تسمية المعاصي بغير اسمها وبأسماء محببة للنفوس، ألم يقل لأبينا آدم عليه السلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[٣]؟

وقد ورثَ أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تُحب النفوسُ مسمّياتها، فسمَّوا الخمر بـ «أُمِّ الأفراح» كما قال ابن القيم رحمه الله في «إغاثة اللهفان».

ولا يزال الشيطانُ يوحي إلى أوليائه تسمية الأمور المحرمة بغير مسمياتها؛ فتسمع الفائدة بدل الربا، ويسمى التبرج الفاضح بحرية المرأة، ويسمون الاختلاط المستهتر بالتقدم والتمدن، ويسمون المغنية الفاسقة الفاجرة بالفنانة والشهيرة. . وهكذا[٤].

(١) سورة الحجر: الآية ٣٩.
(٢) إغاثة اللهفان: ١/ ١١٠.
(٣) سورة طه: الآية ١٢٠.
(٤) وحيد بالي «وقاية الإنسان»: ص١٧٨.

٣ - ومن وسائله في الإضلال -من قبيل ذلك - تسمية الطاعات بأسماء منفرة، ووصف أهل الخير بصفات مشينة، وقديمًا أوحى الشيطان إلى أوليائه من قوم عادٍ أن يقولوا لنبيهم هود - عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(١)، وأوحى إلى كفار مدين أن يقولوا لشعيب عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾(٢). ووصف موسى وهارون عليهما السلام بالسحر، وقال قوم فرعون: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾(٣).

ولم يسلم محمد ﷺ من هذا الأذى وتلك التسميات المنفرة من الظالمين؛ ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾(٤).

وما يزال الشيطان ينفخ في سحر المجرمين ليشوهوا صورة الدين والمتدينين ويطلقوا عبارات مشينةً مستهترة لينفرَ الناس من الخير وتُشوَّه صورة الخيرين.. ويأبى الله إلا أن يتم نوره ويكشف للناس الحقيقة.. ولو كره المبطلون.

٤ - ومن وسائل الشيطان وطرقه في الإضلال: التدرجُ في الإضلال، إذْ لا يأتي الشيطان للإنسان مباشرة ويقول له: افعل هذه المعصية، أو اترك هذه الطاعة الواجبة، بل يأتيه خطوةً خطوةً حتى يقع في المحظور، ويترك الواجب المشروع، ولهذا حذرنا ربُّنا تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٦٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٠.

(٣) سورة طه: الآية ٦٣.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٨.

(٥) سورة النور: الآية ٢١.

والحازم الموفق مَنْ يكتشف خطوات الشيطان، ويُغلق منافذه من أول الطريق.

٥ - والشيطانُ في إغوائه يظهر بمظهر الناصح الأمين للإنسان: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[1].

ولذا حذر اللهُ من فتنته: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[2].

٦ - أيها المسلمون: وإذا شعر الشيطان أن الإنسان سيفوت عليه وسيُنصر عليه في معركة الإغواء، عمد إلى شياطين الإنس يستنجد بهم ويستعينهم ليعينوه في مهمته، وصدق الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[3].

وكم أثر شياطين الإنس من دعاة الباطل وقرناء السوء على عباد الله بما لم يستطع الشيطان إليه سبيلًا، وقد كان السلفُ يتخوفون من شياطين الإنس، وهذا مالك بن دينار عليه رحمة الله يقول: إن شيطان الإنس أشدُّ عليَّ من شيطان الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عيانًا[4].

إخوة الإسلام.. وإذا عرفتم شيئًا من وسائله، فاعلموا شيئًا من مداخله.

ألا وإن من أكبر مداخله: الجهل، والغضب، وحبَّ الدنيا، وطول الأمل، والبخل، والكبر، والرياءَ، والعجب والجزع، والهلع، واتباع الهوى، وسوء

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢١، ٢٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

(٤) تفسير القرطبي ٧/ ٦٧.

الظن، واحتقار المسلم، واحتقار الذنوب، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمته[١].

١) أما الجهل: فهو باب عظيمٌ للانحراف عن صراط الله المستقيم ومدخل واسعٌ من مداخل الشيطان، كيف لا والجاهلُ يفعل الشرَّ وهو يظنُّه خيرًا، وينأى بنفسه عن الخير وهو يحسبه محسنًا. وخسارة الجهل فادحة، وفتقه لا يُرتق إلا بنور العلم والإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٢].

وقد قيل:

وفي الجهل قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ فأجسامُهم قبلَ القُبور قبورُ

وإنَّ امرءًا لم يَحْيَ بالعلمِ ميتٌ فليس له حتى النشورِ نشورُ

٢) أما الغضب فهو داءٌ عضال ومدخل عظيمٌ من مداخل الشيطان، ومن خلاله يتلاعب الشيطانُ بالإنسان كالكرة في يد الغلمان.

وليس عبثًا أن يقولَ الرسولُ ﷺ للرجل الذي جاء إليه يقول: أوصني، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تغضبْ**»، فردَّد الرجلُ مرارًا، والرسول يقول: «**لا تغضب**»[٣].

زاد أحمد في رواية: قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشرَّ كلَّه[٤].

---

(١) وحيد بالي «وقاية الإنسان من الجن والشيطان».

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٣، ١٠٤.

(٣) رواه البخاري «الفتح»: ١٠/٥١٩.

(٤) «وقاية الإنسان» ص١٩٥.

إن الغضب مادةٌ للشيطان تُجرِّئه، على فعل القبيح، وتجاوز الحدود، ولو سكن غضبُه لانتقدَ تصرُّفَه، ولما أقدم على ما أقدم عليه، إنه حالةُ ضعفٍ، تحكم الإنسانَ فيها عواطُفه، وتخف سيطرة عقله، ويغيب حلمُه، وكم أوقع الشيطان الغضبان في حبائل من السوء وأنواع من الشرِّ، ما كان له أن يقع فيها لو كان هادئ الطبع، مستعيذًا بالله من الغضب.

يقول الغزالي واصفًا حالة الغضبان: يتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخانٌ مظلم إلى الدماغ يستولي على معادن الفكر، وربما يتعدى إلى معادن الحسِّ فتظلم عينه حتى لا يرى بها، وتسود عليه الدنيا بأسرها، ويكون دماغه مثل الكهف الذي اضطرمت فيه نارٌ فاسودَّ وجهُه، وحمي مستقرُّه، وامتلأت بالدخان جوانبه، وربما تقوى نار الغضب فتغلي الرطوبة التي بها حياة القلب، فيموت صاحبه غيظًا... إلى أن يقول: ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياءً من قبح صورته واستحالة خلقتِه، وقبحُ باطنه أعظم من قبح ظاهره[1].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٦٤٣.

(٢) سورة يس: الآيات ٦٠ - ٦٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين أشار في كتابه إلى حزبين: حزب الله، وحزب الشيطان، وذكر ما بينهما من المنازل فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٢).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمر بالاستعاذة كلما أحسَّ المرءُ بنزغة الشيطان: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٣).

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أوحى اللهُ إليه، فيما أوحى، أنّ من سمات المتقين التذكرُ والإبصار عند مسِّ الشياطين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(٤). اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

عباد الله: وإذا كان الغضبُ داءً ومدخلًا للشيطان فدواؤه وتسكينه بالاستعاذة بالله من الشيطان، كما ورد ذلك في القرآن، وفي صحيح السنة: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما واحمرَّ وجهُه وانتفخت أوداجُه، فنظر إليه النبي ﷺ فقال: «**إنِّي لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجدُ: أعوذ بالله من الشيطان الرَّجيم**»، رواه البخاري ومسلم(٥).

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١٩.

(٣) سورة فصلت: الآية ٣٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

(٥) الفتح ١٠/٥١٩، و«مسلم بشرح النووي»: ١٦/١٦٣.

وعلى الغضبان أن يغير حالته التي هو فيها؛ فإن كان واقفًا جلس، وإن كان جالسًا اضطجع، وقد ورد عن أبي ذر مرفوعًا: «**إذا غضِبَ أحدُكم وهو قائمٌ فليجلسْ، فإن ذهبَ عنه الغضبُ، وإلا فليضْطَجِعْ**» رواه أحمد وجوَّد إسناده العراقي.

وعليه أن يتوضأ، فالغضب جمرة مُتَّقدة يُطفئها ماء الوضوء بإذن الله.

أيها المؤمنون: أما المدخل الثالث من مداخل الشيطان على الإنسان فهو:

٣) حبُّ الدنيا - وقد ورد عن الحسنِ مرسلًا: «حبُّ الدينا رأسُ كلِّ خطيئة»[١].

ومن مأثور حِكَم الحسن البصري-يرحمه الله- قوله عن الدنيا: رحم اللهُ أقوامًا كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافًا.

وأبلغ من ذلك وأجلُّ قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٢].

وقوله ﷺ: «**موضعُ سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ولَغَدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها**»[٣].

ألا وإن الدنيا حين تستحكم في القلوب فهي منفذٌ واسع للشيطان، فبسببها يكون الخصام والتقاطع، وربما وقع القتل وسفك الدماء، هذا فضلًا عن العداوة والشحناء.. وفضلًا عن الغفلة عن ذكر الله وإقامة الصلاة، والغفلة عن الآخرة بنعيمها المرغوب، أو بعذابها المرهوب، والدنيا أقلُّ من هذا وأذل، ويرحم الله الإمام الشافعي حين قال واصفًا الدنيا: الدنيا دارُ مذلةٍ، عمرانُها إلى الخراب

---

(١) ذكره الألباني في «ضعيف الجامع الصغير»: ٣/ ٩٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

(٣) رواه البخاري «الفتح»: ١١/ ٢٣٢.

صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملُها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله، وارْضَ برزق الله، لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك، فإن عيشك ظلٌّ زائل، وجدار مائل، أكثِرْ من عملك، وأقصر من أمَلِكَ[(١)].

يا أخا الإيمان: وتأمل كلمات الذي لا ينطق عن الهوى وهو يحذر من حب الدنيا ويقول: «من أُشرب حبَّ الدنيا التاط منها بثلاث: شقاءٌ لا ينفذُ عناه، وحرصٌ لا يبلغ غناه، وأملٌ لا يبلغ منتهاه، فالدنيا طالبة ومطلوبة فمن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يدركه الموت، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه». قال المنذري: رواه الطبراني[(٢)].

٤) ومن مداخل الشيطان: الكِبْرُ، وهو بطرُ الحقِّ وغمط الناس، وبه يتعاظم المتكبر نفسَه، وينسى عظمة من خلقَه، بل يُذلُّ نفسه ويجهلُ نهي ربه وتوجيهه للمتكبرين: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[(٣)].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[(٤)].

وأين المتكبرون من قوله ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ من كان في قلبِه مثقال ذرةٍ من كِبْرٍ**» رواه مسلم[(٥)] والترمذي.

قال النعمان بن بشير على المنبر: إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصالي

---

(١) وقاية الإنسان . . وحيد بالي: ص ٢٠٥.

(٢) رواه الطبراني بإسناد حسن «الترغيب والترهيب»: ٦/ ١٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٧.

(٤) سورة غافر: الآية ٣٥.

(٥) مسلم مع النووي: ٢/ ٨٩.

الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكِبْرُ على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله.

وأنى للإنسان أن يتكبر وأوله نطفةٌ مذرة، وآخره جيفةٌ قذرة، وحشوه فيما بين ذلك بولٌ وعذرة. . . ![١].

أيها المؤمنون:

٥) واتّباعُ الهوى مدخلٌ عظيمٌ من مداخل الشيطان، وطريقٌ للعقوبة والضلال، وكفى بالقرآن واعظًا: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذكر الله عز وجل هوىً في القرآن إلا ذَمَّهُ. ثم استشهد لذلك بعدد من الآيات[٣].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أنتم في زمانٍ يقود الحقُّ الهوى، وسيأتي زمانٌ يقودُ الهوى الحقَّ[٤].

قال بعض العلماء: ركَّب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وركَّب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب ابن آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته فهو خيرٌ من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شرٌّ من البهائم[٥].

وقال بعض الحكماء: العقلُ صديق مقطوع، والهوى عدوّ متبوع.

عباد الله: إياكم أن يتلاعب بكم الشيطان عن طريق الهوى والشهوة. يروى أن

---

(١) وقاية الأنسان ص٢١٦.
(٢) سورة ص: الآية ٢٦.
(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ١٦٧.
(٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٨٠.
(٥) أدب الدنيا والدين ص١٣، ١٦.

إبليس قال: أهلكت العباد بالذنوب، فأهلكوني بالاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون[١].

أيها المسلمون:

٦، ٧) والأمن من مكر الله، أو القنوط من رحمة الله كلاهما مدخلٌ للشيطان، فالأمن من مكر الله يورث الغفلة، والغفلة تورث التهاون، والتهاون سُلَّم الشيطان وسبب الخسران: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٢]، ومكرُ الله استدراجُه بالنعمة والصحة[٣].

وإذا لم يستطع الشيطان أن يدخل من باب الأمن من مَكْرِ الله شدد عليه الأمر حتى ييأس ويقنط من رحمة الله، والله يقول: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٤].

وإذا أردت السلامة من كيد الشيطان، فلا تأمن مكر الله، وتسرفْ على نفسك بالمعاصي، ولا تقنط من رحمة الله وتُبْ إليه واستغفره مهما عظمت ذنوبك، كن بين الخوف والرجاء، واخش الله واتَّقِه، وقل كما قال القائل:

يـا ربِّ إنْ عظـمـتْ ذنـوبـي كـثـرةً ... فـلـقـد عـلـمـتُ بـأنَّ عـفـوَك أعـظـمُ

إنْ كـان لا يـرجـوكَ إلا مـحـسـنٌ ... فـبـمـن يـلـوذُ ويـسـتـجـيـر الـمـجـرمُ

مـا لـي إلـيـك وسـيـلـةٌ إلا الـرَّجـا ... وجـمـيـلُ عـفـوكَ ثـم أنِّـي مـسـلـمُ

قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا ابنَ آدم إنك ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لك**

---

(١) وقاية الإنسان: ص٢٤٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٩.

(٣) تفسير القرطبي: ٧/ ٢٥٤.

(٤) سورة الزمر: الآية ٥٣.

على ما كان منك ولا أُبالي، يا ابنَ آدمَ لو بلغتْ ذنوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدمَ إنك لو أتيتني بِقُرابِ الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتُكَ بقُرابها مغفرةً»[1].

أيها المسلمون: هذا ما اتسع المقام لذكره من وسائل الشيطان ومداخله على الإنسان.. وهناك غيرُها أحصاها العلماء وضبطوها.

أما طرق الوقاية وسبل الخلاص من كيد الشيطان فلأهميتها سأُفرد لها حديثًا خاصًا بمشيئة الله.

اللهم جَنِّبنا الأهواء المضلة والأدواء المهلكة، واسلك بنا سبل الخير والسلام، فأنت السلامُ ومنك السلام.



(١) رواه الترمذي وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه: ٢٠٨/٥. وصحح إسناده الألباني «صحيح سنن الترمذي»: ١٧٦/٣.

(٣) عداوة الشيطان
وسائل وتحصينات الإنسان من الشيطان(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، قضى أن الشيطان ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، استثنى عباده المخلصين من إغواء الشياطين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، حصَّن أمته بالأوراد والأذكار، فلا سبيل للشيطان على من اتبع هداه وعمل بسنته. اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه الميامين، والتابعين ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣).

إخوة الإسلام! وحريٌّ بمن عرف عداوة الشيطان ومكائِده ومداخله على الإنسان، ووسائله في الإغواء والإضلال؛ أن يعلم السُّبلَ والوسائلَ والحصون التي تحميه بإذن الله من كيد الشيطان.. وكيدُ الشيطان ضعيفٌ كما قال ربُّنا.. وقبل أن

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٣/ ١٠/ ١٤١٨هـ.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٧١.

آتي على بيان شيءٍ من هذه الوسائل المخلِّصةِ من كيده.. أُثير سؤالًا مهمًا يعنى بالدرجة الأولى الأخيار وطلبة العلم، ويعنى غيرهم من باب أولى، والسؤال يقول: هل يعرض الشيطانُ بوساوسه لطلبة العلم وأهل الديانة، أم يكتفي بأهل الجهل والغواية؟ وهل يكثر تعرضه للعبد في حال إنابته إلى ربِّه، أم في حال غفلته واتباع هواه؟

ويجيب شيخُ الإسلام ابن تيمية -عليه رحمة الله - في معرض حديثه عن شكوى الصحابة رضوان الله عليهم للرسول ﷺ عن ما يجدونه في صدورهم من وسوسة الشيطان حتى قالوا: يا رسول الله! إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن يخرّ من السماء إلى الأرض أحبُّ إليه من أن يتكلم به.

وفي رواية: ما يتعاظم أن يتكلم به؛ فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك صريحُ الإيمانِ**»، وفي رواية قال: «**الحمدُ لله الذي ردَّ كيدَه إلى الوسوسةِ**».

ثم يشير الشيخ إلى أن مدافعة الشيطان على هذه الوساوس أعظمُ الجهاد، وإنما صار الإيمان بعدها صريحًا، لما كرهوا هذه الوساوس ودفعوها، فخلص الإيمان فصار صريحًا.

ثم يقول الشيخ: ولا بد لعامة الخلق من هذه الوساوس، فمن الناس من يجيبها فيصير كافرًا أو منافقًا، ومنهم من غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها إلا إذا طلب الدين، فإما أن يصير مؤمنًا، وإما أن يصير منافقًا، ولهذا يعرض للناس من الوساوس في الصلاة ما لا يعرضُ لهم إذا لم يصلُّوا؛ لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقرب إليه والاتصال به، فلهذا يعرض للمصلِّين ما لا يعرض لغيرهم، ويعرض لخاصة أهل العلم والدِّين أكثر مما يعرض للعامة، ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند

غيرهم؛ لأنه -أي غير طلاب العلم والعبادة - لم يسلك شرع الله ومنهاجه، بل هو مقبلٌ على هواه في غفلةٍ عن ذكر ربه، وهذا مطلوبُ الشيطان، بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة، فإنه عدوهم يطلب صدهم عن الله[١].

هذه -معاشر العلماء والعباد- لفتةٌ حريةٌ بالتأمل والمجاهدة، ولكن مما يُسري عن هؤلاء أن انتصارهم في معركة وسوسة الشيطان يُعظِّم قدرَهم ويرفع درجاتهم، وخسارتهم لا شك أعظم إن تمكن الشيطان منهم.

يقول الشيخ -في تتمة حديثه السابق: وكلما كان الإنسان أعظم رغبة في العلم والعبادة، وأقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى، ورغبته وإرادته في ذلك أتمَّ، كان ما يحصل له إن سلَّمه الله من الشيطان أعظم، وكان ما يفتتن به إن تمكَّن من الشيطان أعظم، ولهذا قال الشعبي: كل أمةٍ علماؤها شرارها، إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم[٢].

عباد الله: وإذا تبين شمول الشيطان بالإغواء والوسوسة الأخيارَ ومن دونهم، والعلماء ومن سواهم -على درجات وطرائق- تأكد أهمية الخلاص منه، والتحصين ضده بالوسائل المشروعة، وأول التحصينات ضد الشيطان وأهمها:

١- إخلاص العبادة لله، فالشيطان نفسه يعترف ألاَّ سبيل له على المخلصين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٣].

والمخلِص هو الذي يعمل ولا يحبُّ أن يحمَدَه الناسُ، وقيل: هو من يكتم

(١) الفتاوى: ٧/ ٢٨٢.
(٢) الفتاوى: ٧/ ٢٨٤.
(٣) سورة الحجر: الآية ٣٩، ٤٠.

حسناته كما يكتم سيئاته[١].

والإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها، وهو شرط في قبول العمل، كما قال ﷺ: «**إن الله ﷻ لا يقبلُ من العمل إلا ما كان خالصًا وابتُغي به وجهُه**»[٢].

وكلما كان الإخلاص أقوى، كلما كان كيد الشيطان ضعيفًا -والعكس بالعكس.

٢ - ولا بُدَّ مع الإخلاص من علمٍ يعبد المرءُ به ربَّه على بصيرة، وبه يعلم منافذ الشيطان ووساوسه فيبطلها، وبه يعلم سنة المصطفى ﷺ فيتَّبعها.. ولذا فعالمٌ عاملٌ ناصحٌ لنفسه وللأُمة أشدُّ على الشيطان من مئةِ جاهل أو يزيدون.

٣ - ولزوم المسلمين بالحق من وسائل صَدِّ الشيطان. قال عليه الصلاة والسلام: «**من أراد بحبوحةَ الجنةِ فليلزم الجماعة، فإن الشيطانَ مع الواحد، وهو من الاثنين أبعدُ**»[٣].

ولا شك أن الجماعة المقصودة ما وافق الحقَّ، فهؤلاء ينبغي لزوم طريقتهم في المعتقد والسلوك، فَيَدُ الله مع الجماعة.

٤ - والعبادات المشروعة كلها وسائل لصدِّ الشيطان، وإذا كانت الصلاة من أهمها فتأملوا حديث المصطفى ﷺ في إقامتها ومدخل الشيطان حين التهاون بها، قال عليه الصلاة والسلام: «**ما مِنْ ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بَدْوٍ لا تقام فيهم الصلاةُ، إلا قد استحوذَ عليهمُ الشيطانُ، فعليك بالجماعةِ فإنما يأكلُ الذئبُ من الغنمِ القاصيةَ**»[٤].

(١) تفسير القرطبي: ٢٨/١٠.

(٢) رواه النسائي بسند صحيح، «صحيح الترغيب»: ٦/١.

(٣) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٤) رواه أبو داود بسند حسن ١/ ١٥٠، وانظر «صحيح الجامع».

وإذا كانت الصلاة المفروضة مع الجماعة طاردة للشيطان، فصلاة النَّفل في البيت سبيلٌ لنفرة الشياطين، وفي الحديث المتفق عليه: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتِكم ولا تتَّخذوها قبورًا**».

قال النووي: حث على النافلة في البيت لكونه أخفى وأبعد من الرياء، وأصون من المحبطات، وَلِيَتَبرك البيتُ بذلك، وتنزل فيه الرحمة والملائكة، وينفر منه الشيطان[1].

وليس يخفى أن الوضوء والأذان والصلاة كلها وسائل منفِّرة للشيطان.

٥ - ومن وسائل طرد الشيطان: الاستعانة بالله والاستعاذة به منه، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وأوحى الله إلى عبده فيما أوحى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[3].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم، أن يضرَّني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثَّني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمُر بالاستعاذة من شيطان الجنِّ؛ لأنه لا يقبلُ رشوةً ولا يؤثر فيه جميلٌ؛ لأنه شريرٌ بالطبع، ولا يكفُّه عنك إلا الذي خلقه[4].

وليس عبثًا أن يؤمر المسلم بالاستعاذة بالله من الشيطان في أكثر من موضع،

---

(١) شرح النووي على مسلم: ٦/ ٦٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠٠.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٩٧، ٩٨.

(٤) تفسير ابن كثير: ١/ ١٥.

عند الإحساس بنزغِهِ، وعند تلاوة القرآن، وعند افتتاح الصلاة، وعند إتيان الرجل أهلَه، وعند دخول الخلاء، وعند الغضب، وعند نهيق الحمير، ونباح الكلاب[١].

وبالجملة فالعبد مأمورٌ بالاستعاذة بالله من الشيطان عند حصول الخير، أو وقوع الشر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير؛ لئلا يعوقه الشيطان عنه، وعندما يعرض عليه من الشرِّ ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات، وعندما يأمره الشيطان بالسيئات، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لا يزالُ الشيطانُ يأتي أحدَكم فيقول: مَنْ خلق كذا؟ مَنْ خلق كذا؟ حتى يقولَ: من خلق اللهَ؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله وَلْيَنْتَهِ**». فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه في شرٍّ أو يمنعه من خير، كما يفعل العدوُّ مع عدوه[٢].

٦- أيها المسلمون: والدعاء سلاحٌ يحفظ الله به المسلم من كيد الشيطان، وقد قال صدِّيق الأمة رضي الله عنه: يا رسول الله علمني شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيتُ، قال: «**قل: اللهمَّ عالم الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، ربَّ كل شيءٍ ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي ومن شرِّ الشيطان وشِرْكِه**».

وفي رواية: «**وأن اقترفَ على نفسي سوءًا أو أجرَّه إلى مسلم، قُله إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ، وإذا أخذت مضجعَك**»[٣]. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[٤].

---

(١) وقاية الإنسان ٢٨١-٢٨٥.

(٢) الفتاوى: ٧/ ٢٨٤.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسنٌ صحيح، وصححه الألباني (تخريج الكَلِم الطيب) تعليق ٩.

(٤) سورة الناس.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه، كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته والأسماء والصفات، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوة الإيمان: والذِّكر عمومًا والأوراد الشرعية خصوصًا حصونٌ مانعةٌ من الشيطان بإذن الله، والغفلة والإعراض عنهما سبب لتكاثر الشياطين، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[(١)]. ومثل الذي يذكر الله كمثل رجل طلبه العدو سراعًا فاحتمى ببيت عظيم الأبواب منيع الأسوار، ومن رام هذه الأذكار والأوراد وجدها مجموعةً معتنىً بها من قبل العلماء -عليهم رحمة الله- ومع كثرة انتشار المختصرات لها في المساجد أو في البيوت أو غيرها.. وقد لا تتجاوز الصفحة أو الصفحتين، فقلَّة من الناس هم الذين يهتمون بها ويحفظونها ويرددونها آناء الليل وأطراف النهار على الرغم من أهميتها وعظيم أجرها، وحاجة الإنسان لها للحفظ من كل مكروه. وأسوق نموذجًا لها:

روى البخاري ومسلم رحمهما الله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيء قديرٌ، في يوم مئة مرة، كانت له عدْلُ عشرِ رقاب، وكتبتْ له مئة حسنةٍ، ومُحيتْ عنه مئة سيئةٍ، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذاك حتى يُمسي،**

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء به إلا رجلٌ عَمِلَ أكثرَ منه»[١].

وصحّ الخبر «مَنْ قال: أعوذُ بكلماتِ الله التاماتِ من شرِّ ما خلقَ ثلاثًا، لم يضرّه شيءٌ»[٢].

أيها المؤمنون: وفي كتاب الله شفاءٌ ودواء، وفي تلاوته أجرٌ ومَغنم، وبه يُحفظ القارئُ المتمعّنُ من شياطين الجن والإنس، وقد قال الله لنبيه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[٣].

أجل إن الشاطين تنفر من المكان الذي يتلى فيه القرآن، ولذا جاء الحث على تلاوة القرآن عمومًا، وعلى تلاوة سور مخصوصة طاردة للشيطان من مثل سورة البقرة والمعوذات، وآية الكرسي، والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة.

فطيبوا أفواهكم -عباد الله - بتلاوة كتاب الله، وحصّنوا بيوتكم من الشياطين بالإكثار من تلاوة كتاب الله فيها، وعطّروا مجالسكم، كما كان السلف يفعلون، بتلاوة كتاب الله، وأحدهم يقول للآخر: ذكّرنا ربنا.

٩ - يا أخا الإسلام: ومما يعينك على الحفظ من الشيطان أن تحفظ جوارحك عما حرم الله عليك، وأن تتذكر أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهاك مؤشرًا لجارحتين تكلّم العلماء عن أثرهما ومدخل الشيطان من خلالهما؛ يقول ابن القيم رحمه الله عن اللسان والعينين: وأكثر المعاصي إنما يولدها فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملاّن ولا يسأمان..

---

(١) البخاري مع الفتح: ٦/ ٣٨٨، مسلم مع النووي: ١٧/ ١٧.

(٢) رواه ابن السني، وفي رواية لمسلم ١٧/ ٣١ النووي.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٥.

وجنايتهما متّسعة الأطراف، كثيرة الشُّعب، عظيمة الآفات[١].

١٠ - عباد الله: وتطهير البيوت من كل وسيلة يجتمع عليها الشياطين من أقصر الطرق لحفظها وحفظ ساكنيها من نزغات الشياطين.. كآلات اللهو المحرم والغناء والأجراس، والتصاليب، والتصاوير المحرمة والتماثيل والكلاب.. مما جاءت النصوص الشرعية ناهية عنه[٢].

١١ - إخوة الإسلام: وحرِيٌّ بمن رام الحفظ من الشيطان ألا يتشبَّه به، فلا يأكل ولا يشرب بشماله، ولا يأخذ ولا يعطي بالشمال، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويعطي بشماله ويأخذ بشماله، رواه ابن ماجه وصححه المنذري[٣]. وكم هي عوائد سيئة، وعادات مستوردة حين يُستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. ولربما ظن البعض أن استخدام الشمال بدل اليمين في الأمور الكريمة تقدم وحضارة، والحق أنها تبعية مستهجنة، ونزغات شيطانية، ورسول الهدى ﷺ كان يعجبه التيامن، في شأنه كله فليكن لكم فيه أسوة حسنة.

١٢ - عباد الله: وإذا كان التثاؤب مدخلًا للشيطان، فإن ردَّه ما استطاع المرءُ، أو وضْعَ يدهِ على فيه يمنعه من الدخول بإذن الله، يقول عليه الصلاة والسلام: «**وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فليردَّه ما استطاعَ، فإذا قال: ها، ضحكَ منه الشيطان**»[٤].

---

(١) التفسير القيم ص٦٢٧.

(٢) انظر: «وقاية الإنسان من الجن والشيطان» بالي: ٣٦٥ - ٣٦٨.

(٣) الترغيب والترهيب: ٤/ ١٩١.

(٤) رواه البخاري: ١٠/ ٦٠٧ فتح.

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا تثاءبَ أحدُكم فليمسكْ بيدِهِ على فيه، فإن الشيطانَ يدخلُ**» رواه مسلم.

١٣ - وإذا كان رديءُ الكلام مدخلًا للشياطين، ففي الكلام الحسن وقاية من نزغات الشياطين، كذلك جاء توجيه خالقنا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[١].

إخوة الإيمان: وثمة عادات ربما مارسها بعض الناس جهلًا منهم أو ضعفًا، وهي من عادات الشيطان، وأولى لهم أن يجتنبوها، فالجلوس بين الظل والشمس جاء النهي عنه، وعُلِّلَ بأنه مجلس الشيطان[٢]. والعجلة من الشيطان.. والمبذِّرون إخوان الشياطين.

وتذكر حين تستكبر أنك تشابه الشيطان ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾[٣].

احرص على أن تَتَحلى بكل خُلق كريم.. فذاك سرور وتوفيق في الدنيا ومغنم عظيم في الآخرة.

أيها المسلمون: هذا ما تيسر ذكره من وسائل وأعمالٍ تُحصِّن المسلم من كيد الشيطان، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[٤]، ولا يكفي التّحسُّر والتلاوم على كلِّ نَزغةٍ من نزَغات الشيطان بأنه مسلط على الناس وبأن النفس ضعيفةٌ والربُّ غفور. لا بد من فعل الوسائل وتلمس الأسباب التي يحمي بها المرءُ نفسَه وأهله من كيد الشياطين.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٣.

(٢) رواه أحمد في «مسنده»، وجودَّ إسناده المنذري «الترغيب»: ١٩١/٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٤.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٢.

ولا بد مع ذلك كله من سدِّ جميع المداخل التي يدخل منها الشيطان والتي سبق بيانها.

اللهم اصرف عنا كيد الشيطان، اللهم احفظنا بحفظك واكلأنا برعايتك وأعِنّا على أنفسنا.



الفرح المشروع والمذموم[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارْضَ اللهم عن أصحابه أجمعين والتابعين وَمَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

عبادَ الله: وهذه الأيام، أيامُ أفراحٍ ومناسبات وزواجات ولقاءات، وإجازات وسفريات ونحوها... وأفراحنا -معاشر المسلمين- لا تُحدُّ بزمان، ولا تُقيَّدُ بمكانٍ، فكلُّ فرحٍ مشروع لأي مسلم، هو فرحٌ لنا جميعًا، وأيُّ نازلةٍ تصيب أحدًا من المسلمين نألم لها جميعًا، ولا غرابة في هذا، فالمؤمنون إخوة، بل تتجاوز أفراحنا مسرح الحياة الدنيا لتتَّصل بالآخرة لمن وفَّقه اللهُ لعمل الصالحات، فهناك

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٤/ ٤/ ١٤٢٠هـ.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣٥.

الحُبور والسرور، والأُنس والنعيم المقيم، قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[١].

أيها المسلمون: وتجري عوائد الناس في هذه الحياة بالفرح لشفاء مريض، أو عودة غائب، أو انفراج كربة عن مكروب، أو ولادة مولود، أو مناسبة زواج أو نجاحٍ أو ترقيةٍ أو نحو ذلك من أسباب الفرح، وهذا أمرٌ جِبلّيٌّ في بني الإنسان، وقد يُؤجر الإنسان على ذلك الفرح، وقد يأثم إذا جاوز الحدَّ المشروع، والمتأملُ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يجد فيهما الفرح المشروع والممنوع، وما يؤمر به من الفرح وما ينهى عنه، ويجد ألوانًا من الفرح مختلفة في أسبابها ومختلفة كذلك في عواقبها، أجل إنّ فرح المؤمنين، غير فرح الكافرين، وغير فرح المنافقين.. وكل هذه الأفراح جاء القرآن الكريم مبينًا لها، وجاءت سنة المصطفى ﷺ مفصلة فيها.

عباد الله: أما أفراح المؤمنين فبنصر الله، وبفضله ورحمته، وبالهجرة والجهاد والدعوة في سبيله، وبالخير يقع لأحد من المسلمين؛ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة الإنسان: الآية ١١-١٣.

(٢) سورة الروم: الآية ٤، ٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٩، ١٧٠.

ويقول تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١].

أيها المسلمون: وأَشرف الخلق وأكرمهم على الله كان يُسَرُّ لفتوحات الإسلام ويفرح بسلامة المسلمين وعودة غائبهم، وفي «سُنن أبي داود» والسِّيرة قوله ﷺ حين فتح الله عليه خيبر، وقدم عليه جعفر ومن معه من المسلمين من أرض الحبشة، قال عليه الصلاة والسلام: «**ما أدري بأيِّهما أنا أسَرُّ؛ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟**»[٢].

بل يصل الأمر بالمسلمين إلى أن يبكي أحدُهم من شدة الفرح لخبر بلغه وخير حظي به دون غيره، وهذا هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين جاءه الرسول ﷺ مُخبرًا عن إذن الله له بالهجرة، وأن أبا بكر سيكون صاحبه بالهجرة، ورفيقه في الطريق إلى المدينة، بكى من شدة الفرح حتى قالت ابنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: وما كنت أحسب أن أحدًا يبكي من الفرح[٣].

يا أخا الإسلام: وهاك نموذجًا آخر لفرح المسلم بإسلام أقرب الناس إليه؛ أبو هريرة رضي الله عنه كان برًّا بأُمِّه، ولكنها قبل إسلامها كانت تُسمع ابنها في الرسول ﷺ ما يكره وما فتئ الابن يدعوها إلى الإسلام، حتى طلب من الرسول ﷺ أن يدعو لها بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «**اللهمَّ اهدِ أُمَّ أبي هريرةَ**» فاستبشر أبو هريرة بهذه الدعوة، وما وصل البيت حتى وجد أمه تغتسل -وقد أجافت الباب- وقالت: مكانك يا أبا هريرة، فلبست درعها وعجلت عن خمارها، ففتحت

(١) سورة يونس: الآية ٥٨.

(٢) السيرة لابن هشام: ٤/ ٧، و«سنن أبي داود»: ٥/ ٣٩٢، وحسنه الألباني في «فقه السنة»: ٥/ ٣٦٧.

(٣) رواه ابن إسحاق، وانظر «الفتح»: ٧/ ٢٣٥.

الباب وقالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال أبو هريرة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح. الحديث رواه مسلم في «صحيحه»[١].

تلك نماذج من فرح المؤمنين -وهي بكل حال متعلقة بمعالي الأمور، وخدمة الدين، ومصالح المسلمين، وفرحتهم في الدنيا موصولة بفرحهم في الآخرة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾[٢].

أيها المؤمنون: أما أهل الكفر والكبر والخيلاء فهم يفرحون، لكن بم يفرحون؟ وما عاقبة فرحهم؟ إنه فرح بمتاع الدنيا والله يقول: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾[٣].

وهو فرح يعقبه الحسرة والندامة والإبلاس ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤].

وقارون من نماذج الفرحين البطرين، وقد قال له الناصحون: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٥]. وحين استمر في كبريائه وفرحه المذموم، خسف الله به وبداره الأرض: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[٦]. وليس له وأمثاله في الآخرة من خلاق ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا

---

(١) النووي ١٦/ ٥١ - ٥٢.

(٢) سورة الانشقاق: الآية ٧ - ٩.

(٣) سورة الرعد: الآية ٢٦.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٤٤، ٤٥.

(٥) سورة القصص: الآية ٧٦.

(٦) سورة القصص: الآية ٨١.

فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

عباد الله: ولأهل الريب والنفاق -قديمًا وحديثًا- فرحهم.. ولكن فرحهم بمصائب المسلمين ونوازلهم، والتخلف عن الجهاد والدعوة، وبالأذى يصيب الرسول أو أحدًا من المسلمين، وقد فضحهم الله وكشف سريرتهم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٢]. أجل لقد كانوا يفرحون بالمصيبة تقع على رسول الله ﷺ أو على أحدٍ من المسلمين، وتسوؤهم الحسنة والخير الحاصل لهم: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[٣].

إنهم متربصون، وساخرون وساخطون، وكاذبون، ومستكبرون، لا تكاد تجد لهم موقفًا واضحًا ومحددًا، بل يدورون مع الحدث كيف دار، ويتخلصون من المواقف الصعبة المحرجة بالكذب والأعذار، وصدق الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[٤]. ألا بئست البضاعة وخاب المنافقون وخسروا، وفرحتهم الظاهرة القليلة سيعقبها البكاء طويلًا، كما في محكم التنزيل: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[٥].

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٣.

(٢) سورة التوبة: الآية ٨١.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥٠.

(٤) سورة النساء: الآية ١٤١.

(٥) سورة التوبة: الآية ٨٢.

اللهم انفعنا بواعظ القرآن، وارزقنا العمل بسنة خير الأنام، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، أسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وإن عليه النشأة الأخرى، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أعطاه ربه حتى رضي، وقال له: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[(١)].

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارضَ اللهم عن أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: إخوة الإيمان، فمن أعظم مقامات الإيمان الفرحُ بالله، والسرورُ به، فيفرح العبدُ بخالقه، إذ هو عبدُه ومحبُّه، يفرح به سبحانه ربًا، وإلهًا، ومنعمًا، ومربيًا، أشدُّ من فرح العبدِ بسيده المخلوق المشفق عليه، القادر على ما يريده العبدُ ويطلبه منه، والمتنوع في الإحسانِ إليه والذبِّ عنه[(٢)].

والفرح بالله وبرسوله وبالإيمان والسنة، والعلم والقرآن من أعلى مقامات العارفين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ﴾[(٤)].

قال صاحب «المدارج»: فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند

---

(١) سورة الضحى: الآية ٤.

(٢) مدارج السالكين: ٣/ ١١١.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٤.

(٤) سورة الرعد: الآية ٣٦.

صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره.. والفرح تابعٌ للمحبة والرغبة[١].

يا أخا الإسلام: سائل نفسك حين تفرح، مم تفرح ولماذا تفرح؟ وما صلة فرحتك بالإسلام وأفراح المسلمين، وبالخير والخيِّرين؟

إن من علامات الخير في المجتمع الفرح بالخير يحصل للمسلمين، ومن علامات وعي المجتمع أن يشترك في فرحة الخير للإسلام وأهل الإسلام الكبار والصغار، والذكران والإناث .. في زمن باتت مغريات الحياة الدنيا كثيرة، وبات الفرحُ بسفاسف الأمور ومغريات الحياة الدنيا يسيطر على عقول عددٍ من أبناء المسلمين.

ومن علائم الخير -كما قال العلماء- أن يفرح المرء بالحسنة إذا عملها، ويُسرُّ بها، فذاك فرحٌ بفضل الله، حيث وفَّقه الله لها وأعانه عليها ويسَّرها له.

أيها المسلمون: ومن الفرح المذموم أن يطغى المسلم للنعمة يؤتاها: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٢].

وقد ينسى الفرحُ بالنعمة -أحيانًا- شُكرَ المُنعِم، وكفى بالقرآن واعظًا والله يقول: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[٣].

وقد كان السلفُ يَحْذَرُونَ ويُحَذِّرُونَ من الاغترار بالنعمة والتجاوز في الفرح، ويرون الفرح من أسباب المكر، ما لم يقارنه خوفٌ من الجليل سبحانه[٤].

عباد الله: قيِّدوا أفراحكم بشرع الله، وإياكم والتجاوز فيه بالقول أو بالعمل،

(١) ٣/ ١٦٥.
(٢) سورة العلق: الآية ٦، ٧.
(٣) سورة النحل: الآية ٥٣.
(٤) المدارج: ٣/ ١١١ - ١١٤.

وإياكم أن تأسوا على ما فاتكم أو تتجاوزوا المشروع في الفرح بما آتاكم، فالله يقول: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١].

أي مختال في نفسه، متكبِّر فخورٍ على غيره، وتأملوا قول عكرمة واعملوا به؛ قال: ليس أحدٌ إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكرًا، والحزن صبرًا. فتلك قاعدةٌ حَرِيَّة بالتأمل[٢].

وليس يخفى أن المكروه للنفس قد يكون فيه خيرٌ كثير، وقد يكون في المحبوب لها شرٌّ وفتنة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

يا أخا الإسلام: وحين يكون الحديث عن الفرح فثمة أسئلة حَرِيٌّ بك أن تسألها نفسك، فما مدى فرحتك بانتصار الدعوة إلى الله وظهور الحق؟ وما مدى سرورك بعزِّ الإسلام وغلبة المسلمين؟ وما مدى حُزنك حين يظهر الفساد، ويفشو الباطل، ويكثر المبطلون، ويغلب الكفار، ويتنامى النفاق، ويكثر المنافقون.. إنها أسئلة تحدد نوع فرحك وحزنك، وهل هو في ذات الله ولصالح الإسلام والمسلمين، أم لأهوائك وشهواتك، كما تُحدد هذه الأسئلة صدق انتمائك للإسلام، وشعورك بأخوِّة المسلمين، واهتمامك بقضاياهم.

وهذه الأسئلة ميزان لعمق فرحك ونُبل مشاعرك، وعلوّ همتك، وبكل حال ومهما بلغت أفراحك في الدنيا فلا تنسَ فرحة الآخرة، وأنت واجدٌ في القرآن

(١) سورة الحديد: الآية ٢٣.
(٢) تفسير ابن كثير للآية ٤/ ٥١٤.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

تذكيرًا بها، وها هو المصطفى ﷺ يذكِّرك بها في فرحة الفطر من الصيام ويقول: «**للصائم فرحتان؛ فرحةٌ عند فطرِه، وفرحةٌ عند لقاء ربِّه**».

اللهم لا تحرمنا فضلك، واجعل أفراحنا في ذاتك ولأوليائك ونصرة دينك، ولا تحرمنا فرحة الآخرة وسرورها.



الإخلاص: معاني وآثار وعلامات ووسائل[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر النبين والمرسلين، ورضي الله عن أصحابه أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣].

أيها المسلمون: حديثي إليكم عن أمر يهمنا جميعًا، ونقصِّر في شأنه كثيرًا، نتحدث به كثيرًا ولا نعمل به في حياتنا إلا قليلًا، هو أمر الله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤].

وهو الدين الذي يرضاه الله ويقبله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾[٥].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٥/ ٢/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٤) سورة البينة: الآية ٥.

(٥) سورة الزمر: الآية ٣.

إنّنا في زحمة الحياة، وغلبة الشهوات، وطغيان المجاملات نفرِّط في أغلى شيء، وننسى أو نتناسى أنفس شيء، نلتفت إلى عدد من أعمالنا وممارستنا في الحياة اليومية، فلا نكاد نجدُ الإخلاص لها رائدًا.. وحين نصدق مع أنفسنا نعترف بأن الدافع لعدد من تصرفاتنا ومواقفنا حظوظ النفس، وغلبةُ الأهواء، والرغبة في مطامع الدنيا، ومن هنا قلَّت البركة في أعمالنا، وضعف إنتاجنا، وتعبت أجسادنا، ولم تطمئن قلوبنا، وَوُجِدت الخصومات والتنافر بيننا.

إن الحديث عن الإخلاص صعب على النفس، ولولا أمانة الكلمة ومسؤولية البلاغ ما حدثتكم، فأنا أحوج للحديث منكم.. ولا تَقِلُّ حاجتي عن الإخلاص عن حاجتكم.. لكنني أخاطب نفسي إذ أخاطبكم، وألوم نفسي قبل أن ألومكم.. وكلّنا خطَّاء، وخير الخطائين التّوابون، ولنسمع الحديث، وليس منا مبرّأٌ من النقص والخطأ. حديثي إليكم عن شيءٍ من معاني الإخلاص وآثاره، وعلامات الإخلاص وأمارات المخلصين، ألا ما كان الإخلاص في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

إن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العالمين يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوي البحت، فيجعلانه عبادة متقبلة. وإن خُبث الطَّوية، وظهور الرياء يهبطان بالطاعة المحضة، ويقلبانها إلى معاصٍ شائنة لا ينال المرء منها بعد التعب في أدائها إلا بالفشل والبوار.

أرأيتم كيف بلغ سقي الكلب الذي يأكل الثرى من العطش بصاحبه إلى مغفرة الرب؟! والرجل يزرع الزرع ويغرس الغرس ليتكسب من وراء ذلك، فإذا رافقته النية الطيبة، واحتساب الأجر لمن أكل منه، لم يأكل منه طيرٌ أو إنسان أو حيوان إلا كان له به صدقة.

بل إن شهوة المرء التي يتلذذ بفعلها تنقلب إلى عبادة مع حسن النية وعلُوِّ المقصد، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: «**نعم، أرأيتم لو وضَعَها في حرامٍ أما يكون عليه وزرٌ؟**» قالوا: بلى، قال: «**وكذلك إذا وضعها في حلال**»؛ يعني يكون له بذلك أجر، فكيف إذا صاحب ذلك إصلاح الذرية، وتكثير نسل المسلمين، وإعفاف النفس والآخرين؟!

إخوة الإسلام: وفي مقابل ذلك قال تعالى عن فئة من المصلين ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[1].

وقال عن فئة من المتصدقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

أيها المسلمون: إن توفر الإخلاص واستحضار النية الطيبة تجعل من المعدوم موجودًا، فقد يهمُّ المسلم بعمل الخير، ويرغبُ في أدائه، ولكنه قد لا يستطيعه، أو تعجز وسائله عن إدراكه.. فيكتب الله له أجر ذلك العمل -وإن لم يقم به-؛ لأن الله علم ما في قلبه.

أرأيت من يتطلع إلى جهاد الأعداء، ولكن يقعد به ضعفه عن ذلك، ومن يغبط المتصدقين فيَودُّ لو كان له مال فينفقه في سبيل الله، ومن يتطلع إلى عمل الصالحات، لكن يقعد به المرض، كلُّ أولئك وأمثالهم بنواياهم وأجرُهم على الله، وفي حديث: «**إنما الدنيا لأربعة نفر..**» درس وعبرة.

---

(١) سورة الماعون: الآية ٤-٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

وحين تخلَّف نفرٌ من المسلمين عن الغزو مع رسول الله ﷺ مع شدة رغبتهم في الخروج، لكن حبسهم العذر، حينه نوَّه الرسول ﷺ بفضلهم، وشملهم بعظيم الأجر من ربهم، وقال عنهم: «**إن أقوامًا خَلْفنا بالمدينة، ما سَلَكنا شِعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا، حَبَسَهُمُ العذرُ**» رواه البخاري.

وهكذا سُجِّل هؤلاء المخلصون مع المجاهدين؛ لأنهم قعدوا راغمين معذورين[1].

وفي المقابل استحقَّ نفرٌ -ممّن خرجوا مع المسلمين- التقريع والفضيحة، بل ووصمة الكفر والإجرام؛ لأنهم خرجوا نفاقًا، وكان شغلهم -حين خرجوا- الإرجاف والاستهزاء بالمؤمنين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[2].

عباد الله: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكلِّ امرئ ما نوى**» حديث من أحاديث الذي لا ينطق عن الهوى، وهو أصل من أصول الإسلام، كان كثير من العلماء يفتتحون به مؤلفاتهم لأهميته وأثره على الأعمال قبولًا أو ردًا.. فهل نضع هذا الحديث أمام أعيننا في كل حركة نتحركها أو قولٍ نقوله، أو عمل نعمله.

إن الله لا يرضى أن يُشرك معه غيره في العبودية والطاعة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[3].

وفي الحديث القدسي يقول الله تبارك وتعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك،**

(١) الغزالي: «خلق المسلم» ص٨١.
(٢) سورة التوبة: الآية ٦٥، ٦٦.
(٣) سورة الكهف: الآية ١١٠.

من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشركَه»[١].

ألا ويح الذينَ يغرون الناس بهيئاتهم أو أقوالهم، والله يعلم ما يكتمون. وهم أبعد ما يكونون عن الإخلاص، وأولئك حَريُّون بالفضيحة في الدنيا، أو في الآخرة، أو بهما جميعًا. وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي وحسَّنه غيره، قال ﷺ: «**يكون في آخر الزمان رجالٌ يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللِّين، ألسنتُهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوبُ الذئابِ، يقول الله تعالى: أبي يغترُّون، أم عليَّ يجترئون؟! فبي حلفتُ لأبعثن على أولئك منهم فتنةً تَدَعُ الحليمَ حيرانَ»**[٢].

وفرق بين هؤلاء وبين الأخفياء الأتقياء الذين يعملون الصالحات -طاعة لله، وإحسانًا إلى الخلق- ثم يتوارى أحدهم بعمله ويكره أن يطلع عليه الناس - لكن أولئك يرجون لقاء الله وعظيم أجره و﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣].

إن الناس -كلَّ الناس- يلجؤون إلى الله بالإخلاص في حال الشدائد والضراء إذ يشعرون حينها ألاَّ ملجأ من الله إلا إلى الله، وهنا يدعونه تضرعًا وخفية، ولكن تلك حالات طارئة لا يقاس بها الإخلاص الحقّ -وإنما يقاس الإخلاص في أحوال السراء حين تتطلَّعُ النفوسُ إلى أعراض الدنيا من الشهوة والشُّهرة وحب الثناء والتطلع إلى الجاه وبُعد الصيت، فتؤثر ما عند الله على ما عند خلقه، وتُغلِّبُ نعيم الآخرة على متاع الدنيا الزائل.

---

(١) أخرجه مسلم: ٢٩٨٥، «جامع الأصول» ٤/ ٥٤٥.
(٢) رقم ٢٤٠٦، جامع الأصول ٤/ ٥٤٥.
(٣) سورة العنكبوت: الآية ٥.

إن الإخلاص يستدعي -فيما يستدعي- نفوسًا كبيرةً لا يأسرها التفكير باللحظة الحاضرة، بل تتطلع إلى الثمرة المستقبلية للإخلاص، ويستدعي كذلك ضبط النفس عن مزالق الفتن والشهوات، ويستدعي الثبات على الحق في الملمات، حتى وإن نال النفس شيءٌ من المصاعب والمتاعب. ولقد كان سحرةُ فرعون نموذجًا لهذا حين خالط الإيمان قلوبهم، وانطلقوا من قاعدة الإخلاص واليقين يقولون لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1].



(١) سورة طه: الآية ٧٢، ٧٣.

الخطبة الثانية:

الحمد لله خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فاوت بين عباده في الهمم، وفاوت بينهم في حسن القصد وصلاح العمل، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أخبر -وهو الصادق الأمين- عن مصير الثلاثة الذين انتهى بهم الأمر إلى أن يسحبوا على وجوههم حتى يلقوا في النار؛ لأنهم عملوا من أجل الناس حتى ولو كان الأمر -في ظاهره- جهادًا في سبيل الله، أو تعلُّمًا للعلم وتلاوة للقرآن، أو نفقة في وجوه الخير[١]. اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

عباد الله: وإذا كان أمر الإخلاص عظيمًا عند الله فليس سهلًا على النفوس -إلا من وفَّقه الله وجاهد نفسه على ترويض النفس على الإخلاص.

قال أحدُ العارفين: ليس على النفس شيءٌ أشقّ من الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب[٢]. وقال آخر: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر[٣].

أيها المسلمون: إن المتأمل في واقعنا يرى كيف يعزُّ الإخلاص ويقلُّ المخلصون.. أين إخلاص العامل في عمله، وأين إخلاص المربي في تربيته، هل يخلص رجال الأعمال في أعمالهم؟ وهل تظهر على الطلاب سيما الإخلاص في دراستهم وتحصيلهم؟ وفي مجال الطب والهندسة، أو غيرهما من الوظائف

(١) أخرجه مسلم.
(٢) هو سهل بن عبد الله.
(٣) هو يوسف الرازي، «جامع العلوم والحكم»١٥.

والحرف، ما نَصيبُ الإخلاص لدى المختصين والعاملين فيها؟ في مجال طلب العلم - عمومًا - والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي القضاء، بل وفي سائر الولايات الدينية والدنيوية.. كيف يكون الإخلاص؟ وكم هي نسب المخلصين؟

عباد الله: ولئن كان الإخلاص من أعمال القلوب، وتلك لا يعلم حقيقتها إلا علاَّم الغيوب، إلا أن للإخلاص أماراتٍ وللمخلصين علامات يمكن أن يُستدل بها عليهم، ومن علامات الإخلاص: الجدية في العمل وحسن الإنتاج، وأن يستوي عند العامل شهود الناس لعمله أو غفلتهم عنه. ومن علامات المخلصين أنهم لا يرغبون في مدحهم ولو عملوا، بعكس غيرهم ممن يُحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا.

المخلصون يخشون الله بالغيب ويراقبونه في حال السرِّ، كما يخشونه في الشهادة، ويراقبونه في حال العلانية، شأن المخلصين وهدفهم رضى الله، وليس هدفهم أن يرضى الناس عنهم ولو سخط الله.

المخلصون لا يأنفون أو يتضايقون إذا رموا بما ليس فيهم، فقد يكون أحدهم جوادًا ويُرمى بالبخل، أو عالمًا وداعيةً ويرمى بالجهل والإفساد -وهو ليس كذلك في ظاهره وباطنه- بل ربما أزرى المخلصون بأنفسهم وحمدوا المتَّهمين لهم بما ليس فيهم. ومن روائع مواقف السلف أن رجلًا زاحم سالم بن عبد الله بن عمر ﵃ في منىً، فالتفت الرجل إلى سالم -وهو لا يعرفه- فقال له: إنّني لأظنُّك رجل سوءٍ، فأجابه سالمٌ -وهو من خيار التابعين- بقوله: ما عرفني إلا أنت[1].

(١) «صفة الصفوة» ٢/ ٩٠، «الأتقياء» إبراهيم الدويّش ٤١.

أهلُ الإخلاص تهون عليهم أنفسهم فلا ينتقمون لها، وتعظم في صدورهم حرماتُ الله فيغضبون لانتهاكها، ويقومون بما أوجب الله عليهم حيال المنتهكين لها.

المخلصون يهتمون بإخلاص العمل وموافقته للصواب والسنة وديمومته -وإنْ قل عملُهم- وغيرُ المخلصين يهتمون بكثرة العمل حتى وإن خالطه الرياءُ، وأفسدته الخرافات والبدع.

أيها المسلمون: وهناك أمور تعين المسلم والمسلمة على الإخلاص، ومنها: إدامة النظر في كتاب الله عمومًا، والتأمل في آيات الإخلاص وثواب المخلصين خصوصًا.

ومن مثل قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[1].

وألاَّ يعمل المرءُ حين يعمل وغاية أمانيه حظوظ الدنيا ومتاعُها، بل عليه أن يتطلع إلى نعيم الآخرة وثوابها، وفي القرآن الحكيم: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[2].

وألاَّ يجعل رضى الناس غايته، فمن أرضى الله بسخط الناس -رضي الله عنه وأرضى عنه الناس-، ومن أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس.

---

(١) سورة الإسراء: ١٨.

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٨.

وتدريب النفس على الإخلاص ومجاهدتُها على التخفي عن أَعْيُنِ الناس فيما لا حاجة بالاطلاع عليه يعين على الإخلاص، وقد روي عن عبد الله بن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عن الحسن -رحمهم الله- أن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فَقِهَ الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد أدركت أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدًا، لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[1].

والنظَر في سير الأنبياء عليهم السلام، والصالحين المخلصين من بعدهم، ومعرفة عواقب الإخلاص في حياتهم يُعين كذلك على الإخلاص، وليس يخفى أن الإخلاص سبب لصرف السوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام، وهذا من حفظ الله له: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2].

ومما يعين على سلوك الإخلاص أن يتصور المرءُ -وهو بَعْدُ في الدنيا- رقابةَ الله، ودقةَ الحساب يوم القيامة، وما أتعس العامل إذا وفد على الله بأعمال كثيرة، لكنها غير خالصة لله، فطرحت ثم طرح صاحبها في النار، وقيل لهؤلاء المرائين: اذهبوا إلى من كنتم تُراؤون في الدنيا فليشفعوا لكم.. وهناك يفرّ المرء من أخيه، وأُمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وأنّى له أن يلتفت إلى من كان يرائيه؟

هذا فضلًا عن أن المرائي قد ينكشف في الدنيا ويفضح حيًّا، قبل أن تكون

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٥.

(٢) سورة يوسف: الآية ٢٤.

الفضيحةُ الكبرى، فليحذر العقلاءُ من سوء العواقبِ عاجلًا أو آجلًا.

عباد الله: ثمِّنوا الإخلاص في حياتكم، وقدِّروا من تتعاملون معه حقَّ قدره، فهو العالم بسرِّكم وجهركم، واعلموا أن الله لا ينظرُ إلى صوركم وأجسامكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم، وأنه خلق السماواتِ والأرضَ، والموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسنُ عملًا.

ومع الاجتهاد في كل وسيلة تبلغكم الإخلاص فعليكم بالدعاء، ولا تنسوا أن تقولوا: اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئًا أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه. واسألوا ربكم قبول الأعمال، فإنما يتقبل الله من المتقين. جعلني الله وإياكم والمسلمين من الأتقياء، الأنقياء، الأخفياء. ومن عباد الله المخلصين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.



(١) التفاؤل في زمن الشدائد[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله وإخوانه من الأنبياء، وارضَ اللهم عن أصحابه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أوصيكم ونفسي -معاشر المسلمين- بتقوى الله، فهي وصية الله للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[2].

وبها أمر الله: ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[3].

وفيها المخرج من الشدائد، والرزق من حيث لا يحتسب المرزوق:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[4].

أيها المسلمون! في زمن الشدائدِ والمحن يُصاب بعض الناس باليأس والقنوط.

وحين تتوالى ضرباتُ الأعداءِ على المسلمين وتكثر الخطوبُ المفزعة يُصاب بعضُ المسلمين بالإحباط والضعف، ولله في خلقه شؤون، والأيامُ يداولها بين

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٢/ ١١/ ١٤٢٠هـ.

(٢) سورة النساء: الآية ١٣١.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٦.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٢، ٣.

الناس، وكما يُبتلى الناسُ بالسراء يبتليهم اللهُ كذلك بالضراء، ليستخرج عبوديتَهم في الحالتين، ويعلم -وهو العليمُ الخبيرُ- كيف يشكرون وكيف يصبرون.

والمتأمل اليوم في واقع المسلمين؛ يرى ضعفًا وفُرقة، وذلةً ومسكنةً، وفتنًا ومصائب يتلو بعضُها بعضًا، وكلما تجرَّع المسلمون كؤوس بليةٍ، انبعثت لهم أخرى، وهكذا، وفي مقابل ذلك كلما أوشكت لهم راية أن ترتفع، وإذا بالسهام تُسدد نحوها، ضربٌ وتطويق وسلبٌ للثمار، وخطفٌ للنتائج دون المسلمين.

هذا فضلًا عن غزو الأفكار، وحرب القيم عبر الفضائيات والقنوات، وفضلًا عن المشروع الأكبر في حصار العالم، وفي طليعتهم المسلمون في عقائدهم واقتصادهم وقيمهم -عبر مشاريع العولمة والنظام العالمي الجديد!

عباد الله! وهذه المؤثراتُ كلُّها، وما ينضاف إليها من مِحَن وإحَنٍ وانحراف عن صراط الله المستقيم بين المسلمين أنفسهم، وشيوعٍ للنفاق، وكثرة المنافقين، وما يستتبعُ ذلك من محاولاتٍ للفساد والإفساد. هذه وتلك تشكّلُ ضغطًا على النفوس، وتضيق لها الصدور، وربما سببت اليأس والقنوط أو الضعف والإحباط عند بعض المسلمين.

وهنا ترد الأسئلة التالية:

ما مظاهرُ الإحباط والضعف؟ وكيف كان هدي المرسلين عليهم السلام في ظل هذه الظروف زمن الشدائد والكروب؟

ما هي أخطاؤنا في ظل هذه الظروف؟ وما المطلوبُ مَنّا حتى نخرج من هذه الأزمات؟

هل من نماذج تقوي عزائمنا -في ظروف المحن والكروب -؟ ما دور العلماء

والدعاة؟ وما أثر المرجفين والمثبطين؟ ما هي الدروسُ والحكمُ في زمن الشدائد؟ وكيف تُستخرج عبودية الضراء لله رب العالمين؟ إلى غير ذلك من أسئلة قد تثور، وما أحوجنا إلى معرفتها والإجابة عنها.

يا أخا الإسلام: حديثي إليك عن: التفاؤل في زمن الشدائد، ولكن الحديث عن هذا لا ينفك عن تقدمةٍ تشخِّص الداء وترشد للدواء.

أيها المسلمون: أما مظاهرُ الإحباط فمنها ضعفٌ في السلوكيات وتراجعٌ في القيم، تبرز عند بعض المسلمين والمسلمات، وربما وصل الأمر إلى اهتزازٍ في القناعات والمسلَّمات -يقلُّ هذا الأثرُ أو يكثر على حسبِ قوةِ التأثرِ بالموجات الغازِيَة، وعلى حسب قوة اليقين أو ضعفه بما وعد اللهُ المتقين والفجار.

ومن مظاهر الإحباط كذلك الانهزاميةُ والشعورُ بالنقص، وربما تطور الأمرُ إلى الإعجابِ والفتنةِ بالكفار والموالاة لهم.

ومن مظاهر الإحباط القعودُ عن العمل المثمر، والضعفُ في الدعوة إلى الله، والشعورُ الخاطئ بأن منافذ الإسلام أُغلقت، وفرص الدعوة قد حُجّمت، وأخطرُ من ذلك أن تُمارس الدعوةُ بمناهجَ منحرفةٍ، وأساليب خاطئة، بها تُشوَّه صورةُ الإسلام، ويُحطَّم سياجُ الحلالِ والحرام! وتُخلِّف هذه الوسائلُ الخاطئةُ آثارًا سلبيةً على الدعوة والدعاة.

عباد الله: أمَّا رسولُ الهدى والمرسلون من قبله -عليهم جميعًا أفضلُ الصلاة وأزكى التسليم- وأتباعُهم من المؤمنين -عليهم رضوان الله- فما وهنوا لما أصابهم في سبيل اللهِ، وما ضعفوا وما استكانوا ولا يئسوا ولا قنطوا من رحمةِ الله، بل كان الفألُ شعارهم والوعدُ بنصر الله حديثَهم، يتخطون بذلك ظروف الزمن الحاضرة، وينظرون بنورِ الله إلى نصرهِ في الأيام المستقبلة.

أجل، أيُّ وضع كان يعيشه بنو إسرائيل في زمن فرعون! ومع ذلك قال لهم موسى واعدًا ومبشرًا: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١)، وحين اعترضوا عليه بالأذى الذي لحقهم، وكأنهم استبعدوا تَغيُّر حالهم -قال لهم نبيهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

وتحقق وعدُ الله وانتصر المُستضعَفون، وأهلك اللهُ الظالمين: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾(٣).

وتأمل في قصةِ العنتِ والأذى، ورحلةِ الإضعافِ والاستذلال، ثم ما أعقبها من نصر وتمكين، يُخبر عنها الرحمن الرحيم، ويسوقها القرآنُ في بضع آياتٍ تسلية لمحمد ﷺ وأصحابه، وللمؤمنين من بعدهم، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾(٤).

وحين بُعث المصطفى ﷺ وأشرق نور الإسلام في مكة، لم يكن طريقهُ محفوفًا

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢٨.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.
(٤) سورة القصص: الآيات ٤-٦.

بالورود والرياحين، ولم تُسلمِ العربُ لمحمدٍ ﷺ -وهم أقرب الناس إليه - بل آذوه واتهموه، وأخرجوه وحاربوه، وعاش والمؤمنون الأوائلُ معه في مكة فترةً عصيبةً، واستشهد بعضهم تحت وطأةِ التعذيب، وفرَّ بعضُهم بدينه تاركًا أهله ووطنه وأمواله، وبقيت آثارُ التعذيب في أجسادِ بعضهم تحكي ظروف المحنة، وتُعتبرُ أصدق لسانٍ يُعبر عنها: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[١]. ويكفي من ذلك أن تعلم ما رواه ابن سعدٍ في «طبقاته»، وابن ماجه في «سننه»: أن خباب بن الأرت رضي الله عنه جاء يومًا إلى عمرَ رضي الله عنه فأدناه من مجلسه وهو يقول له: لا أحدَ أحقَّ بهذا المجلسِ منك إلا عمار، فجعل خبابٌ يُري عمرَ آثارًا بظهره مما عذبه المشركون[٢].

أما بلالُ بنُ رباح رضي الله عنه فأخبارُه في البلاء والصبر أشهرُ من أن تذكر، ويكفي أن أبا بكر رضي الله عنه حين جاء ليشتريه وجده مدفونًا بالحجارة، كما رواه ابن أبي شيبة وغيره بإسناد صحيح[٣].

ومع هذه الشدائد والمحن التي مرت بالمسلمين كان رسولُ الله ﷺ واثقًا بنصر ربِّه، متفائلًا بنصرة دينه والمسلمين، حتى وإن لم يملك للمسلمين حينها حلًا عاجلًا لِمَا هُمْ فيه من بلاءٍ ومحن، ودونك حديث البخاري فتأمله واعقل ما فيه من شدةٍ وما يحمله من بشرى وتفاؤل ونهي عن الاستعجال في النتائج؛ يقول خبابٌ رضي الله عنه: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ قال: «**كان الرجلُ فيمن قبلَكُم يُحفر له في الأرض**

---

(١) سورة البروج: الآية ٨.

(٢) «الطبقات» ٣/ ١٦٥، صحيح سنن ابن ماجة: ١/ ٣١.

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٥٣.

فيجعلُ فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشقُّ باثنتين وما يصدُّه ذلك عن دينهِ، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمهِ من عظمٍ أو عصب، وما يَصدُّه ذلك عن دينه، والله ليُتَمَّنَّ هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضر موتَ، لا يخاف إلا اللهَ، أو الذئبَ على غنمهِ، ولكنكم تستعجلون»[1].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) البخاري ح ٣٦١٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٤.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، يُعزُّ من يشاء ويُذلُّ من يشاء، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحُكمِه وهو سريعُ المحال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وهو القوي العزيز، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوة الإسلام: وحين نستقرئ نصوص السيرة النبوية نجد محمدًا ﷺ متفائلًا بكل حال، واعدًا أصحابه بالنصرِ والغلبة على الأعداء، حتى وإن لم تَلُحْ في الأفق بوادرُ نصر حينها، لكنه نور الله، والثقة بنصره، يراها رسولُ الله ﷺ خلف السدود والسنين، وهي جزءٌ من إطلاعه على غيب الله، وما نزل عليه في كتاب الله.. ألا تراه يُخبر ﷺ عن هزيمة مرتقبةٍ لقريش في بدر وهو بَعْدُ في مكة؟ وينزل عليه في أحد السور المكية ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[١].

قال الطبريُّ رحمه الله: والمرادُ هنا هزيمةُ جمعِ قريش، وقد أنجز اللهُ ذلك الوعدَ، فهُزم المشركون في بدر[٢].

ويعلق ابنُ تيمية على ذلك بقوله: وهذا مما أنبأه اللهُ من الغيب في حال ضعفِ الإسلام واستبعاد عامةِ الناس ذلك، فكان كما أخبر[٣].

ثم لا ينفك هذا الشعورُ المتفائلُ عند رسول الله ﷺ، حتى وأهلُ مكة يخرجونه وأهلُ الطائفِ يؤذونه، وفي «طبقات ابن سعدٍ»[٤]: أن النبي ﷺ لما عاد من

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٤، ٤٥.
(٢) تفسير الطبري ١١/٢٧، ٦٤.
(٣) النبوات: ص٢٤٩.
(٤) (١/٢١٦).

الطائف أقام بنخلةَ أيامًا، فقال له زيدُ بنُ حارثة رضي الله عنه: كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك؟ فقال: «يا زيد إن الله جاعلٌ لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله مظهرُ دينه وناصرُ نبيِّه..».

ويستمر هذا الشعورُ الواثقُ بنصر اللهِ ومعيَّته، وأقدامُ المشركين تطأ فم الغار الذي يختبئ فيه وصاحبُه، وحين قال أبو بكر: يا نبي الله! والله لو أن أحدهم أبصر موطن قدمه لرآنا، أجابه الرسولُ ﷺ بكل ثقة: «يا أبا بكر ما ظنُّكَ باثنين اللهُ ثالثُهما»؟!، وصدق الله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[1].

وفي طريق الهجرة وقريشٌ تلاحق محمدًا ﷺ وتضع الجوائز لمن يجيء به، يُدرك سراقةُ رسولَ الله ﷺ، ويقول أبو بكر: قد لحقنا يا رسولَ الله! فيقولُ لأبي بكر -مرة أخرى-: «**لا تحزن إن الله معنا**»[2].

فإن قلتَ -يا أخا الإسلام-: ذاك رسولُ الله المؤيدُ بوحيه والمُطلع على غيبه! قيل لك: ذاك حقٌّ.. ولكنا مكلفون بالاقتداءِ به: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[3].

وحفظُ اللهِ ومعيتُه، والثقة بنصرهِ، وتمامُ التوكل عليه، ليست خاصة بالمرسلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[4].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٢) رواه البخاري ح ٣٦٥٢.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٤) سورة النحل: الآية ١٢٨.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾[(١)].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[(٢)].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

عباد الله: تلك وأمثالها من النصوص والمواقف نعلمها جميعًا، ويكاد يكون إيمانُنا بها متساويًا في حال الرخاء -لكن التفاوت حاصلٌ في حال الكروب والضراء، فمن الناس من لا تزيده المحنُ والنوازل إلا قوة في معتقده وتماسكًا في أخلاقه وثباتًا على الحق، ودعوةً للخلق، ومن الناس من يهلع ويجزع، ويخور ويضعف، ينحرف في سلوكياته، وتهتز قناعاته، وتحيط به الظنون السيئة بربه ودينه! بل ربما تشكك في الوعدِ الحقِّ الواردِ في كتاب ربِّه لنصرِ المؤمنين وكون العاقبةِ للمتقين، أو ربما ظن أن هذه الوعودَ للمؤمنين في الآخرة دون الدنيا، أو توهم أن النصوص الواردة لأمم سلفت، أما من بلغ بهم الفسادُ مبلغه، وبلغ بهم من الفرقةِ والضعف ما بلغ، فصعبٌ أن ينتصروا، ومستحيلٌ أن يجتمعوا في ظنه. وتلك واحدةٌ من أخطائنا في حال الشدائد والضراء.

أما الأخرى من أخطائنا -في ظل تلك الظروف- هي أننا ربما أحسَنَّا الظنَّ بأنفسنا أكثرَ مما ينبغي، ولربما أسأنا الأدب مع ربنا.

ولربما تساءل بعضنا: ولماذا لا ننتصر ونحن المسلمون؟ ولماذا تكون الغلبةُ لغيرنا وهم الكافرون؟ وفي ذلك تزكيةٌ للنفس، وغفلةٌ عن الأخطاء، وإصلاح للعيوب؟ ولن يتمَّ لنا النصرُ والتغييرُ حتى نغيِّرَ ما بأنفسنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ

---

(١) سورة غافر: الآية ٥١.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٦٤.

حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١]. أما غير المسلمين فقد أخبر الله أنهم حين ينسون ما يذكرون به يفتح الله عليهم أبواب كل شيء، ولكن العاقبة وخيمة، والأخذ بغتة: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٢].

ومن أخطائنا -زمن الشدائد- أننا تأسرنا اللحظة الحاضرة، دون أن نتطلع إلى مستقبل مشرق للإسلام والمسلمين، وهذا الشعور الخاطئ ضعفُ ثقةٍ بربِّنا، وعجزٌ عن قراءة تاريخ أسلافنا، وعدمُ إدراك لسنن الله في الكون ومداولة الأيام بين الناس، والمصيبة إذا قادنا هذا الشعورُ الخاطئ إلى القعود والكسل والهزيمة والاستسلام للواقع السيِّئ دون محاولة للإصلاح والتغيير.

وحين نقول: ينبغي ألا تأسرنا اللحظة الحاضرة.. نستشهد بأحداث السيرة، فليس بين أحداث الهجرة ومطاردة الرسول والمؤمنين معه وبين فرقان بدر إلا سنتان. وليس بين معركة الأحزاب، التي ابتلي فيها المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا، وبين فتح مكة، التي انتشر فيها الإسلام وتحطمت قريش وكبرياؤها -إلا ثلاث سنوات. واقرأوا التاريخ الماضي والحاضر وستجدون أن الفرق بين زمن الهزيمة والنصر قد يكون محدودًا.

ويقابل هذا الخطأ خطأٌ آخر، لا يختلف عن سابقه، بل قد تكون نتائجه أسوأ؛ وذلك حين نستعجل الخُطا، ونظن أننا نتجاوز مراحل الزمن دون عمل مدروس، ثم يحصل التهور في اتخاذ الوسائل للوصول إلى الهدف.. وإذا كان أصحاب الخطأ الأول يحبطون أنفسهم بأنفسهم، فأصحاب الخطأ الثاني يصطدمون بالواقع

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٤.

ثم يحطمون أنفسهم، وربما طال غيرَهم شيء من نتائج استعجالهم.

والوسطية في ذلك تقضي أن نظل نعمل لديننا متفائلين جادين، لا تأسرنا اللحظة الحاضرة، ولا نستعجل الخطا، ولا ننس سنن الله في كونه، فإن تحقق الخير على أيدينا وعزّ الإسلام في حياتنا فذاك نورٌ على نور أو تحقق ذلك على أيدي أبنائنا من بعدنا فحسبنا أن لنا سهمًا في هذا النصر محفوظ أجرُه عند رَبّنا، وحسبنا أن يتوفانا الله ونحن مستمسكون بشرعه داعون إلى دينه، ولقد قيل لمن هو خيرٌ منا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

وقال من هو خيرٌ منا ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾[١].



(١) سورة هود: الآية ٨٨.

(٢) التفاؤل في زمن الشدائد[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله ربِّ العالمين، أمر بالصبر عند البلاء، والشكر حين السراء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحد لا شريك له، يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، توعَّد قريشًا بالذّبح وهو محاصرٌ في مكة حين قال: «**أتسمعون يا معشر قريش، أمَا والذي نفسي بيدِهِ لقد جئتكم بالذّبح**»[2] فصدق الوعدُ، وقطع دابرُ المشركين -وإن فصل الزمانُ بين الوعد والإنجاز.

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4].

عباد الله: هذا حديثٌ متممٌ للحديث قبله عن (التفاؤل في زمن الشدائد).

وقد سبق بيان هدي المرسلين ﷺ لقومهم ووعدهم لهم بالنصر وهم في الضيق

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٠/ ١١/ ١٤٢٠هـ.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٧٦.

(٣) سورة النساء: الآية ١.

(٤) سورة التوبة: الآية ١١٩.

والكُربات، وكيف تحقق وعدُ الله وانتصر المُستضعفون، كما سبق بيانُ شيءٍ من الأخطاءِ التي قد تلازم بعض الناس في حال ضعف الإيمان واليقين، وغلبة الكافرين، وشيوع الفساد وكثرة المفسدين، وشيء من مظاهر الإحباط والضعف عند فئامٍ من المسلمين.

أيها المسلمون: إن من العيوب والأخطاء أن يخطئَ المرءُ ولا يدرك خطأه، بل يظل يُزكّي نفسه ويستغرب لماذا يبطئُ النصر، وإليكم نموذجًا من أخطائنا يقررها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»[1]، يقول: إن العبد كثيرًا ما يترك واجباتٍ لا يعلمُ بها ولا بوجوبها، فيكون مقصِّرًا، في العلم، وكثيرًا ما يتركها بعد العلم بوجوبها إما كسلًا أو تهاونًا، وإما لنوع تأويلٍ باطل، أو تقليد، أو لظنه أنه مشتغلٌ بما هو أوجب منها، أو لغير ذلك، فواجبات القلوب أشدُّ وجوبًا من واجبات الأبدان، وآكدُ منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثيرٍ من الناس. اهـ.

إخوة الإيمان: والمطلوب مِنّا -في كل حال- ولا سيما في زمن الشدائد والكروب -أن نفتش عن عيوبنا، ونعالج أخطاءنا، ونصدق الله في التماس أسباب النصر، وأن نملأ قلوبنا من الثقة بنصره، وعلوِّ دينهِ، وأن نُخلصَ في ولائنا لله، ونجرد الاستعانة بالله وحده بعد تجريد العبودية له، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2]، كيف نتخذ من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة (أي: بطانةً ودخيلة)[3]؟ والله يقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

(١) (٢/ ٢٦٠).
(٢) سورة الفاتحة: الآية ٥.
(٣) تفسير ابن كثير.

جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[(١)].

وكيف نطلب النصر من غير الله؟ والله يقول: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[(٢)].

وكيف نزكي أنفسنا؟ والله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[(٣)].

عباد الله: لا بدَّ قبل أن ننتصر على الأعداء أن ننتصر على أنفسنا، والانتصار على النفس بحملها على طاعة الله، والبعد بها عن ما حرم الله. وهذه مرتبة من الجهاد تُبتلى بها النفوس وتمتحن بها الهمم، وقد يضعف فيها كثيرٌ من الناس، وتراهم ينشغلون بالعدو الخارجي أكثر من انشغالهم بالعدو الداخلي، وذلك لتسلية أنفسهم وتبرير أخطائهم، وكان من وصية أسلافنا لقادة الجهاد أن ذنوب الجيش أشد عليهم من أعدائهم. إن تربية النفوس على الانتصار لشرع الله ودينه، ومجاهدة النفس على التعلق بمعالي الأمور، وترك السفاسف والفواحش هو طريق وسبب لنصر الله، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[(٤)].

يا أخا الإيمان: إن هذه المعاني التي نحتاجها في كل حين، لا سيما في وقت الشدائد؛ من الإيمان واليقين والتسليم وصدق الولاء والصبر والتضرع لله وحسن المجاهدة، وتهذيب النفوس وتصفيتها من الشوائب، وتجريد الاستعانة والعبودية لله، والنظر في الأخطاء وإصلاحِ العيوب، والعمل بجدٍّ لتجاوز النفق المظلم بروية

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٦.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٦.
(٣) سورة النجم: الآية ٣٢.
(٤) سورة محمد: الآية ٧.

وتخطيط وإنجاز وإنتاج دون ملل أو كلل، حتى يأتي نصرُ الله أو نهلك في سبيله - كل ذلك مارسه المؤمنون السابقون وتركوا لنا نماذج تُسلي وتُؤنس، وتقوي الهمم وتشحذُ العزائم.

وإليك نماذج من الشدّة والبأساء وقعت لخير القرون: لقد زُلزل المؤمنون في غزوة الأحزاب زلزالًا شديدًا وبلغت القلوب الحناجر، وزاغت الأبصار، كما قال ربُّنا: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1].

وكيف لا يقع ذلك والمدينة لأول مرة في تاريخ الإسلام يطوقها ما يقرب من عشرة آلاف من قريش وأحلافها والمتحزبين معها، واليهود ينقضون عهدهم في المدينة، والمنافقون من داخل الصّف يرجفون بالمسلمين ويظنون بالله الظنونا؟! ومع ذلك كلِّه صدق المسلمون مع ربِّهم وجلى اللهُ موقفهم بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[2]. ومن قبل وقع في أُحد من الشدة والبلاء على الرسول والمؤمنين ما الله به عليم.

وفي قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[3].

أخرج البخاري في «صحيحه» عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنسُ بن النَّضْرِ عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أولِ قتالٍ قاتلت المشركين، لئن اللهُ

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٠، ١١.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢٢.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

أشهدني قتال المشركين ليَرَينَّ اللهُ ما أصنع، فلما كان يومُ أحدٍ وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأُ إليك مما صنع هؤلاء -يعني المشركين- ثم تقدم فاستقبله سعدُ بنُ معاذ فقال: يا سعد بنَ معاذ! الجنةَ وربِّ النَّضْر إني أجدُ ريحها من دون أُحد، قال سعدٌ: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع[1]، قال أنسٌ: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربةً بسيف، أو طعنةً برمح، أو رميةً بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثَّل به المشركون، فما عرفه أحدٌ إلا أختُه ببنانه، قال أنس: كُنَّا نرى -أو نظن- أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[2] إلى آخر الآية[3].

إخوة الإسلام: وفي ظل ظروف المِحَنِ واللأْواء والشدائد يظهر دور العلماء، وتحتاج الأمة إلى أصوات المستيقنين المثبتين لقلوب الناس، والواعدين بنصر الله وفق سنن الله وعوامل النصر المشروعة.

أجل لقد مرت الأمةُ المسلمةُ بعواصفِ الردةِ، فكان أبو بكر لها. وطوفانِ المحنة فكان ابنُ حنبلٍ جبلها، ثم طارت في الأمة تيارات المذهبية والآراء والنحل الفاسدة، فتصدى العلماء لها وكشفوا عن زيفها وفساد معتقد أصحابها، وربما حملوا السلاح لمجاهدة أصحابها، ثم انساح الصليبيون في بلاد المسلمين واستولوا على مقدساتهم، وبرغم الهزائم التي لحقت بهم، فلم تلحق الهزيمة قلوبهم، ولم تتخلخل قناعاتهم، هزموا في ميدان المعركة، لكنهم لم ينهزموا في

(١) سواء أكان المقصود بقول سعد: ما استطعت أن أصفَ كلَّ ما عمل، أو: ما استطعت أن أقدم إقدامه. «الفتح» ٦/ ٢٣.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.
(٣) ح ٢٨٠٥ الفتح ٦/ ١٢١.

القيم، كانت هزيمتهم حسّية ولم تكن معنوية، حتى إذا جاء صلاح الدين الأيوبي وَمَنْ قبله من القادة الصالحين، وجمع شملهم ووحد صفوفهم، وجد عندهم من القوة والعزيمة على الجهاد ما شجّع القادة على دحر الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين خاسئين، ثم ابتليت الأمة بغزو التتر، وبلغ الكربُ بالمسلمين مبلغه، حتى قال أحدُ المؤرخين المعاصرين لها: «فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله ﷺ آدم، وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها؛ لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها»(١).

وكما وصف ابن الأثير طرفًا من أحداثها، فقد وصف شيخ الإسلام طرفًا آخر يشير إلى أن أحداث التتر في بلاد الشام وما حولها: «طبق الخافقين خبرُها، واستطار في جميع ديار الإسلام شررها، وأطلع فيها النفاقُ ناصية رأسه، وكشَّر فيها الكفرُ عن أنيابه وأضراسه، وكاد فيها عمودُ الكتاب أن يجتَثَّ ويخترم، وحبلُ الإيمان أن ينقطع ويصطلم.. وفيها فرّ الرجل من أخيه وأمه وأبيه، إذا كان لكل امرئٍ منهم شأن يغنيه..» إلى آخر ما جاء في وصف أحوال المسلمين في هذه الفترة العصيبة(٢).

ومع ذلك برز العلماء يُهدّئون ويسكنون الناس ويثبتونهم ويعدونهم ويبشرونهم بالنصر.. وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك قدحٌ معلّى.. حتى كشف الله الغمة عن المسلمين، بعد أن تحزَّبَ الناسُ وانقسموا إلى ثلاثة أحزاب: حزبٍ مجتهدٍ في نصر الدين، وحزبٍ خاذلٍ له، وآخر خارجٍ عن شريعة الإسلام.

عباد الله: ولم تكن فتنة التتر آخر البلايا والمحن على المسلمين، بل وافتهم

---

(١) ابن الأثير: «الكامل في التاريخ» ١٢/ ٣٥٨.

(٢) الفتاوى ٢٨/ ٤٢٧، ٤٢٨.

بعدها محنٌ وخطوب واستعمارٌ وحروب، ولا تزال المؤامرات وأساليب الغزو والتدمير ماضية. وحربُ الأعداء للمسلمين اليوم استمرارٌ لحروبهم بالأمس.. وعلى مسلمي اليوم أن يقرؤوا تاريخ أسلافهم، ويستفيدوا من تجاربهم، ويتعرفوا على طبيعة أعدائهم، ويتمعنوا في قول ربهم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1].

نفعني الله وإياكم.



(١) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

الخطبة الثانية:

الحمد لله القوي العزيز، ذي القوة المكين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له جنودُ السماوات والأرض -﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2]، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولهُ، نصره ربُّه بعد أن آذاه المشركون والمنافقون، ووعد أمته بالنصرِ، وخصَّ الطائفة المنصورة بالظهور على الحقِّ إلى يوم القيامة فقال: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمتي قائمةً بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتي يأتي أمرُ الله وهم ظاهرون على الناس**»[3].

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أيها المسلمون: وإذا كان أثرُ العلماء الربانيين ظاهرًا في تسكين الناس وتثبيتهم على الحق حين الشدائد، وفتح الآفاق لهم للعمل والدعوة والإنتاج، فثمة مرجفون يشككون الناس في عقائدهم، ويروجون للباطل بأقوالهم وكتاباتهم وأعمالهم، يساهمون في هدم القيم، ولا يأنفون من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، يسخرون بالدِّين، ويلمزون المطوعين من المؤمنين، وهم حريصون على تغريب المسلمين وتحطيم حواجز الولاء والبراء مع الكافرين، إلى غير ذلك من مناحي الفساد والمساهمة في إحباط الأمة وتخاذلها على مستوى الرجل والمرأة والشاب والكهل والغني والفقير.

وهؤلاء المرجفون المفسدون يجدون في فرص ضعف الأمة وتكالب الأعداء

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٦.

(٣) رواه أحمد واتفق عليه الشيخان. «صحيح الجامع ٦/ ١٤٦.

عليها وغياب الصوت القوي الفاضح لخُبثهم فرصةً لترويج باطلهم، وفي ظل هذه الظروف الحرجة كذلك يجدون من يسمع لهم ويتأثر بهم، إذ في فترات ضعف المسلمين يروجُ الفساد ويتنمّر المبطلون وتضعفُ مناعةُ رفض الفساد، إلا من رحم الله وعصم وثبت وقاوم، وميّز بين دعاة الحق ودعاة الباطل.

إخوة الإيمان: وحين نعي المطلوب منا في أوقات الشدائد، وعَلِمْنا نماذج من الكروب التي مرت بأسلافنا، وكيف تجاوزوها، ووقفنا على نماذج من مواقف أهل العلم واليقين في تسلية المسلمين وشدِّ أزرهم، ويقابلهم أهلُ الإرجافِ والريب ومن في قلوبهم مرض.

بقي أن نقف على شيء من دروس أزمنة الشدائد، ولن نستفيد من الشدائد والنوازل الواقعة حتى نأخذ العبرة لحاضرنا ومستقبلنا.

إن من أبرز الدروس أن فترات الضعف والكروب هذه يتميز فيها الصادقون من الكاذبين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

وفي الشدائد يتميز الخبيث من الطيب ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾[2].

أجل، إن الانتساب للإسلام سهلٌ في أوقاتِ الرخاء.. لكنه ليس كذلك في أوقات الضراء.. وكثيرون هم الذين يعدُّون أنفسهم مع المسلمين الملتزمين في حال المغانم، ولكنهم قلةٌ حين تكون المغارم.

---

(١) سورة العنكبوت: ٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٩.

ومن دروس المحنة والشدائد استخراج عبودية الضراء، والتضرع لله بكشف النوازل، فهل رفعنا أكفَّ الضراعة لله صادقين خاشعين؟ وهل بكت منَّا العيون لما حلَّ ويحل بالمسلمين؟ لقد جاء في كتاب ربِّنا ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وفيه أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[2].

إن التضرع لله افتقارٌ إليه ومسكنة وإيمانٌ بإنه وحده الكاشفُ للضراء، ويقين بقدرته على رفع البلاء، أما الذين تقسو قلوبُهم ويزيد انحرافُهم -حين الشدائد- فما استفادوا من دروس المحن، وما عقلوا حكمة الله في فتنةِ البلاء!

ومن دروس الشدائد أنها كاشفاتٌ لأصحابِ النفوس الكبيرة، الذين لا تزيدهم الشدائد إلا صبرًا ويقينًا، أولئك يواجهون الشدة بالحزم والعزم والتفكير الإيجابي للخروج من المأزق.

كما أنها كاشفاتٌ لضعافِ النفوس، الذين تهزهم حادثاتُ الزمن وإن صَغُرت، وتؤثر فيهم الصيحاتُ المريبةُ، وإن عُلمَ الخبثُ فيها وفيمن وراءها!

ومن دروس الشدائد استخراج ما في النفوس من بطرٍ وأشر وكبرياء لو استمر لها النصرُ، وعاشت دائمًا في السراء، وتكتمل عبوديةُ المسلم لله في حال السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي «صحيح السنة»: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير؛ إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**».

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٣.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٧٦.

فهل يحقق المسلمُ عبوديته لله في كل حال؟ أم تراه يجزعُ إن مسه الشرُّ ويهلعُ إن مسه الخير؟ وما تلك سماتُ المؤمنين المصدقين.

إخوة الإيمان! يا من أفاء اللهُ عليهم بنعمة الأمن والإيمان ارعوا ما أنتم فيه من نعمة، قيدوها بالشكر، وخذوا على أيدي السفهاء، وأطروهم على الحقِّ أطرًا، ولا يِنسكم ما أنتم فيه من نعمة ما يعيشه بعضُ إخوانكم المسلمين من بلاءٍ ومحنة، فالمؤمنون إخوة، والمسلم للمسلم كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، وتذكروا أنه ما يمسُّ أحدًا من المسلمين من بلاءٍ وشدة إنما هو بلاءٌ وشدةٌ على المسلمين كلهم، وما يحقّقه الله من نصرٍ لأحدٍ من المسلمين فإنما هو نصرٌ للمسلمين كلِّهم، فالأعداء جميعًا إنما يقاتلون المسلمين من أجل هذا الدين، وصدق الله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[1].

ومن الذلة والهوان أن يتخلف المسلمون عن نصرة إخوانهم المسلمين على حين يتنادى الكافرون من كل حدب للدفاع عن أبناء ملتهم، بل ولأهل الكفار جميعًا وإن اختلفت دياناتُهم، أما المسلمون المستضعفون فيظلون يستصرخون، وربما بُحَّت حناجرُهم أو انقطعت أنفاسهم، بل أزهقت أرواحهم وطردوا من بلادهم واستبيحت نساؤهم، ولم تحرك صيحاتُ النساء الأيامى وأنّات الأطفال اليتامى، وبرك الدماء، وتناثر الجثث والقتلى، كل ذلك لا يحرك ساكنًا في المسلمين، ويظل الصمتُ الرهيب يخيم عليهم حتى بلغت القلوب -من المسلمين - الحناجر وزلزلوا زلزالًا شديدًا، وها هم مسلمو الشيشان يوجهون النداء لأمة المليار مسلم ويقولون: لقد حمي الوطيس وبلغت القلوب الحناجر، واشتد الأمر، وتكالب

(١) سورة الممتحنة: الآية ٢.

العدو، وتواطأ الكفار علينا من كل جانب؛ الطائرات تقصف بأنواع القذائف المدمرة، والراجمات تقذف بأنواع الصواريخ، والجليد يطاول الجبال، حتى ذكرنا حال إخواننا، ثم يقولون: أيتها الأمة ألا يوجد فينا من لو أقسم على الله لأبره، ألا يوجد فينا من يرفع أكفَّ الضراعة لله فيستجيب له.. ثم يختمون نداءهم بالقول: أيتها الأمة المسلمة لا تنسونا من دعائكم ودعمكم، فإنما يأتي الفرج بعد الشدة[1].

اللهم وفقنا لهداك وثبتنا على شرعك، واجعلنا هداة مهتدين وهيّئ لأمّتنا أمرًا رشدًا يُعَزُّ فيه أهل الطاعة.



(١) نداء الثلاثاء ١٧/ ١١/ ١٤٢٠هـ بتصرف.

هكذا الدنيا ونهاية العام وتذكير بموت العظماء[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، جعل الليل والنهار خِلْفةً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسنُ عملًا وهو العزيز الغفور، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ضرب مثلًا للمؤمن والفاجر في البلاء في الدنيا ونوعية النهاية -فقال: «**مثلُ المؤمن كمثل خامة الزرع من حيثُ أتتها الريحُ كفأتها، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمنُ يُكفأ بالبلاء، ومثلُ الفاجرِ كالأرزةِ صماء معتدلة حتى يقصمها الله تعالى إذا شاء**»[٢].

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾[٤].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢/ ١/ ١٤٢١هـ.

(٢) الحديث متفق عليه، «صحيح الجامع» ح ٥٧١٩.

(٣) سورة الحشر: الآية ١٨، ١٩.

(٤) سورة لقمان: الآية ٣٣.

عباد الله: ونحن في هذه الدار مبتلون، نَظنُّ بها الإقامة ونحن مسافرون، ويُخيل لنا -أحيانا - طولُ البقاء ونحنُ عن قريبٍ مرتحلون، تُداهمنا الخُطوب، وتتوالى علينا النُّذر، وتُدركنا الأقدارُ، ولا مفرَّ من الموت والنهاية، ولو كنتم في بروج مشيدة.

والمتأمل في أحوال الدنيا وأهلها لا يكاد يرى يمنةً إلا ويبصر محنةً، فإذا عطف عن يساره أبصر حسرة، ولو فَتَّشت العالمَ كلَّه لم تر فيهم إلا مُبتلىً، إما بفواتِ محبوبٍ، أو حصولِ مكروهٍ، وفي كلِّ وادٍ بنو سعدٍ -كما قيل - . الدنيا أحلامُ نومٍ، وظلّ زائل، إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرّت يومًا ساءت دهرًا، وإن متَّعت قليلًا منعت كثيرًا، وما ملأت دارًا خيرةً إلا ملأتها عَبْرةً، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور.

قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: لكل فرحةٍ ترحة، وما مُلئ بيتٌ فَرَحًا إلا مُلئ ترحًا.

وقالت هندُ بنتُ النعمان: لقد رأيتُنا ونحن من أعزِّ الناس وأشدهم مُلكًا، ثم لم تَغِبِ الشمسُ حتى رأيتُنا ونحن أقلُّ الناس، وإنه حقٌّ على الله ألا يملأ دارًا خيرة إلا ملأها عَبْرة.

وسألها رجلٌ أن تحدثه عن أمرها فقالت: أصبحنا ذا صباح وما في العربِ أحدٌ إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحدٌ إلا يرحمنا[1].

تلكُم معاشر المسلمين طبيعةُ الدنيا؛ غدّارة مكّارة، لا يؤمن جانُبها، ولا ينخدع العقلاءُ بغرورها وأمانيها.

خطب الإمامُ الأوزاعي رحمه الله ووعظ الناس يومًا؛ فقال: أيها الناس: تقوَّوا بهذه

(١) ابن القيم: زاد المعاد ٤/ ١٩٠، ١٩١.

النعم، التي أصبحتم فيها، على الهرب من نار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة، فإنكم في دارٍ، الثواءُ فيها قليل، وأنتم مرتحلون، وخلائفُ بعد القرون، الذين استقالوا من الدنيا زهرتها، كانوا أطولَ منكم أعمارًا، وأجدَّ أجسامًا، وأعظم آثارًا، فجدَّدوا الجبالَ وجابوا الصخورَ، ونقَّبوا في البلاد، مُؤَيَّدين ببطش شديد، وأجسامٍ كالعماد، فما لبثت الأيامُ والليالي أن طوَتْ مدتهم، وعفت آثارَهم، وأخْوت منازلهم، وأنست ذِكرَهم، فما تُحِسُّ منهم من أحدٍ، ولا تسمعُ لهم ركزًا، كانوا بِلَهْوِ الأمل آمنين، ولميقات يوم غافلين. . . إلى أن قال: وأصبحتم أنتم في أجل منقوص، ودنيا مقبوضة، في زمان قد ولّى عفوُه، وذهب رخاؤه، فلم يبق منه إلا حُمَةُ شرٍّ، وصُبَابةُ كَدَرٍ، وأهاويلُ غِيرٍ، وأرسالُ فتنٍ، ورذالةُ خلف[(١)].

إذا كان هذا ما يحدث به الأوزاعي أهل زمانه -وهم في القرن الثاني الهجري- فماذا تراه سيُحدث أو يحدثُ غيره عن الناس في القرن الخامس عشر؟ وقد تلاطمت أمواج الفتن، وانتشرت البلايا، وراج سوقُ الغفلة، وأُصيب الناسُ بالذلِ والتبعية، وطاشت أسهمُ الدنيا، وخفّ ميزانُ الآخرة. . إلا من رحم اللهُ، ولو خلت لانقلبت.

أيها المسلمُ والمسلمة: وإذا عرفت طبيعةَ الدنيا وتقَلُّبها، فلا تعتقد أن البلاء إذا نزل بك إهانة، والمُصَاب جريمة، بل قد يكون هذا وذاك كرامة ونعمة، وأنت ممتحن بالصبر أو الجزع.

يقول ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ: فمن ابتلاه اللهُ بالمُرِّ، بالبأساء والضراء وقدر عليه رزقه، فليس ذلك إهانةٌ له، بل هو ابتلاء وامتحان، فإن أطاع الله في ذلك كان سعيدًا،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ١١٧، ١١٨.

وإن عصاه في ذلك كان شقيًا، كما كان ذلك سببًا لسعادة الأنبياء، وشقاوة الكفار والفجار[١].

وتأمل قوله كذلك: مُصيبة تقبل بها على الله، خيرٌ لك من نعمة تنسيك ذكر الله[٢].

ويقول ابن المعتز رَحِمَهُ اللَّهُ: الحوادث الممضَّةُ مكسبةٌ لحظوظٍ جزيلة، منها: ثوابٌ مُدّخر، وتطهيرٌ من ذنب، وتنبيه من غفلة، وتعريفٌ بقَدْرِ النعمة، وعون على مقارعة الدهر[٣]. أرأيت كيف تتحول المصيبة أحيانًا إلى نعمة؟

قال الشاعر:

قد يُنْعِم اللهُ بالبلوى وإن عظمتْ ويبتلي اللهُ بعض القومِ بالنِّعَمِ

يا عبد الله: لا يتعاظمْ فرحُك لنعمةٍ نزلت بك، فقد يكون فيها ما ينغص عليك عيشك فيما بعد، ولا تحزنْ لبلية ابتلاك الله بها، فقد تكون من أسباب سعادتك، ولا تغترَّ أو تحسد صاحب نعمة أنت تراها كذلك، وقد تكون عنده بخلاف نظرتك. ومن عيون الحكم: ربَّ محسودٍ على رخاءٍ هو شقاؤه، ومرحومٍ من سُقمٍ هو شفاؤه، ومغبوط بنعمة هي بلاؤه[٤].

قال الشاعر:

تجري الأمورُ على حُكمِ القضاء وفي طيِّ الحوادثِ محبوبٌ ومكروهُ
وربما سرّني ما كنتُ أحذرُه وربّما ساءني ما بِتُّ أرجوهُ

(١) قاعدة في المحبة -بتصرف- ص ١٦٧.
(٢) تسلية أهل المصائب ص ٢٢٦، عن «تحفة المريض»: عبد الله الجعثين ص٢٣.
(٣) جنة الرضا ٢/ ١٣٩ السابق.
(٤) العقد الفريد ٣/ ١٤٥.

يا ابن الإسلام: هل تظن بربك -حين يبتليك - الظلم؟! وبعدله قامت السماوات، وهل يَرد بخاطرك -حين يقدر عليك رزقك - البخلُ؟! وهو الجوادُ الكريم. اسمع ما قاله العارفون في حكم البلايا:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليطُ أنواعِ البلاءِ على العبد، فإنه أعلمُ بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانُه ومنعُه من كثير من أغراضه وشهواتِهِ من رحمتِهِ به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتَّهم ربَّه بابتلائه، ولا يعلم إحسانَه إليه بابتلائه وامتحانه، فهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه، كيف؟ وهو الجوادُ الماجد الذي له الجودُ كلُّه، وجودُ جميع الخلائق في جنب جودِهِ أقلُّ من ذرَّة في جبال الدنيا ورمالها، ومن رحمته سبحانه بعباده أنْ نغّص عليهم الدنيا لئلا يسكنوا إليها ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النَّعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم[١].

أيها المسلمون: وما يزال البلاءُ بالمسلم أو المسلمة حتى يدعه يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة. وإذا كان الموتُ من المصائب وداعيًا للحزن والألم، فالعين به تدمع، والقلبُ يحزن، والرحمات تنهمر لها العبرات.. فقد يكونُ في الموت راحةٌ للميت، وقد يبدأ من الموت أنسُ الميت وراحته وسعادته، فمن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءَه، والمؤمن بالموت ينتقل من ضيق الدنيا وكدرها إلى سعةِ الآخرة وحبورها، وكم يغبط الناس عظماء الرجال لموتهم حين يموتون معظمين لكتاب الله مستمسكين بسنّته، داعين الناس للخير ومحذرين من الشر، ينشرون العلم النافع، ويدعون الخلق للعمل الصالح، أولئك نجوم تفتقدهم الأمة، ويحزن

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٧٤ - ١٧٥.

الناسُ لموتهم، ويتسابقون لتشييع جنائزهم، يتدافعون بالمناكب ويطأ بعضهم أعقاب بعض، ونرجو أن تكون تلك عاجل البشرى لهم، وأن يعوّض المسلمين بفقدهم خيرًا.

إن العالِم العامل والمجاهد الصادق لا يموت ذكره بين الناس وإن رحل عن الحياة الدنيا -فلا يزال الناس يعددون مناقبه، ويحيون ذكره، ويترحمون على فقده. فرق بين من يُذكر بخير وإن رحل، ومن يُنسى وهو بعدُ حيٌّ، أو يستبشر الناسُ لهلاكه، وإن الناس قد يُجاملون شخصًا في الحياة الدنيا ابتغاء نوله أو اتّقاء فحشه.. ولكن الموعد يوم الجنائز، فأيُّ شيء يبتغيه المشيِّع لجثة هامدة لا تملك لنفسها شيئًا؟! وأنّى لها أن تنفع الآخرين؟! لكنها المحبة والتقدير، والتعبيرُ عن حقِّ هذا العالم أو ذاك أو ذاك المجاهد المصلح، ولا تزال الأمة بخير ما بقيت تقدر الرجال وتشيدُ بمكانتهم، وتقدر جهادهم، وتثمِّن جهودهم.

أيها المسلمون: إن في مشاهد الجنائز المشهودة للعلماء أو العظماء من الرجال والنساء تذكيرًا للأحياء بقيمة الجهاد في الحياة الدنيا، وتحريكًا للهمم لعمل الصالحات، وبذل الخير، وإسداء النصح، ودعوة الخلق لما يحييهم -فتلك وأمثالها من أعمال صالحة هي باعثات القبول والمحبة بين الناس. والناس شهود الله في أرضه، وهم شافعون ومُشفَّعون لمن حضروا جنازته- كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ما من ميت يُصلي عليه أمةٌ من المسلمين، يبلغون أن يكونوا مئة - فيشفعون له إلا شُفعوا فيه**» رواه أحمد ومسلم والنسائي[١].

اللهم اغفر لجميع موتى المسلمين، اللهم ارفع درجتهم في المهديين، واخلفهم

(١) صحيح الجامع ٥/ ١٨٤.

في عقبهم في الغابرين، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم، واغفر اللهم لنا ولهم يا رب العالمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].



(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

الخطبة الثانية:

الحمد لله المتفرد بالجلال والبقاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ما من غائبة في السماء والأرض إلا عنده في كتاب مبين، يقضي بالحق، ويحكم بالعدل، وهو الحكيم الخبير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اختار لقاء ربِّه على البقاءِ وزينة الحياة الدنيا، والآخرةُ عند ربِّك للمتقين، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

عباد الله: ونحن في هذه الأيام نقف على نهاية عام هجري وبداية عام جديد، تُرى كم خَلَّفنا من أفراحٍ وأتراح، وما الدروس التي ينبغي أن نَعيَها من أحوالنا في السراء والضراء، كم كسبت أيدينا من حسناتٍ أو سيئات، وكم لله علينا من فضلٍ في صحة الأجسام وسعة الأرزاق، والأمن في الأوطان؟ وهل استثمرنا هذه النعم بما يقربنا لمولانا، أم كانت سببًا لغفلتنا وطغياننا؟

أيها المسلمُ والمسلمة: ماذا تعني نهايةُ أوراق التقويم عندك؟ وبماذا يذكرك التاريخُ الجديد للسنة الجديدة إحدى وعشرين وأربع مئة وألف للهجرة؟

هل تذكرت أن سني عمرك تسير إلى النهاية؟ كما تقْلب كلَّ يوم ورقة... وإذا استيقنت الممات فغيرُك من أبناء الملل الأخرى يستيقن ذلك ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[1]... لكن ماذا بعد الممات؟ وذاك الذي يميزك عن غيرك. فكم يأخذ من حيِّز تفكيرك البعثُ والمعاد، والجنة والنار، والقبرُ والحشر، والعرضُ والنشور؟ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

(٢) سورة الجاثية: الآيات ٢٧، ٢٨.

يا عبد الله: وهل يكفي منك مجردُ التفكير في هذه الأحداث الجسام المُقبلة، أم أن الأمر محتاجٌ فوق هذا إلى عملٍ وقوة إرادة، تحيل التفكير إلى برامج عمل تُدلّل بها على خوفك من الجليل واستعدادك للرحيل وما بعده؟ كم نقفُ مع أنفسنا صرحاء محاسبين؛ في كل يوم؟ أم على مدى الأسبوع؟ أم في الشهر مرة؟ أم على مستوى العام؟

ومن ألوان المحاسبة الجادة أن تسأل نفسك عن قوة الإيمان أو ضعفه، وعن الصلاة المفروضة في الحفاظ عليها، أو التهاون فيها، وعن المال، من أين تجمعه؟ وفيم تنفقُه؟ وعن اللسان ماذا تقول، وعما تمتنع؟ وعن السمع والبصر ماذا تسمع وتبصر؟ وعن الهموم والمشاعر، فلأي شيء تهتم، وماذا يدور في مشاعرك؛ هل تسعى لنشر الخير وتسرُّ له، وهل يسؤوك وجود الشر وتسعي جاهدًا لدفعه؟ هل يتجاوز تفكيرُك إلى هموم الأمة المسلمة ومستقبلها، أم تظل اهتماماتك قاصرةً على أهلكِ وأولادك؟ ما مقدار زهدك في الدنيا وإقبالك على الآخرة؟ هل تُحب للناسِ الذي تُحب أن يأتوا به إليك؟ هل يغلب عقلُك أم عاطفتك مع مواطن الشهوات والشبهات والفتن؟ هل تسؤوك السيئةُ إذا ابتُليت بها، وهل تفرح للحسنة إذا وفقك الله لها؟ إلى غير ذلك من أسئلة محاسبية نافعة.

ألا ويح أمةٍ أو فردٍ تحيط بهم الغفلة، وتتقاذفهم أمواج الفتن، ويغيب عنهم الهدف من هذه الحياة، حتى إذا جاءت سكرة الموت بالحق عادت السكرة إلى فكرة، ورجع القلب المعنى إلى التفكر والذكرى، ولكن هيهات، وقد صاح به المنادي: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1].

(١) سورة فاطر: الآية ٣٧.

يا أخا الإيمان: وإني مذكرك وموصيك -ونفسي - مع نهاية عام وبداية عام بأمور، منها:

١ - اختم عامك المنصرم بالتوبة والاستغفار، فالتوبة تَجُبُّ ما قبلها ومن يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا، وطوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا.

٢ - ابدأ عامك الجديد بالعزيمة على الخير، والجدية في عمل الصالحات مع استحضار التقوى والإخلاص والمتابعة، فالبدايات الطيبة القوية تقود إلى نهايات مُفرحةٍ بإذن الله، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١)، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾(٢).

٣ - حاول أن تتذكر نقاط الضعف عندك في العام المنصرم فعززها وتخلص من آثارها، ونقاط القوة فاستمسك بها، وحافظ عليها، وزد عليها ما استطعت.

٤ - تذكر أهمية المداومة على العمل وإن قلَّ، واحذر الفتور المؤدي إلى الشرور والفتن.

٥ - استمسك بهدي الوحيين -الكتاب والسنة - وإياك وتلاعب الأهواء، أو الانخداع بأهل الفتن والأهواء، ولا تنخدع بزخرفة الباطل، ولا يقعد بك عن اتباع الحق قلةُ الأتباع أو صعوبة الطريق، واسأل ربَّك أن تلقاه -يوم تلقاه - وهو راض عنك.

٦ - تذكر أن عامك الماضي نقص من أجَلِكَ، وأن عامك الحاضر مُقربٌ لآخرتك، وأنت لا تدري أتستكمل هذا العام أو تطوى صحائفك في أثنائه، فكن

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٢.

دائمًا على حذر، واستعد للرحيل، وعظم أمر الآخرة.

٧ - العالَمُ الكافرُ باتَ يُفكر تفكيرًا كونيًا، ويصدِّر أفكاره عالميًا -عبر عدة وسائل- فهل يدعوك ذلك إلى التفكير العالمي في هموم أمتك والمساهمة في الدعوة لدينك بكل وسيلة ممكنة؟ وهل تسهم في الحماية من الأفكار المتسللة الخبيثة، وتحمي نفسك وأسرتك أولًا من أساليب الفساد العالمية؟

٨ - وأخيرًا اعتبر -يا أيها الحيُّ- بمن رحل، كيف وبما ارتحل؟ وماذا بقي له بعد الرحيل؟ فأنت اليوم مُخبر، وغدًا ستكون الخبر.



الاتباع المحمود والمذموم[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر أنبياء الله ورسله، ورضي الله عن الصحابة أجمعين والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصي نفسي وإياكم بتقوى الله، فهي طريق الهدى، وأمان من الزيغ والهوى، وسبيل إلى الرزق، وسبب لتكفير السيئات، ورفعة الدرجات: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾[3].

معاشر المسلمين: خطب رسولُ الله ﷺ في المسلمين فقال: «**إن أحسن الحديث كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها**﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[4]». أخرجه البخاري[5].

إنها كلمات جامعة في الاتِّباع والابتداع، والمتأمل في كتاب الله يجد حديثًا

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٩/ ٥/ ١٤٢٠هـ.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٢، ٣.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٥.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٣٤.

(٥) في الاعتصام، والأدب، «جامع الأصول»: ١/ ٢٨٩.

مطولًا عن الاتّباع، ويقف على آيات كثيرةٍ في هذا الباب، ويلفت نظره تنوعُ الاتباع بين محمود ومذموم، وضارٌ ونافع، بين اتباعِ الهدى والهوى، وبين اتباعِ سُنن المرسلين، وسبيل الذين لا يعلمون.

كما يدرك أثر وعواقب الاتباع لهدي الله، وأثر وعواقب اتباع خطوات الشيطان.. ويعرض القرآنُ صورًا للمجادلة بين الأتباع، والمتبوعين، وكيف يحاول بعضهم البراءة من بعض، ويُلقي كلُّ طرفٍ باللائمة على الطرف الآخر، وفي النهاية قالوا: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾[(١)].

عباد الله: وأصلُ الاتباع وأنفعهُ ما كان لهدي الله وصراطه المستقيم، وذلك أمان -بإذن الله- من الضلالة والشقوة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[(٢)]، ولا خوف ولا حُزْن عليهم في اتباع هدى الله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(٣)].

وفي اتباع صراط الله كذلك، أمانٌ من الضياع والفُرقة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(٤)].

وكيف لا يتبعُ العبدُ سبيل الله وهو الذي خلقه وهو أعلمُ بما يُصلحه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[(٥)].

ولا يستوي من يتبعُ رضوان الله فيما شرعه، ومن يستحق غضب الله بإعراضه:

---

(١) سورة غافر: الآية ٤٨.
(٢) سورة طه: الآية ١٢٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ٣٨.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.
(٥) سورة الملك: الآية ١٤.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[١].

فإن قلت: فما الطريقُ الموصلةُ لاتباع هدى الله؟ فالجواب: أنها حاصلة باتباع القرآن ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾[٢]. وباتباع المرسلين: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٣].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٤].

وبالجملة فالاتباعُ بالمعروف، والإحسان سيما المؤمنين، وهو في دائرة الاتباع المشروع المحمود.

وما أحوج البشرية إلى هذا النوع من الاتباع، إنْ في الحياة الدنيا، أو في الآخرة ويوم يقوم الأشهاد.

أما الاتباع المذموم فتتنوع سبلُه، ويتعاظم خطره ويصابُ أصحابهُ بالخسارة في الدنيا والآخرة. ومنه اتباع الشيطان، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٥]. وخطوات الشيطان يدخل فيها سائرُ المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان، والبدن، كما قال المفسرون[٦].

ومهما بلغ الشيطانُ في الوسوسة والإغراء والإغواء، فيظلُ أثره وكيده ضعيفًا على أهل الإيمان والتُّقى، ويتعاظم أثرُه كلما قلَّ الإيمان.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٢.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٥.
(٣) سورة يس: الآية ٢٠، ٢١.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٣١.
(٥) سورة النور: الآية ٢١.
(٦) السعدي، «تفسير كلام المنان»: ٥/ ٤٠١.

ومن الاتباع المذموم اتباعُ الهوى، قال تعالى محذرًا: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ﴾(١).

وقد يصلُ بالمرء إلى أن يتخذ الهوى إلهًا من دون الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

وكم يُعمي الهوى ويُصمُّ، ويُضلُّ صاحبه في العبادات والمعاملات، وفيما بينه وبين ربِّه، أو بينه وبين خلقه، والعدلُ مطلوب، والإنصافُ للنفس وللآخرين منهج مشروع، ولكنه يحتاج إلى تقوى وصدقٍ وعزيمة.

ومن الاتباع المذموم اتباعُ الشهوات والمغريات دون النظر في عواقبها، وترك النفس ترتع فيها كما ترتع البهائم في مرعىً قد يكون فيه حتفُها، بل يوجد في بعض نباته موادُّ سامةٌ مهلكةٌ لها.

أجل، كم انحرف من البشر بسبب اتباع الشهوات المحرمة، فالنفسُ مولعةٌ بحب العاجل، وفي فِطر الناس حبٌ وميلٌ للشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث.. ونحوها.

ولكن فيما أحلَّ الله غنية عن ما حرم، وفي الطيبات كفايةٌ عن الخبائث، وليست هذه الدنيا نهاية المطاف حتى يَعُبَّ المسلم من الشهوات ما شاء، ونصيبُ المؤمنين من هذه الملاذ في الآخرة يفوق أضعافًا مضاعفة، ما يحصل عليه أهلُ الشهوات في الدنيا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

(٣) سورة السجدة: الآية ١٧.

وإذا لحق الوعيد للمتبعين للشهوات -كما قال تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[١] - فقد أخبر الله عن الوسيلة الواجبة وحكم بالنتيجة فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٢].

وللعلماء العارفين حديثٌ مستفيض عن آثار الشهوة المحرمة وعواقبها المُرّة على صاحبها في الدنيا، وما ينتهي إليه عبيد الشهوات في الآخرة أشدُّ وأنكى.

عباد الله: ولجهل الإنسان وقصور علمه أحيانًا، أو تغليب هوى النفس على مراد الله أحيانًا أخرى، فقد يتبع المرءُ الظنون ويتخلى أو يضعف استمساكهُ بالحقِ اليقين، واتباعُ الظنِّ من أنواع الاتباع المذموم، قال تعالى حاكيًا عن المشركين: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[٣].

والظنُّ لا ينفُع من الحقِّ شيئًا، ولا يقوم مقامه، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[٤].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وسنة نبيه ﷺ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كلِّ ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه.

❁ ❁ ❁

(١) سورة مريم: الآية ٥٩.
(٢) سورة النازعات: الآية ٤٠، ٤١.
(٣) سورة النجم: الآية ٢٣.
(٤) سورة النجم: الآية ٢٨.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، وفَّق من شاء من عباده لاتباع صراطه المستقيم، وتفرقت السبلُ بأقوام ضلوا السبيل، أحمده تعالى وأشكره وأُثني عليه الخير كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى إخوانه وآله.

أيها المسلمون: ومن الاتباع المذموم التعلقُ بعادات الآباء وتقاليد الأجداد، وإن كانت مخالفة لشرع الله، والتحاكم إلى السلوك والعوائد الموروثة واعتبارها فيصلًا في القضايا والخصومات -كلٌّ ذلك ضربٌ من ضروب الجاهلية، ونوع من الاتباع المذموم، وقد ذم القرآن أولئك الذين تعلقوا بما عليه آباؤهم وحالت بينهم وبين التسليم والاتباع لشرع الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(١).

ولقد شكَّل الاقتداءُ بما عليه الآباء حاجزًا دون اتباع المرسلين، وقبل لمحمد ﷺ وهو يعاني من هذه التبعية الممقوتة: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٢).

وهكذا -إخوة الإيمان- ينبغي أن نفرق بين العوائد والموروثات، وبين العبادات والأحكام المشروعة في التحليل أو التحريم، وبين الطاعة بالمعروف للآباء

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٠.

(٢) سورة الزخرف: الآيات ٢٣ - ٢٥.

والأمهات، وبين العصبية لهم، وإن كانوا على خلاف شرع الله.

إخوة الإسلام: ومن التبعية المذمومة على مستوى الأفراد إلى التبعية المذمومة على مستوى الدول والأمم، وفي القرآن والسنة تحذير من تبعية الأمة المسلمة للأمم الكافرة وبخاصة اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1].

إن التبعية على مستوى الدول والأمم ممقوتة شرعًا وعقلًا، وهي سبيل للضعف والامتهان، بل طريق إلى الاضمحلال والزوال، فكيف إذا كانت المتبوعة كافرةً، والتابعة مسلمة، فذلك إزراء بالإسلام وأهله، وشك بهيمنة القرآن وحكمه، وإذا لم تُغن هذه الأمم الكافرة عن نفسها شيئًا، فكيف تدفع عن غيرها؟!، ويوم القيامة يتبّرأ المتبوعون من التابعين، ويحمل كلٌّ منهم وزره على ظهره، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[3].

إخوة الإيمان: لقد حذر الرسول ﷺ أُمته من متابعة الكفار عامّة، والتبعية لأهل الكتاب خاصة، وتحققت نبوأته في فئام من المسلمين حين قال: «**لتَتَّبِعُنَّ سَنَن الذين منْ قبلكم شبرًا بشبر، أو ذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جُحر ضبٍّ لسلكتموه**»

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٦.
(٣) سورة العنكبوت: الآية ١٢، ١٣.

قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟!**»(١).

عباد الله: أما المخرج من هذه التبعيات المذمومة فهو بالاعتصام بالكتاب والسنة، ولزوم الصراط المستقيم، واتباع هدي المرسلين، والسير على منهج سلف الأمة المهديين، ولزوم سبيل المؤمنين، واتخاذ الشيطان عدوًا، ومجاهدة النفس عن الوقوع في الشهوات المحرمة، والبعد عن المحدثات المبتدعة في الدين. وبين أيديكم -عباد الله- وصيةُ رسول الله ﷺ لأصحابه حين قال: «**أُوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبدٌ، وإنه مَنْ يعشْ منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنّتي وسنةِ الخلفاءِ الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ بدعة ضلالة**». رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح(٢).

يا أهل القرآن: وأختم الحديث هنا بمحاورة عُجلت لنا مشاهدُها مع تأخرِ وقوعها لنقف منها على تنازع وتلاوم الأتباع والمتبوعين ونهايتهم، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار، وَقُوا أنفسكم الحسرة والعذاب ما دمتم في زمن العمل.

---

(١) متفق عليه، صحيح الجامع: ٥/١٢.
(٢) رياض الصالحين: ٨٧.
(٣) سورة سبأ: الآيات ٣١ - ٣٣.

رجال القرآن[1]

الخطبة الأولى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الخلق وبايَنَ بينهم في الخلْقِ والخُلُق، وفَضْلُ الله يؤتيه من يشاء، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولهُ أخبر وهو الصادق الأمين: «**إن الناسَ معادن، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا**»، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[4].

عباد الله: الرجولة مصطلح تتطاول إليه الأعناق، وأكرم بالمرء يقال له: ذاك رجل، ولكن الرجولة ذات تبعات ومسؤوليات.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٣/ ١/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١.

(٣) سورة النساء: الآية ١.

(٤) سورة لقمان: الآية ٣٣.

الرجولة غير الذكورية، فليس كلُّ ذكر رجلًا، فثمة ذكورٌ في عالمِ الحيوان والطير والدواب، بل وفي عالم الإنس والجن ذكورٌ تقعد بهم هممهم الضعيفة، وصفاتهم الذميمة عن بلوغ معنى الرجولة الحقة.

إذن فالرجولة الحقَّة مصطلح يحمل معاني كريمة، وصفاتٍ حسنةً من الصدقِ والإخلاصِ والشهامة والشجاعة والكرم والنجدة، والبرِّ والإحسان، والصبر والعفة، والدعوة للخير، والنصح للخلق، والوفاء بالعهود، وأداء الحقوق ونحوها من كريم الأخلاق وجليل المواقف.

والرجولة بشكل عام وعاءٌ يحتوي عددًا من الأخلاق والشيم الفطرية والمكتسبة، تدور رحاها حول العبودية للخالق ونَفْعِ الخلق، وتنأى بصاحِبها عن سفاسف الأمور ومواطن الريب.

وليس من الرجولة الحقَّةِ الغدرُ والخيانة، والكذبُ والجبنُ والبخل، وفحش القول والعمل، وفساد الظاهر أو الباطن، وما يندرج في النفاق العملي أو الاعتقادي، أو غير ذلك من صفاتٍ مستقبحة، وعوائد سيئة ومواقف يُستحى من ذكرها.

أيها المسلمون: ومن تأمل في كتاب الله، وجد تأكيدًا على الرجولة وإشادة برجال ذوي صفات ومواقف جليلة، خلّد القرآنُ ذكرهم وترك صفاتهم محلًا للعبرة والذكرى، ودونكم شيئًا من نماذج هؤلاء الرجال ومواقفهم.

النموذج الأول: وبه تتجلى شجاعة الرجال، وتقويةُ العزائم، والتهوين من شأن الأعداء، وإن كانوا ظلمةً جبارين، إذا توفر الإيمانُ والتوكل على رب العالمين، ويمثل هذا الموقف «الرجلان» في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ

ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

والقرآن -في هذا النموذج- يقص علينا خبر موسى عليه السلام مع بني إسرائيل حين حرضهم على الجهاد لتحرير بيت المقدس من العمالقة الجبارين، فاعتذر بنو إسرائيل لموسى عليه السلام من الدخول على هؤلاء القوم الأشداء الجبارين، وإن كان وعدهم بالنصر والظفر، فالأرض المقدسة كُتبت لهم، والتنازلُ عن ذلك ردةٌ توردهم المهالك، وقد كان، فعوقبوا بالتيه في الأرض أربعين سنة -حتى هلكوا ونشأ جيل غيرُهم.

أما الرجلان فقد قال الضحاك أنهما كانا في مدينة الجبارين، ولكن على دين موسى عليه السلام، وكانا ناصحين لموسى ومن معه، ولكنهما كانا يخافان من العمالقة أن يطلعوا على إيمانهما فيفتنوهما، ومع ذلك وثقا بالله وقاما بالنصح للمؤمنين والتّهوين من شأن الجبارين. وقيل في معنى ﴿يَخَافُونَ﴾: إنهما كانا يخافان ضعْفَ بني إسرائيل وجبنهم. وقرأ بعضُهم (يُخافون) وهذا يقوي أنهما من غير قوم موسى، ولكن أنعم الله عليهما بالإسلام واليقين والصلاح(٢).

ومن دروس هذا النموذج أن الذّلة والمهانة والتمرد والسخرية والتخلي عن معالي الأمور تُفْضي إلى نهاية مؤلمة، ويُوصف أصحابها بالردة والفسوق. أما الشجاعة في سبيل الحق فتورث العزة والكرامة، ويستحق أصحابها نعمة الله ورضوانه.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٣.

(٢) تفسير القرطبي ٦/ ١٢٧.

النموذج الثاني: ومن قوم موسى عليه الصلاة والسلام إلى أصحاب محمد ﷺ نجد نموذجًا للرجال حقق معنى الرجولة في أعلى معانيها، وعن هذا النموذج الثاني قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾(١).

إنه نموذج للثبات على المبدأ، والإخلاص في الجهاد والطاعة والصدق مع الله في العهد، والوفاء للرسول ﷺ بالوعد حتى يقضي الرجال نحبهم.

أخرج البخاري في «صحيحه» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بنُ النَّضْر عن قتال بدرٍ، فقال: يا رسول الله!

غِبتُ عن أول قتالٍ قاتلتَ المشركين، لئن اللهُ أشهدني قتال المشركين ليَرَيَنَّ اللهُ ما أصنع، فلما كان يومُ أُحدٍ وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني المشركين. ثم تقدم فاستقبله سعدُ بن معاذ فقال: يا سعدُ بنَ معاذ! الجنّةَ وربِّ النّضْر إني أجد ريحها من دون أُحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صَنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنةً برمح، أو رميةً بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مثَّل به المشركون، فما عرفه أحدٌ إلا أختهُ ببنانه، قال أنسٌ: كُنَّا نرى -أو نظن- أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهِه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾(٢)، إلى آخر الآية(٣).

إنهم حقًا نماذجُ للرجال في صدقهم وجهادهم في سبيل نشر دين الله ومقارِعة

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.
(٣) البخاري ح٢٨٠٥، الفتح ٦/ ٢١.

الأعداء، تهون عليهم أرواحُهم وهو يتطلعون إلى الجنان.

إخوة الإيمان: ومن قوم موسى وأصحاب محمد صلى الله عليهما وسلم إلى صاحب (يس) حيث النموذج الثالث لرجال القرآن، وبه يتجلى النصحُ للخلق والدعوى بالحسنى لاتباع المرسلين: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

وحين تجبّر أهلُ قريته وهمّوا بقتل رسلهم ولم يُفدْ نصحُه لهم أعلنها صريحةً في وجوههم: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾[2]، أو قالها مخاطبًا رسل الله ليشهدوا له بالبلاغ لقومه عند الله.

وعلى الرغم من سوء صنيع قومه به -فقد ورد أنهم وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، أو رموه بالحجارة حتى أقعصوه وقتلوه- فما زال ناصحًا متمنّيًا الخير لهم، متحسرًا على جهلهم وعنادهم بعد مماته وانتقاله إلى الدار الآخرة: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[3]. وهكذا لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا ولا تلقاه غاشًا، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4]، وبعد مماته في قوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[5].

٤ - أيها المسلمون ويتكرر نموذج الرجل الساعي للخير مع موسى عليه السلام حين

---

(١) سورة يس: الآيتان ٢٠، ٢١.
(٢) سورة يس: الآية ٢٥.
(٣) سورة يس: الآيتان ٢٦، ٢٧.
(٤) سورة يس: الآية ٢٠.
(٥) تفسير ابن كثير: ٣/ ٩٠٤، ٩٠٥.

تآمر الملأُ على قتل موسى عليه السلام، فيتحرك الإيمانُ في قلوب الرجال دفاعًا عن الحق وحفاظًا على نفوس أهل الحق، ويتغلب الرجلُ هنا على بُعد المسافة -حيث جاء من أقصى المدينة، وعلى خطورة الموقف وضيق الوقت، فيأتي مسرعًا (يسعى) مُتخفيًّا عن القوم الماكرين، وعنه يقول تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[1].

وهكذا حين يتحرك الإيمان في الضمير يُلِحُّ على صاحبه بفعل الجميل، حتى وإن انتهى به الموقفُ إلى مفارقة الحياة، فذلك نقلةٌ له من عالم الفناءِ إلى عالم البقاء، وخطوةٌ يخلصُ بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة، ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحقّ، ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم، ومن ظلمات الجاهلية وبطش الجبارين إلى نور اليقين ورحمة أرحم الراحمين[2].

هذا فضلًا عما يحصل له في الدنيا من العز والكرامة والحبِّ والود. وما يحصل لأعدائه من الذل والمهانة والخزي والندامة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾[3].

❁ ❁ ❁

(١) سورة القصص: الآية ٢٠.

(٢) «في ظلال القرآن» سيد قطب، بتصرف يسير، تفسير يس ص٢٩٦٤.

(٣) سورة مريم: الآيات ٩٦ - ٩٨.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا . . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنزل كتابه ليدَّبر الناسُ آياته، وليتذكر أولو الألباب، وجعل في قصصه عبرةً وذكرى وتصديقًا للنبي المجتبى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(١). وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سلاَّه ربُّه بقصص الماضين، واستفاد أصحابه من مواقف المؤمنين، فجددوها فاتصلت قوافل الإيمان، واستمرت نماذج الرجال عبر رسالات المرسلين. . اللهم صلِّ وسلم عليهم أجمعين.

عباد الله: أما النموذج الخامس فهو رجلٌ عاش إلى جانب فرعون الطاغية. ولم ترهبْه قوة فرعون وجبروتُه عن قول الحق والدفاع عن أصحاب الحق، بدأ أمره وهو يكتم إيمانه، ثم أظهر إيمانه حين اشتد الأمرُ وأراد المجرمون قتل موسى عليه السلام، وعنه قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(٢). ثم يتابع الرجلُ المؤمنُ من آل فرعون جهوده ودعوته لقومه مذكّرًا تارة، ومحذرًا أخرى، ومخوفًا ثالثةً من بأس الله وشدته إن استمروا في كفرهم وعنادهم، مع ضرب الأمثلة والتذكير بمصائر الغابرين.

ولكن هيهات أن يفيق السُّكارى أو يرعوي المجرمون المتكبرون. وأخيرًا يبلغُ

---

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٢) سورة غافر: الآية ٢٨.

الإعذار ويُذكّرهم بمستقبل الأيام، إذ لا يملك هدايتهم، ويفوّض أمره إلى الله، ويتوكل عليه بعد أنْ هددوه بالقتل ويقول: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(١).

ويفيد بقيةُ السياق أن الله حفظه مما كادوا له، وأوقع بهم سوء العذاب: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾(٢).

أيها المؤمنون: ثم تُطوى صفحة الأيام على إثر هزيمة الباطل وأهله، وانتصار الحقِّ وأصحابه، ويتجدد الموقفُ بعد القرون في شخص أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يدافع المشركين عن رسول الله ﷺ -إذ خنقوه خنقًا شديدًا، ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ﴾(٣)؛ في قصة رواها أهل السير وأخرجها البخاري ومسلم. وقال علي رضي الله عنه: والله ليوم أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون، إن ذلك رجلٌ كتم إيمانه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله ﷻ. خرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»(٤).

وما أشدَّ هذه الرواية أو مثيلاتها على الشّانئين لأبي بكر، والغالين في علي رضي الله عنهما، وكلاهما خيار، واللاحقُ يشهدُ بالفضل للسابق، وصدّيقُ الأُمةِ ملءُ السمعِ والبصر، وفضله وسبقُه وجهادُه لا ينكره إلا مكابرٌ أو حاقدٌ أو جاهلٌ.

أيها المؤمنون: وحين نواصل المسير في تتبع رجال القرآن، نجد نماذج للرجال

---

(١) سورة غافر: الآية ٤٤.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٥.

(٣) سورة غافر: الآية ٢٨.

(٤) تفسير القرطبي ١٥/٣٠٩.

في صدق العبودية، والتحرر من الدنيا، والخوف والاستعداد ليوم المعاد.. أولئك الذين قال الله عنهم وأثنى عليهم بقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

إخوة الإسلام: إن الحديث عن رجال القرآن حديثٌ تستعذبه النفوس وتتقوى به الهمم، ويؤصل معاني الرجولة الحقة.

يا قارئ القرآن: كم تشُدُّك مواقفُ رجال القرآن؟ وماذا تملك من خصالِ رجال القرآن؟ هل تنتصر للحقِّ كما نصره رجال القرآن؟ وهل تدعو الخلق إلى الحق كما دعا من قبلُ رجالُ القرآن؟ هل تحبُّ أهل الحقِّ وتُدافع عنهم وتنصح لهم كما فعل رجالُ القرآن، وهل تستهين بالباطل وتكشف خطط المبطلين كما صنع رجال القرآن؟ أين أنت من رجال القرآن؟ الذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار.

إن قصص رجال القرآن تُتلى للعظة والاعتبار، ويُذكَّر بها المسلمون في كل زمانٍ ومكان ما بقي قارئٌ للقرآن.

وهنا نطرح السؤال وندعُ لكل مسلم ومسلمةٍ الإجابة على السؤال.. والسؤال يقول: ماذا تثير فينا قراءة مواقفِ رجالِ القرآن؟ وهل نُعيد قراءتها اليوم نحن أحوجُ ما نكونُ إلى هدي القرآن؟

عباد الله: ألا ما أحوج الأمة إلى من يصيح بها قائلًا: ﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ

---

(١) سورة النور: الآيات ٣٦-٣٨.

ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[١].

ثم يصيح بها آخر صيحة أخرى قائلًا: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٢].

وما أحوج الأمة إلى الاستجابة لنداء المنادي ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٣] رجال ينفضون عنها غبار الذُّل والهوان، ويقتلعون من القلوب مهابة الأعداء، ويرسّخون فيها خشية الله والتوكّل عليه وحده في حروبهم مع الأعداء، ويقولون لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤]، ويقولون لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾[٥].

ما أحوج الأمة في أزمان التشرد والضياع والغفلة والفساد إلى تجديد العهد مع الله وتحقيق العبودية له، وهنا ينعم الوجود بنماذج لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

تِلْكُم معاشر المسلمين من صيحات ونداءات رجال القرآن، وهي ومثيلاتُها إرثٌ لنا، وكنوزٌ من كنوز قرآننا، ودواءٌ لأسقامنا، وصدق الله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[٦].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٧].

اللهم انفعنا بهدي القرآن، واشفنا بشفاء القرآن، واجعلنا من أهل القرآن.

---

(١) سورة غافر: الآية ٣٩.
(٢) سورة غافر: الآيتان ٣٢، ٣٣.
(٣) سورة يس: الآيتان ٢٠، ٢١.
(٤) سورة المائدة: الآية ٢٣.
(٥) سورة المائدة: الآية ٢١.
(٦) سورة الإسراء: الآية ٩.
(٧) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

بناء العلاقات في الإسلام[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

أيها المسلمون: هل نكون عاطفيين حين نقول: إن الإسلام يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، ويؤلف ولا ينفر؟ كلا.

ولا نكون مجازفين حين نُصدر حكمًا بأن تشريعات الإسلام كلَّها تُعنى بإقامة العلاقات الإنسانية في كافة المجالات؛ الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وفي حالات الحرب أو السلام، فضلًا عن المجالات الدينية التي ترعى هذه العلاقات وتوجِّهها.

بل يمكننا القول -مطمئنين- أن بناء العلاقات في الإسلام تتجاوز المسلمين إلى غير المسلمين، فماذا نقصد بهذه العلاقات، وعلى أي أساس تقام في الإسلام،

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٤/٨/١٤٢٠هـ.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣٥.

وما وسائل ذلك وصوره؟

تعالوا بنا -عباد الله- لنتعرف على هذه الحقيقة في بناء الإسلام للعلاقات.

ونستهل ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، أليس في هذه الآية دعوة للتعارف والتآلف بين الناس؟.. ولكن الآية لا تنتهي حتى تضع معيارًا للتفاضل، والقرب من الله، ذلكم معيارُ التقوى وليس شيئًا آخر.

وفي آية أخرى من كتاب الله يُحدد الإيمان أساسًا للأخوة والتعاون وإصلاح ما قد يطرأ على بناء العلاقة بين المسلمين ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2].

وفوق ما في هذه الآيات من إشارات لبناء العلاقات، ففيها تأكيدٌ على معلمٍ واضح من معالم بناءِ العلاقات في الإسلام؛ ألا وهو التقوى والإيمان. وفوق ما سلف تأمل قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

أيها المسلمون: ولا يقف الإسلام في بناء العلاقات بين المسلمين عند التنظير، بل يدعو إلى تطبيق ذلك في عالم الواقع.

أرأيتم السلام تحية أهل الجنة -أليس نموذجًا لبناء العلاقات، ونشر المحبة؟ يقول عليه الصلاة والسلام: «**أولا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلامَ بينكم**».

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١٣.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١.

أو ليس إطعام الطعام صورةً أخرى من صور بناء العلاقات وإيجاد الألفة، فضلًا عما فيه من سد للحاجة؟

تأملوا ثناء الله على من يطعمون الطعام، فهم في قائمة الأبرار، وهم من عباد الله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾(١). وإطعام الطعام سبيل لاقتحام العقبة: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾(٢).

إنها شبكة من العلاقات يقيمها الإسلامُ بإطعام الطعام لتشمل المسكين واليتيم والأسير، القريب والبعيد.

وقولوا لي بربكم أي نظام في الدنيا يمكن أن يبلغ ما بلغه الإسلام في دعوته لإفشاء السلام، أو إطعام الطعام؟ إنها أعمالٌ وحركاتٌ يسيرةٌ نمارسها يوميًا، وقد لا نشعر بقيمتها في ربط العلاقات، وإفشاء الخير في المجتمعات. فكيف إذا أفشيتَ السلام على صغير، أو عُدت مريضًا، أو أعنت ضعيفًا، أو قضيت حاجةَ معوز، أو شفعت لصاحب حاجة، أو تبعت جنازةً، أو أهديت لقريب أو بعيد هديةً، أو دعوت لمسلم بظهر الغيب.. أو نحو ذلك من أنماطٍ وسلوكياتٍ حث الإسلامُ عليها ورغب في فضلها.. وهي تبني العلاقات وتستجيب لها القلوبُ وتُسرُّ بها النفوس.

إخوة الإسلام: وفي بناء الأسرة كذلك تظهر عظمة الإسلام في بناء العلاقات، فالأرحام توصل والقريب يُعتنى به ويكرم.. والصدقة على القريب صدقة وصلة،

---

(١) سورة الإنسان: الآيتان ٨، ٩.

(٢) سورة البلد: الآيتان ١١ - ١٦.

والرحمن يصل من وصل، ويقطع من قطع الرحم.

وإذا كان الأبوان في أعلى قائمة الرحم، فالوصية بهما إحسانًا وتكريمًا ورحمة ودعاءً لهما، والنهي عن إيذائهما حركةً أو تعبيرًا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾[(١)].

وفي آية أخرى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[(٢)].

ترون معاشر المسلمين كم تبني هذه القيمُ والمكارم من علاقات.. وكم فيها من وفاءٍ ورحمات ودعوات!

وبين الزوجين مودةٌ ورحمة، وبيتُ الزوجيّة سكن حسيٌ ومعنوي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(٣)].

وحين يُعكر صفو هذه العلاقات مكدرٌ، أو يطرأ ما يخدش سكن الزوجية، يجيء تأكيد الإسلام على الصبر والتحمل والعفو والصفح، فقد يكره الزوج من زوجه خلقًا ويرضى خلقًا، وقد تكون نزغةً من النزغات ينبغي على الزوجين ألا يستجيبا لها، يقول ﷺ: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر**» رواه مسلم، ومعنى «لا يَفرِك» أي: لا يبغض[(٤)]. ومثلُ هذا يُقال في الحفاظ على

(١) سورة الأحقاف: الآية ١٥.
(٢) سورة الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤.
(٣) سورة الروم: الآية ٢١.
(٤) رياض الصالحين.

العلاقات الأسرية بشكل عام، حتى وإن قوبل الإحسانُ بالإساءة، والوصل بالقطيعة، قال رجلٌ: إن لي قرابة أصِلُهم ويقطعوني، وأحسنُ إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فأقره ﷺ وقال: «**إن كنتَ كما قلتَ فكأنما تسفُّهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك**» رواه مسلم.

وفي التوجيه النبوي الآخر، قال ﷺ: «**ليس الواصلُ بالمكافئ ولكن الواصلَ الذي إذا قُطعت رحمهُ وصلَها**» رواه البخاري.

عباد الله: وإذا كان هذا جانبًا من بناء العلاقات الاجتماعية في الإسلام.. فالأمر كذلك في جوانب المال والاقتصاد، فالعلاقةُ بين الغني والفقير تُبنى على أساس من العطف والرحمة والإيثار والمواساة، وإنظار المعسر، وحسن القضاء، فالفقير يُعان ويُتصدّق عليه، أو تدفع الزكاة له، ويُقرض قرضًا حسنًا، ولا يُلح عليه في الأداء إن كان معسرًا ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[2].

«اتقوا الله ولو بشق تمرة» إلى غير ذلك من نصوص تحث على البذل والصدقة والإحسان.

وبكل حالٍ فلا ينبغي أن يكون المال دولة بين الأغنياء، ويحرم منه أصحاب الحاجات والفقراء.

قال تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٠.

(٢) سورة المعارج: الآيتان ٢٤، ٢٥.

(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، أحمده تعالى وأشكره وأثني عليه الخير كلَّه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

عباد الله: ويظهر الفرق جليًا بين الإسلام وغيره من النظم البشرية، في بناء العلاقات من بوابة الاقتصاد، ولنأخذ نموذج الربا والاحتكار الذي حرمه الإسلام، وهو يشكل حجر الزاوية في اقتصاد الأمم الأخرى.. ترون هل يبني الربا والاحتكار العلاقات الإنسانية أم يهدِّدها ويقوّض بنيانها إذا كانت فئة قليلة من الناس تتورم عندها الأموال، وتحتكر الإعانة إلا بفائدة -بينما تظل فئةٌ كبرى من الناس تعاني من سداد الديون وتظل تكدح حتى تحصل على لقمة العيش بأي شكل من الأشكال؟ فكيف سينظر الفقير إلى الغني وتلك حالهما؟ وما نوع العلاقة التي ستخلفها الأثرةُ والأنانية، والشحّ والبخل، وسحقُ الفقراء في مجتمع الأغنياء؟ لا شك أنها علاقات كره لا تستقيم معها الحياة السعيدة.

بل يُقال غير ذلك وعكس ذلك في بناء العلاقات في الإسلام عبر وسيلة البيع والشراء التي لا غش فيها ولا خداع ولا غُبن ولا نجش ولا كذب ولا احتكار للسلعة ولا مغالاة في الثمن، بل تُصحب بالسماحة واليسر وإنظار المعسر، وشعارنا -أهل الإسلام-: «**رحم الله امرءًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى وإذا اقتضى**».

أيها الناس: ويمتد بناءُ العلاقات في الإسلام في حال السلم أو الحرب.. ففي السلم: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[1]. ولكنه السلمُ الذي يقوم على تقدير

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦١.

الحقوق، ورعاية العهود والوفاء بالمواثيق، لا يُعتدى فيه على كرامة الأمة المسلمة، ولا يُنقص من دينها، ولا تنكر فضائلها، ولا يعتدى على حرماتها، أو يعبث بمقدساتها.

وفي حال الحرب هناك تشريعات وآداب للجهاد تضمن بقاء الجهاد في سياق بناء العلاقات، فالجهاد أساسًا لإعلاء كلمة الله، وهو لدفع الظلم، وإزالة الطواغيت التي تصد الناس عن الدخول في السّلم كافة، وهو لإقرار حكم الله وشرعه في الأرض، بدل شريعة الغاب وقوانين البشر، وتلك -وربي - ونحوُها من أهداف الجهاد في الإسلام، بناء للعلاقات الإنسانية في مضامينها وأهدافها وآثارها، وأن بدت ظاهرًا وكأنها من مظاهر الشدة وسفك الدماء، وإعمال السيف في الرقاب عند من يجهلون حكمة التشريع، أو يريدون تشويه صورة الجهاد في الإسلام.

أيها المسلمون: وحين نتحدث عن بناء العلاقات في الإسلام ينبغي أن لا يغيب عن بالنا الإشارة إلى المؤلفة قلوبهم، أولئك القوم الذين جاء النصُّ القرآني باعتبارهم أحد الأصناف الثمانية الذين تدفع لهم الزكاة، وسواء كان المؤلفة قلوبهم مشركين ليسلموا، أو مسلمين ليحسن إسلامهم وتثبت قلوبهم، أو ليسلم نظراؤهم، أو ليدفعوا عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد.. أو غير ذلك من أغراض التأليف التي تَصُبُّ كلُّها في تأليف القلوب وترغيبها في الإسلام.. ثم هي في النهاية بناءٌ للعلاقات وتوسيع لدائرة المحبة، وتضييق لهوَّة الخلاف والعداوة. وفي سيرة نبينا محمد ﷺ تطبيقاتٌ عالية ونتائج بالغة الأثر في التأليف، وهذا نموذج لها:

عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس

إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأَحَبُّ الناسِ إليَّ. رواه أحمد ومسلم وغيرهما[١].

بل ويبلغ محمد ﷺ بالتأليف مبلغًا عاليًا، إذ لا يقتصر تأليفه على المال، بل يؤلف بالنظرة الهادفة، وبالكلمة الطيبة، وبالموقف اللطيف، وبإنزال الناس منازلهم، حتى ملك القلوب وانصاع له الأعداء. وكان في سيرته نموذجًا لبناء العلاقات وبكل حال، فمقام التأليف في القرآن والسنة والسيرة يحتاج إلى وقفة متأملة، لا يتسع المقامُ الآن لبسطها أكثر من ذلك.

عباد الله: ومَدُّنا الحضاري وإسهامنا في بناء العلاقات يصل إلى أهل الكتاب. ولكنه مصحوب بالعزة، مشروط بالتزام العقيدة الحقة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢].

وفي هذا الصدد وفي سبيل بناء الإسلام للعلاقات مع الآخرين يرشد إلى العدل مع البعيد والقريب: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[٣].

ويأمر بالعدل حتى مع وجود الخلاف مع الطرف الآخر: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[٤].

إخوة الإسلام: تلك خطوط عامة وإشارات سريعة إلى عظمة الإسلام في بناء العلاقات، ويبقى بعد ذلك السؤال المهم: لماذا، وما الهدف من الحديث عن هذه العلاقات؟

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير لآية التوبة: ٦٠.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٤.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.
(٤) سورة المائدة: الآية ٨.

ويمكن الإجابة بعدة أهداف: منها: المعرفة بوسائل بناء العلاقات في الإسلام ليتمثلها المسلمُ في حياته ويساهم في بناء العلاقات في مجتمعه -الصغير والكبير- وليكون عنصرًا إيجابيًا في غرس بذور المحبة والصفاء، وعضوًا فاعلًا في محاربة القطيعة والنزاع. هذا من جانب، ومن جانب آخر ليعلم الناس عظمة ديننا من خلال سلوكياتنا، فتدعوهم أخلاقنا وسلوكياتنا للإسلام قبل أن تصل إليهم كلماتنا.

وأمرٌ ثالث: لتؤكد في معترك الصراع بين الحضارات أن ديننا الإسلام أعظم دين عرفته البشرية في بناء العلاقات بين بني الإنسان على أسس من المحبة والعدل، وبيان ذلك يكشف عن عور الأنظمة الأخرى التي تعتمد القوة وسلطان المادة، وتتخذ من مصطلحات العولمة والحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية شعارات زائفة لتحقيق أغراضها الخبيثة، فإذا الناس يكتشفون ما بها من ظلمٍ وجورٍ وأنانية وتسلط.

وحين يتأخر الإسلام في قيادة البشرية فإنما يُلام المسلمون لضعف انتمائهم للإسلام، وتبقى تعاليم الإسلام تنتظر من يستثمرها ويفتح بها القلوب والبلاد. اللهم ردّ المسلمين إليك ردًا جميلًا، وهيئ لهم من أمرهم رشدًا.



تربية القادة[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له.

إخوة الإسلام: الأبوان سيدان في بيتهما، ولهما حقُّ التقدير والإكرام من أولادهما، والمعلمُ والمعلمةُ بين طلابهم، لهم المسؤولية الكبرى في التعليم والتربية، وعلى طلابهم أن يحترموا علمهم ويقدروا جهودهم، وكذا المسؤول في دائرته، والتاجر بين أجرائه، وكلُّ صاحبِ مسؤولية مهما كبرت أو صغرت مسؤوليتهم، كل هؤلاء يمكنهم أن يفرضوا على الآخرين احترامهم بحسن خُلقهم، وتقدير مشاعر الآخرين الذين يتعاملون معهم -ولو كانوا أقلَّ منهم منزلة. وبإمكانهم -كذلك - أن يفرضوا شخصياتهم بالقوة والقسر على من دونهم، ويلزموهم بطاعتهم ظاهرًا، وإن كرهوهم أو خالفوهم باطنًا.

هذان -معاشر الإخوة - نمطان وأسلوبان مختلفان في أسلوب تعامل الكبير مع الصغير، أو المعلم مع الطالب أو الرئيس مع المرؤوس، وكما الفرق كبيرٌ في أسلوب التعامل، فالفرق كبيرٌ في النتائج والآثار.

فالأبوان اللذان يتعاملان مع الأولاد بروح الأبوة الحانية المعلمة، فيعلمان أولادهما بالحسنى، ويتيحان لهم فرصة النقاش فيما يشكل عليهم، أو تخفى عليهم

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٥/ ١٠/ ١٤١٩هـ.

أسرارُه وآثاره، ويتركان للأبناء والبنات فرص التعبير عن وجهات النظر، ثم يُعْقبان بالقبول على ما يُستحسن من رأي، ويبينان لهم ما في الرأي الآخر من أوجه نقصٍ وتقصير.

هذان الأبوان المربيان يخرج لهما -بإذن الله - أولادٌ ممارسون في الحياة، عارفون بالصواب والخطأ، قادرون على النقاش مع الآخرين، بل ولديهم أداةٌ لتمييز الضارِّ من النافع، وهم مؤهلون للقيادة أكثر من غيرهم.

الأبوان القسريان اللذان لا يتيحان أيَّ فرصةٍ للنقاش، ولا يقبلان أيَّ وجهة نظر ممن هو دونهم، ولو كانت أسلم من وجهة نظرهم، هؤلاء الآباءُ «العنتريون» يمكن أن يستسلم لهم الأولادُ فترة، لكنهم ربما انفجروا من شدتهم قبل تمييزهم، فتكونُ النتيجة مرةً، وربما خرج من تحت أيديهم أبناء غيرُ قادرين على مواجهة مصاعب الحياة، أو على تحمل المسؤولية بكفاءة عالية؛ لأن شخصياتهم لم تنمُ، ومواهبهم لم تستثمر فترة من الزمن.

وهكذا الشأن بالنسبة للمعلمين مع الطلاب، أو المسؤولين مع من تحت أيديهم في أي مهنة.. وأيًا كان حجمُ المسؤولية إذ الفرق كبير بين من يُقدر للآخرين رأيهم، ويحترم ذواتهم، وينمي فيهم، حبَّ العلم أو العمل، ويزرع فيهم بذور الرقابة الذاتية، ويربيهم على الثقةِ، تربية السادة والقادة، لا تربية العبيد التابعين. وبين من شأنه الصلفُ والتعسفُ، وإصدارُ الأوامرِ، والمطالبةُ بسرعةِ الأداء، مهما كان نوعُ الأمر، وقدرةُ المأمور وظروفه.

إن هذا النوع الأخير من التربية لا يصنع قادةً ولا يُصلح مجتمعًا، ولا يؤهل أمة للريادة والقيادة. وما أحوجنا في بيوتنا، ومدارسنا، ومؤسساتنا ومجتمعنا وأمتنا، إلى إخراج قادةٍ يقتنعون بتربيتنا بالقدوة، وتبنى فيهم القدراتُ الذاتية على التفكير،

والإيجابية في العطاء، لا أن نخرج نسخًا كربونية لا تتحرك إلا حين تُحَرَّكُ، ولا تُعطي إلا بقدر ما أَخَذَتْ، وتظل دائمًا تنتظر الآخرين ليقدموا لها كلَّ ما تحتاج إليه.

أجل؛ إن تكريم بني آدم فطرة الله، وتفضيلُهُمْ منسجمٌ مع تقدير الله في خلقه، يقول جلَّ شأنه: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[١].

والآيات التي تدعو للتفكير والتأمل والعمل والإنتاج كثيرة في كتاب الله، وفي المقابل فالله تعالى ينهى عن السلبية والجمود، والاتكال والقعود في أكثر من آيةٍ وأكثر من مثلٍ في كتابه، ويكفي أن تقف من ذلك على قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

وفي سيرة رسول الله ﷺ وهديه، نماذج رائعة لطرائق عاليةٍ في التربية على يديه، وبمثل هذه التربية تخرجت نماذج فريدة في القيادة. فمصعبُ بنُ عمير رضي الله عنه -الشابُّ- يُبعث للمدينة لمهمةٍ كبرى، وبعد أن علَّمه النبيُّ ﷺ، ورباه، أعطاه الثقة في العمل والدعوة، وكان الشاب عند حسن الظنِّ به، فما لبث غير يسير حتى أدخل الله الإسلام على يديه إلى كل بيت من بيوت أهل المدينة، ثم تستمر الثقة به، ويسقط شهيدًا في أحد وهو يحمل راية المسلمين، ولا شك أن هناك من يكبره سنًا من المسلمين لكنها تربية القادة، وأسلوب الثقة التي يغرسها النبيُّ المعلِّم في هؤلاء الشباب الذين أصبح من بقي منهم على قيد الحياة رجال المستقبل وأصحابَ الشأن.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) سورة النحل: الآية ٧٦.

ويستمر ﷺ في إعطاء الثقة بأصحابه، ولو كانوا شبابًا أحداثًا حتى آخر لحظة من حياته، إذ أمر شابًا آخر بقيادة جيش فيه أمثال أبي بكر وعمر، وأبي عبيدة وطلحة وسعدٍ، وعبد الرحمن بن عوف وسواهم، وذلك لملاقاة الروم بالشام. ويشاء الله أن يتوفى رسول الله ﷺ وجيش أسامة معسكرٌ بالجرف من نواحي المدينة، فيصر الخليفة الأول على إنفاذ الجيش الذي عقد لواءه الرسولُ ﷺ، ولو سُمِعَ من أفراد الجيش من يقترح تولية من هو أسن من أسامة. ولو قيل له: إن ظروف المدينة لا تسمح بخروج الجيش منها. إلا أن أبا بكر يُصر، ثم يشرح الله صدر المسلمين لما رآه، ويسير جيش أسامة، ويسير بإزائه الخليفة الصديق ماشيًا، وأسامة راكبًا، فيتحرج الشابُّ من صنيع الخليفة ويقول: يا أمير المؤمنين لتركبَنَّ أو لأنزلن، فيرد أبو بكر: والله لا تنزل، ووالله لا أَركب، ثم يستأذنه في إبقاء عمر إلى جانبه في المدينة[١]. أيُّ تربية هذه خطها رسولُ الله، وقفّى أثرها صحابته من بعده[٢]، فأَنتجت جيلًا فَريدًا شهد العالم له بالتميز والصدق!

وقد اصطفاه ربُّهُ وأدبه فأحسن أدبه، وأوحى إليه أسلوب التعامل مع أصحابه فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٣].

❁ ❁ ❁

(١) انظر البخاري مع الفتح ٨/ ١٥٢.
(٢) انظر موقف عمر مع ابن عباس رضي الله عنهما، الصحيح مع الفتح ٨/ ١٣٠.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، وخيرتُه من خلقه، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوة الإيمان: تقدير الذات، واحترام رأي الآخرين، والثقة المتبادلة، والإيجابية البناءة في الأخذ والعطاء، ورعاية الحقوق العامةِ والخاصة، والتفاهم بالحسنى.. كل هذه مفرداتٌ مهمةٌ للحياة الكريمة المنتجة.

أما التربية بالقسر، والإقناع بالقوة، وإسكات الطرف المقابل قبل سماع ما لديه، فتلك، وإن خيل لك -أيها المربي - أنها أسلوبٌ أمثل في التفوق وإقناع الآخرين..، فليست كذلك، وهي، وإن عالجت الموقف عاجلًا، فلها آثارُها السيئة مستقبلًا، ويكفي أن فيها هدرًا للكرامة، وقتلًا للمواهب، وسحقًا للذاتِ، وخسارة لرأي قد يكون هو الأصوبَ والأنجحَ.

أيها المربي: إنك قد تحتقر رأي الصغير، أو الضعيف، ولكن ثق أن مجرد تعويده على المشاركة وطرح الرأي طريقٌ لتربيته ووصله إلى الرأي الصائب مستقبلًا، واحتمالك للخطأ، في سبيل تدريب الناشئة على الرأي والتفكير كسبٌ كبير.

أيها المسلمون: وكما تسري هذه المفاهيم على الأفراد تسري -كذلك - على الدول والمجتمعات، فالعدل أساسُ في قيامها، وتقديرُ الشعوب، واحترامُ الرأي، وتوفيرُ الحرية المنضبطة بحدود الشرع، وصيانةُ الحقوق لكافة الأفراد، وإعطاء الثقة مع المراقبة؛ كل ذلك يُسهم في تعميرِ الدول، وإصلاح الراعي والرعية،

واشتراك الجميع في المسؤولية، ولا تتيحُ الفرصة لتعطيل أي طاقة.

أما الظلمُ والتسلط، وإغفالُ رأي الآخرين، وهدرُ كراماتهم، وسلبُ حقوقهم، واعتبار الريبة محل الثقة، وتعطيل الطاقات، وفشو الأنانيات فذلك معجلٌ بالنهاية، مؤذن بالزوال.

وهنا قاعدةٌ نقلها وقررها شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهي جديرةٌ بالتأمل، إذ يقول: وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم. ثم قال: ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلَةَ وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام[١].

وهذا الكلام النظري الذي ساقهُ ابن تيميَّة في آثار العدل والظلم، يُصدقه الواقعُ العملي للدول قديمًا وحديثًا، فكم من دولة حكمت بالحديد والنار، وظلم الناسِ وأهدرت كراماتهم وسلبت حقوقهم، ثمَّ لم تلبث هذه الدول الظالمة أن تهاوتْ عروشُها، وأصبحت عبرة للمعتدين! والعكس بالعكس.

إخوة الإيمان: إن الإسلام سابقٌ في تقرير هذه المعاني الكريمة، حاثٌ على العدل، ناهٍ عن التسلط والظلم، مقدرٌ للآراء، حافظ لكرامة بني الإنسان. ومن المؤسف أن يتخلف المسلمون عن تطبيق هذه المعاني أو بعضها، ثمّ تظهَرَ عند الدول الكافرةِ أنماط من العدل، وتقدير الكرامة، وحفظ الحقوق، واحترام الرأي فيظن بعض الجهلة ذلك تقصيرًا من الإسلام، والحقُّ أنه من تخلف المسلمينَ وتقصيرهم، وفوق ما سلف من نصوص تؤكد عناية الإسلام بهذا الجانب، فيكفي

(١) الفتاوى ٢٨/ ١٤٦.

أن تعلم أن رسول الله ﷺ قبل شفاعة وجوار امرأةٍ وأعلن ذلك على الملأِ بقوله «**لقد أجرنا من أَجرتِ يا أم هانئ**»، وقبل مشورةً أخرى يوم الحديبية، حين تأخرَ المسلمون في الحَلْق -إذ لم يعتمروا - فأشارت عليه أحدُ نسائه بأن يبدأ في الحلق أمام المسلمين، ففعل وتتابع المسلمون يحلقون.

وفي سيرته ﷺ عمومًا، كان يُقَدِّرُ الشبان ويأذن لهم بحضور مجالس الكبار. وفي سيرة ابن عمر، وابن عباس وأمثالهما.. نماذج لا تُدانى في تقدير آراء الصغار، وإشراكهم في المهمات مع الكبار. وإذا كان هذا صنيعَه مع النساء والصغار.. فلا تسأل عن هديه وأسلوب تعامله مع الرجال والكبار.

والسؤال المهم: كيف ننمي هذه المعاني، ونسهم في تربية القادة ونفسح المجال للقدرات، ونحافظ على الحقوق والكرامات؟

لا بد في هذا الصَّدد من شعور المربين بهذا النوع من التربية، ولا بد من الممارسة العملية لمن يربون، والآباء والأمهات والمعلمون والمعلمات والمسؤولون والرؤساء كل أولئك مسؤولون عن تحقيق هذه المعاني وغيرها فيمن تحت أيديهم، واقعًا لا تنظيرًا، إذ لا بد من قراءة السيرة النبوية، وسير الأعلام والنبلاء. والمناهج التعليمية لا بد من صياغتها بشكل يحقق هذا الغرض للدارسين، وقبل هذا وذاك، لا بد من وعي المعلمين واستشعارهم، ولا بد من قيام السياسة الإعلامية على أساس من الصدق في الطرح، والثقة في النقل، وإعطاء الفرصة لكل رأي بناء، ولا بد من ضرب النماذج العادلة التي تدعو للإعجاب والاقتداء، أما التعتيمُ في النقل، وحجبُ الرؤية الصحيحة، والإسراف في الثناء، وإغفالُ القيم الكبرى، وبروزُ المهرجين، واختفاء العلماءِ والمفكرين الجادين عن هذه الوسائل الإعلامية، فكل ذلك يؤخر الوعي، ويُسهم في نقل

الغثاء، ولا يعين على استثمار الطاقات.

ومن الأمور المعينة كذلك: إفشاءُ الشورى وتشجيعُ المؤسسات الشورية، والكتابةُ في هذا الميدان، واستخدام الاستبانة في الآراء، والعملُ بنتائجها، ولا بد من شعور العلماء بقدرهم، ولا بد من استفادة الصغار من تجارب الكبار، وتقدير الكبار لهمم وآراء الصغار. وهكذا تتكامل القدرات، ويستفاد من كافة الإمكانات، ولا يغدو في المجتمع عاطل، ولا تهدر طاقة، ولا يستخف برأي أو مشورة وحينها نبلغ بتربيتنا تربية القادة، وتثمر الخطوة ثمارها في العاجل والآجل.

اللهم سدّدْنا في أقوالنا وأفعالنا.



قصة ذي النون عليه السلام(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أعطى كلَّ شيء خلقه ثم هدى، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢).

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله فضَّله بالنبوة، وعلَّمه بالرسالة ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيمًا.

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٤).

عباد الله: في القصَص بشكل عام سلوةٌ وعبرة، وأحسنُ القصص قصص

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٣/١٢/١٤١٩هـ.
(٢) سورة الحديد: الآية ٤.
(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٤) سورة المائدة: الآية ٣٥.

القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وسأورد لكم -في هذه الخطبة - طرفًا من قصة نبيٍّ رسول دعا قومه فلم يستجيبوا له أول الأمر، فذهب مُغاضبًا لهم، وركب البحر وشاء الله أن تقف به وبمن معه السفينة في لجِّ البحر، أو تهيج بها الرياحُ العاتية، مما أحوج إلى الاقتراع وإنزال أحدِ ركابها، فوقع السَّهم على هذا النبي، فكان من المدحضين، فالتقمه الحوتُ وهو مليم، ولذا نسُب إلى الحوت فقيل له: (ذو النون)، وعاش فترة في بطن الحوت، لا يهشم له لحمًا، ولا يكسر له عظمًا، لكنه في ظلمات موحشة، أنقذه الله منها -وإن خرج سقيمًا ضعيفًا - بسبب تعرُّفِه على الله في الشدة كما كان يعرفه في الرخاء، وإذا احتمى الأنبياءُ بحمى الله واعترفوا له بالخطيئة، ودعوه بالفرج فغيرهم أولى بذلك.

إنه يونس بن متّى صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء، عاش في أرض الموصل، وبعثه الله إلى أهل نينوى، وسمَّى في القرآن سورة باسمه، وذكره في معرض قصص الأنبياء؛ فقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وفي «الصافات» عرضٌ وتفصيلٌ لبعض ما أجمل في قصته[3]، وفي سورة

---

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٧، ٨٨.

(٣) الآيات من ١٣٩ - ١٤٨.

«القلم» تذكير لمحمد ﷺ والمؤمنين بقصة يونس، وأخذ العبرة منها[١]. وفي قصة يونس -بشكل عام - درس وعبرة للأمة التي نزل عليها القرآن، وفيها حكمٌ وآداب ودعاءٌ مستجاب يتجاوز يونس إلى غيره من المؤمنين -كما سيأتي البيان.

أيها المسلمون: وقبل أن أقف على شيء من دروس قصة يونس ﷺ -أسوق لكم تفصيلًا أكثر لقصته وردت في السنة، رواها ابن أبي شيبة في «مصنفه» وعزاها صاحب «الدرر المنثور» إلى أحمد في «الزهد»، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم وغيره، ونقل الحافظ ابن حجر مقطعًا منه وحكَمَ بصحة رواية ابن أبي حاتم كما في «الفتح»[٢] وصحّحها غيره[٣]. والرواية بنصِها عن ابن مسعود ﷺ قال: «إن يونس ﷺ كان وعد قومه العذاب، وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام، فتفرقوا بين كل والدةٍ، وولدها، ثم خرجوا فجأروا إلى الله واستغفروه، فكفَّ الله عنهم العذاب، وغدا يونس ﷺ ينتظر العذاب فلم ير شيئًا، وكان مَنْ كَذَبَ ولم يكن له بيِّنة قُتل، فانطلق مغاضبًا، حتى أتي قومًا في سفينةٍ، فحملوه، وعرفوه.

فلما دخل السفينة ركدت، والسفن تسير يمينًا وشمالًا، فقال: ما بال سفينتكم؟ قالوا: ما ندري. قال: ولكني أدري، إن فيها عبدًا أَبِقَ من ربه، وإنها والله لا تسير حتى تُلقوه، قالوا: أما أنت والله يا نبي الله فلا نلقيك.

فقال لهم يونس ﷺ: اقترعوا فمن قرع فليقع، فاقْتَرَعوا، فقرعهم يونس ﷺ ثلاث مرار، فوقع وقد وُكِّل به الحوت، فلما وقع ابتلعه فأهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونس ﷺ تسبيح الحصى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ

---

(١) الآيات من ٤٨-٥٠.

(٢) (٦/ ٤٥٢).

(٣) صحيح القصص النبوي، الأشقر ١٢٣.

سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١). قال: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

قال: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾(٢).

قال كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فكان يستظل بها أو يصيب منها فيبست، فبكى عليها حين يبست، فأوحى الله إليه: أتبكي على شجرة أن يبست، ولا تبكي على مئة ألف أو يزيدون، أردت أن تهلكهم؟!

فخرج فإذا هو بغلام يرعى غنمًا، فقال: ممن أنت يا غلام؟ قال: من قوم يونس، قال: فإذا رجعت إليهم فأقرئهم السلام، وأخبرهم أنك لقيت يونس.

فقال الغلام: إن تكن يونس فقد تعلم أنه من كذب ولم يكن له بينة قتل، فمن يشهد لي؟ قال: تشهد لك هذه الشجرة، وهذه البقعة.

فقال الغلام ليونس: مُرْهما، فقال لهما يونس ﷺ: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم.

فرجع الغلام إلى قومه، وكان له إخوة، فكان في منعة فأتى الملك، فقال: إني لقيت يونس وهو يقرأ عليكم السلام، فأمر به الملك أن يقتل، فقال: إن له بينة، فأرسل معه، فانتهوا إلى الشجرة والبقعة، فقال لهما الغلام: نشدتكما بالله هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم، فرجع القوم مذعورين يقولون: تشهد لك الشجرة والأرض! فأتوا الملك، فحدثوه بما رأوا فتناول الملك يد الغلام فأجلسه في

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.
(٢) سورة القلم: الآية ٤٩.

مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني، وأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة.

إخوة الإيمان! ومن دروس القصة: أهمية الصبر والحاجة إلى التواصي به، إن في دعوة النفس إلى الخير وترويضها عليه أو دعوة الآخرين لذلك، ولهذا جاء تأنيسُ محمد ﷺ به وتذكيره بقصة يونس في سبيل دعوة قومه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١].

ثانيًا: وما قدَّره الله على يونس لحكمةٍ بالغة، لا يقلِّل من شأنه ولا ينبغي لأحدٍ أن يقولَ عنه أنه أفضل منه، ولذا ورد في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى**»[٢].

قال الحافظ ابن حجر: وقيل: خصَّ يونس بالذكر، لما يُخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيصٌ له، فبالغ في ذكر فضله لسدِّ هذه الذريعة[٣].

ثالثًا: قدرةُ الله عظيمة في كل شيء، وهي واضحة المعالم في قصةِ صاحب الحوت، فيونسُ يظل حيًا، وإن غيب في ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وظلمة الليل، والحصا يسبح الله في قاع البحر، والله أقدر الشجر والحجر وأنطقها على الشهادة للغلام المخبر بخبر يونس عليه السلام، والله وحده هو الذي يسكن الرياح فتظل السفنُ رواكد على ظهر البحر، أو يهيجها فتضطرب، وربما غرقت وأغرقت من

---

(١) سورة القلم: الآيات ٤٨ - ٥٠.
(٢) البخاري ٣٤١٦.
(٣) الفتح ٦/ ٤٥٢.

فيها، ولا خير فيمن يدعو ربَّه مخلصًا إذا رأى الهول في البحر، فإذا نجاه الله إلى البر إذا هو من المشركين الجاحدين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾[١].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) سورة الإسراء: الآية ٦٧ - ٦٩.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، جعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، كاشف الضر، ومزيل الغمِّ والهم، ومُنجي المؤمنين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ترك الأمة على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوة الإسلام: وما أحوج الأمة المسلمة في ظروفها الراهنة، وكروبها المتلاحقة والظلمات المحيطة بها، أن تعي الدرس في قصة صاحب الحوت، فتتجه إلى الله وحده، وترغب إليه وتدعوه دعاء المكروب، دعاء المعترف بخطئه والواثق بنصرة خالقه، واللهُ لا يخيب الرجاء، ولا يقطع حبل السماء، والله قريبٌ لمن دعاه.. وكم هو عظيمٌ دعاءُ ذي النون! وأعظم منه سماعُ النجوى واستجابة الله للنداء: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

عباد الله: كم تغيب عنا هذه الدعوة واسمُ الله الأعظم وهما مفتاح للإجابة وسبيل للنجاة.

روى الإمام أحمدُ والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**دعوة ذي النون**: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] **فإنها لا يدعو بها مسلم ربَّه في شيء قط إلا استجاب له**». ورجال

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٨٧، ٨٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

أحمد رجال الصحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي[١].

وفي رواية: «**اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوةُ يونس بن متّى**»، قيل لرسول الله ﷺ: هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «**هي ليونس بن متّى خاصة، ولجماعة المؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله** ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]»؟

هكذا جاء في هذه الرواية عن اسم الله الأعظم[٣].

وورد في رواية صحيحة: «**اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور من القرآن، في البقرة وآل عمران وطه**». رواه ابن ماجة والطبراني والحاكم وسنده صحيح[٤]. فهل يتذكر المسلمون قيمة هذه الدعوة؟ وهل يدعون بها في حال كربهم وهم موقنون بإجابة ربِّهم ونجاته ونصره لهم؟

إخوة الإيمان: ومن قصة يونس عليه السلام وقومه يتبين صدق التوجه إلى الله، والتضرُّع إليه، وبالصدق والتوبة والدعاء، يرفع الله الضراء ويكشف البلوى، وتأملوا ما خصَّ الله قوم يونس بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٥].

والمعنى: لم توجد قريةٌ آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٨٢، تفسير ابن كثير عند آية الأنبياء، «سير الذهبي»: ١/ ٩٥. وهو في «صحيح الجامع» ٣/ ١٤٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٠.

(٤) صحيح الجامع ١/ ٣٢٩.

(٥) سورة يونس: الآية ٩٨.

يونس، وما كان إيمانهم إلا تخوفًا من عذاب الله الذي أنذرهم به نبيهم يونس ﷺ فخرجوا إلى الصحراء وجأروا إلى الله بالدعاء ومعهم نساؤهم وأطفالهم ودوابهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، حتى تضرعوا إلى الله وجأروا إليه، وصدقوا في توبتهم ودعائهم، ورغت الإبل وفصلانُها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنمُ وسخالها، فلما علم الله صدقهم رفع عنهم العذاب ومتعهم إلى حين[(١)].

أيها المسلمون: وفي قصة يونس من العبر: عِظَم جريمة الكذب، وقد كانت في الأمم الغابرة جريمة كبرى يستحق مرتكبها القتل.

كما أنّ في القصة أن مُلك الله يؤتيه من يشاء، وهو المعزُّ لمن شاء، وقد رفع الله قدر الغلام من راعي غنم إلى ملكٍ يسوس الناس بالحسنى فترة من الزمن.

وفي القصة: أن عظم الجزاء مع عظم البلاء، ويبتلي اللهُ عباده على قدر إيمانهم، والأنبياء أكثرُ الناس بلاءً، ومع ما وقع ليونس ﷺ من البلاء فقد كان في نجاته درسٌ له ورفعة وذكرى للمؤمنين من بعده، وصدق الله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

عباد الله: خلاصة دعوة ذي النون صدق في التوجه إلى الله، وتسبيح بحمده وحده، وطلب الغوث والنجاة منه، وإذا وصلت الأمة والأفراد هذا المستوى فسيأتيهم ما يوعدون.

أيها المؤمنون وتظل قصةُ ذي النون درسًا وموعظة لكل مغموم، ومهما اشتطّت بالمرء الدروب، أو لاحقته الهموم، أو أحاطت به الكروب، فخلاصه الوحيدُ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» لآية يونس، والأنبياء ٢/ ٧٠٠، ٣/ ٣١٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٨.

مناجاة ربِّه، والتضرُّع إليه، وسؤاله الفرج وصدق الله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾(١).

وحاجة المرءِ للتوبة والاستغفار مستمرة، وفيها خلاصٌ من الذنوب، وانتقالٌ من حالٍ إلى حال: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾(٢).

هذا على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الأمة، فمهما أطلقت الأمة من نداءات فسيظلّ النداءُ المنقذ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾(٣)، ومهما تلبست به من شعارات براقة زائفة، فيظل شعارُ التوحيد هو الشعار الحق.

كم تصيب الأمة من أزمات ولكنها لا تحسن المخرج منها، فتتوالى عليها النكبات، وتتضاعف الأزمات، وكم تملك من أسباب القوة الإلهية ولكنها -مع الأسف- تهمشها وتظل تلهث وراء السراب مستجديةً من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، وتقرأ في كتاب ربها أن الولاء الحقَّ لله ولرسوله وللمؤمنين، ثم هي تستمرئ ولاء الكافرين وتناشد المنافقين، وما لم يصح المعتقدُ، ويتوحد الاتجاه لله الحقِّ، فستظل المسيرة متخبطة، والعدوُّ غالبًا، والنصرُ بعيدًا.

ألا ويح الأمة في صدودها عن كتاب ربّها، وبعدها عن هدي أنبيائها والله يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(٤).

ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٥).

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٧.

(٢) سورة التحريم: الآية ٤.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٥) سورة يوسف: الآية ١١١.

وقصة يونس ﷺ واحدة من قصص القرآن، فهل تُقرأ للعبرة والاتعاظ أم تُهذُّ كغيرها من آي الكتاب هَذَّ الشعر..؟!

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا، اللهم علِّمنا منه ما جهلنا، وذكّرنا منه ما نسينا وانفعنا به.



موعظة واستدامة الطاعة[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسنُ عملًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أحاط بكل شيءٍ علمًا، وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا، لا يعزب عنه مثقالُ ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض، كلٌّ في كتاب مبين.

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، بعثه الله بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغ البلاغ المبين، ونصح الأمة، وجاهد في الله حتى أتاه اليقين.

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[3].

عباد الله: ما حالُ تقوى الله بعد شهر التقوى؟ وما الذي خلَّفه في نفوسنا شهر الصيام والقيام وتلاوة القرآن؟ إن العهد بشهر رمضان قريبٌ، فهل لا تزال المساجدُ تمتلئُ بالمصلين كما كانت كذلك في شهر رمضان؟ وهل استمرَّت الصلةُ بكتاب

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٢/ ١٠/ ١٤٢٠هـ.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٩.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

الله؟ أم بدأ يظهر على البعض هجرُ القرآن؟

يا من حفظتم أسماعكم وأبصاركم عن الحرام في شهر رمضان، هل يسوغ إطلاقُ العنانِ لها في شهر شوال؟

ويا من صبَّرتم أنفسكم عن تعاطي المشروبات المحرمة في شهر الصيام، هل كان ذلك حافزًا لكم على الاستمرار على مجاهدة النفس فيما بعد شهر الصيام؟

أيها المسلمون: وهنيئًا لمن أحسَّ بتقوى الصيام بعد انقضاء شهر رمضان، هنيئًا لمن أتمَّ صيام رمضان، ثم أتبعه ستًا من شوال، وهنيئًا لمن تعلق قلبُه بالمساجد بعد ملازمتها في شهر رمضان، هنيئًا لمن واصل تلاوة كتاب الله وتدبَّره بعد انقضاء شهر الصيام، وهنيئًا لمن دأبُه قيامُ الليل في سائر العام، وهنيئًا لمن لم يفترْ عن متابعةِ أصحابِ الحوائج والمساكين، فيسد حاجتهم، ويفرّج شيئًا من كروبهم، ويدخل السرور عليهم. هنيئًا لمن أورثه الصيام التقي والخشوع والإنابة لربِّ العالمين، وحالُهم كما قال الشاعر:

يمشون نحو بيوت الله إذ سمعوا (اللهُ أكبرُ) في شوقٍ وفي جذلِ
أرواحُهم خشعتْ لله في أدبٍ قلوبُهم من جلالِ اللهِ في وَجَلِ
نجواهمُ: ربَّنا جئناك طائعةً نفوسُنا، وعصينا خادعَ الأملِ
إذا سجى الليلُ قاموه وأعينُهم من خشيةِ الله مثلُ الجائد الهطلِ
همُ الرجالُ فلا يلهيهمُ لعبٌ عن الصلاة ولا أكذوبةُ الكَسلِ

يا أخا الإيمان: أين أنت من قومٍ كانوا يحرصون على السُّنن جهدَهم؟ فكيف ترى حرصَهم على الواجبات؟! وأراك ونفسي نقحم أنفسنا أحيانًا في المحرمات، وقد تتقاصر همِمُنا عن الواجبات، فضلًا عن المستحبات، ودونك هذا النموذج في المسارعة للخيرات:

أخرج ابنُ عبد البر بسند جيد -كما قال الحافظ في «الفتح»- عن أبي داود صاحب «السنن»؛ أنه كان في سفينةٍ فسمع على الشطِّ حَمْدَ عاطسٍ، فاستأجر قاربًا بدرهم حتى جاء إلى العاطس فشمّته، ثم رجع، فسُئل عن ذلك، فقال: لعله يكون مجابَ الدعوة، فلما رقدوا سمعوا قائلًا يقول في أهلِ السفينة: إن أبا داود اشترى الجنةَ من الله بدرهم.

وذكره الذهبيُّ في «سير أعلام النبلاء».

يا عبد الله: أللقوم غايةٌ غير غايتك، أم أنك لا تخافُ مما يخافون، أم أنك زاهد في الجنان والنعيم الذي يطلبون؟ أم لديك شكٌّ في الوعد الحق الذي أخبر عنه الحقُّ بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

يا ابن آدم: تأمل من أين جئت وإلى أين ستنتهي: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾[2].

يا عبد الله: أتغترُّ بالله أم تنكر خلقه.. أم تستهين بالحفظة الكاتبين؟ ألا فاعمل صالحًا واتخذ من دار المهلة زادًا لدار النُّقلة، فالفرقُ كبير في المنازل بين الأبرار والفُجّار، ودونك كتاب الله فهو لك موقظ ومذكِّر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ

---

(١) سورة يس، الآية: ٥١ - ٥٤.

(٢) سورة عبس، الآية: ١٧ - ٢٣.

تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾[١].

أيها المسلمون: ليس لعمل المسلم غايةٌ دون الموت: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[٢].

وما خلق اللهُ الناس عبثًا، بل وما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما باطلًا، لكن ذلك لحكمة عظيمة، ألا وهي تحقيقُ العبودية لله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣].

وينبغي للمسلم أن يعبد الله في كل حال؛ في حال نومه ويقظته، وفي حال قوتِهِ وضعفه، وهو في المسجد أو بيته أو مكان عمله، حين يراه الناس وحين لا يراه إلا الذي يعلم السرَّ وأخفى. ويمكن للمسلم أن يراوح بين أنواع من العبادة حتى تتعود نفسُه على العبادة، والدعوة، والإحسان. وكم تحتاج النفسُ في هذا الطريق إلى مجاهدةٍ ومكابدةٍ. لكنها مع الصدق والإخلاص تُسلم القيادَ ويقودها صاحبُها إلى ما فيه صلاحُها عاجلًا وآجلًا. ويرحم اللهُ أقوامًا جاهدوا أنفسهم حتى ذللوها للخير، ونأوا بها عن مواطنِ السوءِ والريب. لكنهم استسهلوا الصعب، ولم ينقطعوا في ثنايا الطريق وبُنياتِه الأولى، فهذا محمدُ بنُ المنكدر رحمه الله يقول:

---

(١) سورة الانفطار، الآيات: ٦ - ١٩.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

«كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت»[١]. وكان من معادن الصدق، ويجتمع إليه الصالحون، كما وصفه سفيانُ الثوري-يرحمه الله-.

وهذا «طلقُ بنُ حبيب» اشتهر بكثرة العبادة، حتى كان المتمني بالبصرة يقول ويتمنّى عبادة طلق بن حبيب[٢]. أما «مُسلم بنُ يسار» فكان إذا صلى كأنه ثوبٌ مُلقًى من خشوعه[٣]. أما «إسماعيل بنُ عبيد الأنصاري» فكان يُلقب بـ(تاجر الله)؛ لأنه جعل ثلث كسبه لله ينفقه في وجوه الخير[٤]. أما «زبيدُ بنُ الحارث اليامي» فيكفيه أن يقول عنه سعيدُ بنُ جبير رحمهما الله: لو خُيرت مَنْ ألقى الله تعالى في مسلاخه لاخترتُ زبيدًا اليامي. ومع ذلك كان الرجلُ إلى علمه وعبادته متواضعًا، وكان يخدم العجائز والأرامل، فإذا كانت الليلةُ المطيرة طاف على عجائز الحي يقول: ألكنّ في السوقِ حاجة[٥]؟

عباد الله: تلك خلالٌ وخصالٌ كريمة، وضروبٌ من المجاهدة والبر والإحسان، لم يكن أصحابُها يقصرونها على شهر رمضان، بل كانت تلك سجاياهم وهممُهم على الدوام، وما أروع الحكمة القائلة: «أيها المؤمن إن كنت أصبت في الساعات التي مضت، فاجتهد للساعات التي تتلو، وإن كنت أخطأت فكفّر، وامح ساعةً بساعة»[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠١ - ٦٠٣.

(٣) الطبقات لابن سعد ٧/ ١٨٦، الفسوي: المعرفة والتاريخ ٢/ ٨٥.

(٤) طبقات علماء أفريقية ٨٤، ٨٥، عن عبد الله الخرعان. أثر العلماء في الحياة السياسية، ص١٣٦.

(٥) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٩٧.

(٦) وحي القلم ١/ ٣٥٩، ٣٦٤.

وردد مع الشاعر قوله:

أنامُ على سهوٍ وتبكي الحمائمُ وليس لها جرمٌ ومني الجرائمُ!

كذبتُ لعمر الله لو كنتُ عاقلًا لما سبقتني بالبكاءِ الحمائمُ

وبعدُ - يا أخا الإسلام - إن من جدَّ وجد، وليس من سهر كمن رقد. والموتُ منك قيدُ شبر الشابر، وهذا دبيبُ الليالي يُسارق نفسك ساعاتِها، وإنَّ سِلَع المعالي غالياتُ الثمن، وإن الطريق مخوف والاغترار غالب، والخطر عظيم، والناقد بصير[1].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2].



(١) الرقائق ١٣٦، ١٣٧.

(٢) سورة النازعات: الآية ٤٠ - ٤١.

الخطبة الثانية:

الحمد لله جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكَّر أو أراد شكورًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله ﷺ وعلى إخوانه وآله، ورضي الله عن أصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله: اصطفاكم اللهُ من بين الأمم، وأورثكم خير الكتب، وبعث إليكم خاتم الرسل، وقسَّمكم بحسب الهمَّة والمسارعة للخيرات - أصنافًا ثلاثة، فلينظر كلٌّ منكم في نفسه من أيِّ هذه الأصناف يكون، ولا زال في الأمر مُهلةٌ، والسعيدُ من انتقل - قبل الموت - من منزلة دونية إلى منزلة عليَّة.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[1].

وإذا أردت المنافسة والانتقال من حالٍ إلى حالٍ أحسن فتأمل فرق المنازل، والفرق بين الحبور والصراخ والعويل، والنماذج تُعرض أمام ناظريك اليوم، ولديكَ فرصةٌ للاعتبار والتغيير، لكنها في يوم المعاد حسراتٌ وتبكيتٌ ما لها من سامعٍ أو مجير.

قال تعالى مستكملًا جزاءَ الدرجات وثواب العاملين من الأبرار والفجار - مبتدئًا بثواب الخيرين ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[2].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٢) سورة فاطر، الآيات: ٣٣ - ٣٥.

أما الأشرار الكفّار فقال عن مصيرهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1].

يا أخا الإيمان جدّد عزيمتك، واصدق في قصدك، وارتفع بهمَّتك.

قال العارفون: «فالكيِّسُ يقطع من المسافة بصحة العزيمةِ، وعلوِّ الهمةِ، وتجريد القصد، وصحة النيةِ مع العملِ القليل - أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغُ من ذلك مع التعب الكثير والسفرِ الشاقِ، فإن العزيمة والمحبة تُذهب المشقَّةَ وتطيب السيرَ. والتقدمُ والسبق إلى الله إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدمُ صاحبُ الهمةِ مع سكونه صاحبَ العمل الكثير بمراحل»[2].

يا أخا الإسلام وإن كنت حريصًا على تأمين مستقبلك الدنيوي بوظيفةٍ تقتات منها، أو بتجارة تكتسب عيشك وأولادك منها، فالبدار البدار بتأمين مستقبلك الأخروي بعملٍ صالح تحافظ عليه وتلقى الله به فـ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[3].

وقل لنفسك: ما سهمُك في الصلاة، ما سهمُك في تلاوة القرآن، ما سهمُك في الصِّلة والإحسان، ما سهمك في الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما سهمُك في الخوف، وما سهمك في الرجاء، ما سهمك في الصبر، وما سهمك في الشكر، ما سهمك في الذكر والدعاء والاستغفار؟

---

(١) سورة فاطر: الآيتان ٣٦، ٣٧.

(٢) الفوائد لابن القيم ١٤٠.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

كيف أنت والإخلاص، وما القدرُ الذي ظلمت به نفسك من خصال النفاق، كيف علاقتُك بخالقك عمومًا، وما نوعُ علاقتك بالمخلوقين جميعًا؟ إلى غير ذلك من خصال الخير - وما أكثرها - واعلم أنك بهذه الأعمال الخيّرة تتقربُ إلى مولاك، وتشكرُ أنعمَه عليك. وهل تعلم أن بك ثلاث مائة وستين مفصلًا.. كلُّها معينةٌ لك في الحركة والعمل؟ ولو آلمك واحدٌ منها لضاقت بك الدنيا على سعتها.

أخرج مسلم في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنه خُلق كلُّ إنسانٍ من بني آدم على ستين وثلاث مئة مفصل، فمن كبَّر الله، وحَمِد اللهَ، وهلَّل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجرًا عن طريق الناس، أو شوكةً، أو عظمًا، أو أمر بمعروفٍ أو نهى عن منكرٍ، عدد تلك الستين والثلاث مئة السُّلامى، فإنه يُمسي يومئذٍ وقد زحزح نفسَه عن النار**»[1].

زاد غيرهُ: «**أو علَّم خيرً أو تعلَّمه**»[2].

وفي رواية أخرى عند مسلم وغيره -في حديث السُّلامى-: «**ويجزي من ذلك كلِّه ركعتان يركعهما من الضحى**»[3].

ألا ما أعظم فضلَ الله، وما أيسر الطاعة - لمن وفقه ربُّه وهداه - ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[4]، وفي الصِّديق رضي الله عنه نموذج للمسارعة، فانظر في مسارعته، وانظر في عظم الجزاء له، ولمن شاكله، فقد سأل رسولُ الله ﷺ يومًا: «**من أصبح منكم اليوم صائمًا؟**» قال أبو بكر الصديق: أنا، قال: «**فمن تبع منكم اليومَ جنازةً؟**»

(١) مسلم رقم ١٠٠٧ في الزكاة.
(٢) جامع الأصول: ٩/ ٥٦١.
(٣) مسلم رقم ٧٢٠، وأبو داود.. جامع الأصول ٩/ ٤٣٦.
(٤) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن أطعم اليوم مسكينًا؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟**» قال أبو بكر: أنا، قال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمعنَ في رجلٍ إلا دخلَ الجنةَ**»(١).

هل يصعب عليك عملُ هذه الأعمال الأربعة مجتمعةً في يوم، وهل تحاول ممارستها مجتمعةً - ولو حينًا - مبتغيًا بذلك عظيم الأجر؟

وهل يشقُّ عليك ممارسةُ الذِّكر؟ وهو من أسهل العبادات وأعظمها أجرًا، وما أعظم ركعتين تركعهما من الضحى ويكفيانك شكر المفاصل كلّها!

يا أخا الإيمان.. وإذا أقدرك اللهُ على شيءٍ من هذا فاشكره أولًا إذْ هداكَ ووفقك ثم اسأله القبول، فإنما يتقبل الله من المتقين، وإياك أن تَمُنَّ على الله بطاعتك، فقد قيل لمن قبلك: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢)، واسأل ربك الثبات حتى الممات، فقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف شاء، ومن دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾(٣).

ومن الدعاء المأثور «اللهم إني أسألُكَ فِعْل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنةً فاقبضنا إليك غير مفتونين»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» ١٠٢٨، في الزكاة، وفي فضائل الصحابة.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨.

(٤) (جامع الأصول ٩/٥٤٨).

وقفات للصائمين والشيشان[١]

الخطبة الأولى:

الحمد لله ربِّ العالمين، أهلَّ علينا هلال رمضان بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، منَّ على عباده بمواسم الخيرات ليجزل لهم الهبات، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه أفضلُ من أفطر وصام، وصلى بالليل والناسُ نيام، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

عباد الله: وحلَّ الضيف الكريمُ في ربوع المسلمين يحمل صحائف بيضاء مشرقةً، يمكن لكل مسلم ومسلمة أن يكتب فيها ما شاء، والبذرُ محفوظ، والسعيُ مشكور، وربُّنا تبارك وتعالى يقول: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[٤].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢/٩/١٤٢٠هـ.

(٢) سورة الحج، الآيتان ١، ٢.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

وهنا وقفات للصائمين والصائمات أقفُ بها مذكرًا، والذكرى تنفعُ المؤمنين.

الوقفة الأولى: وأكادُ أقرأ الفرحة في وجوهكم - معاشر المسلمين - بدخول شهر الصيام والقيام، وكم في الصيام والقيام من فضائل ومغانم، وكم يُرجى للمسلم والمسلمة من عظيم الأجر ومغفرة الذنوب إن هو صلى وصام، وتصدق وصبر، وخشع وقنت، وحفظ فرجه، وذكر ربَّه! والبُشرى تُزف إليكم وأنتم بعدُ في الدنيا: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

الوقفة الثانية: أعقل صيامك - يا أخا الإيمان - عن اللغو والرفث وقول الزور، ولتصم منك الجوارحُ عمَّا حرم الله، وما أروع الصوم تحيي به القلوب، وتزكو به النفوس، يُهذِّب الأخلاق، وينضبط له السلوك، وأخيرًا يورث التقوى، وهي الحكمةُ الربانية للصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

ترى - يا أخا الإيمان - أللهِ حاجة أن تدع طعامك وشرابك أو تُضمِئ نهارك وتُسهر ليلك في طاعة الله. إلا ليبلغك جنته ويفيض عليك من عطائه ورحماته؟ فكن لصومك حافظًا، ولجوارحك مؤدبًا.

الوقفة الثالثة: كم نرثي لأنفسنا أو لغيرنا من المسلمين حين نرى الصوم لم يحرك فيهم ساكنًا، ولم يُحدث فينا تغيرًا إلا الأحسن! فتلك مجموعةٌ من الصائمين

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

جلست بعضها إلى بعضٍ لتأكل في لحوم الناس وتنتهك أعراضهم بالغيبة والنميمة - ومجموعةٌ أخرى حبست نفسها على مسلسلات هابطة، أو فتحت آذانها لسماع أصوات غنائية منكرة، وتلك مجموعة حين تنفس الصبحُ قطعت هي أنفاسها واستكانت للنوم، لا يوقظها تكبيرُ المآذن، ولا يبعثها من مرقدها النداءُ الواجبُ للصلاة، حتى إذا قارب الغروب وحان الإفطار - بدأت تستجمع قواها، لمواصلة السهر ليلًا لا في المحاريب وأماكن العبادة وإنما في اجتماعات الشِّللِ، وحيث توجد المسلسلاتُ والقنوات وتضاع الأوقات. أيُّ صومٍ هذا، وأيُّ مفهوم للعبادة في رمضان هذا المفهوم، تُضاع فيه الصلوات، وتُهدر الأوقات، وترتكب المحرمات؟!

الوقفة الرابعة: وهناك وقتان ثمينان، وفرصتان لا تعوضان للصائمين والصائمات.. وقد يغفلُ البعضُ عنهما منشغلًا بغيرهما، أو ناسيًا فضلهما واختصاصهما؛ إنهما وقت السَّحر، ووقت الإفطار.. فرصتان كبيرتان للاستغفار والدعاء.

أما علمت أيها الصائمُ أنك حين تستيقظُ للسحور توافق ساعةَ استجابة يقول فيها الغني الكريم: «**هل من سائل فأعطيه، هل من داعٍ فأستجيب له، هل من مستغفرٍ فأغفر له؟**» وأين أنت في ساعات الأسحار من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[1].

هل يكون همُّك حين تقوم نوع السحور -مع ما في السحور من بركة وتحقيق للسنة- أم تتذكر مع ذلك قيمة الوقت؟.. فتخلصُ في الدعاء، وتخصُّ هذا الوقت بالاستغفار.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧.

أما حين الغروب - حين يحين الإفطار.. فثمّة دعاءٌ ودعوةٌ للصائم لا تُرَدُّ عند فطره.

فانظر في قيمة الدعاء والاستغفار، وانظر ماذا أنت داعٍ، واعلم أن فضل الله واسعٌ، وأنك تطلب من غني كريم، فلا تنس غيرك من المسلمين في الدعاء، بل ولا تنسَ الأموات من الدعاء بعد أن تخصَّ نفسك ووالديك وأهلك وأولادك.

الوقفة الخامسة: وأهلونا وأولادنا أمانةٌ في أعناقنا، واسأل نفسك - أيها الصائم - ماذا صنعت لأهلك وأولادك في رمضان.. كيف حالُهم مع الصيام والقيام وتلاوة القرآن، وأين يقضون أوقاتهم.. وفيم يقضونها؟

إن الهداية بيد الله.. لكن فعل الأسباب مطلبٌ شرعي، وقد كلفنا الله بوقايتهم من النار. وهنا اسمحوا لي أن أعرض مذكرًا ومنبهًا لبعض الحالات التي يُرجى برؤها، ومن الضروري التنبُّه لها وعلاجُها.

فهل يشهد أبناؤك وبناتُك الصلاة مع المسلمين، أم يصلون وهم في فرشهم نائمون؟!

وحين يستيقظون، ماذا يعملون ويشاهدون ويسمعون؟ هذا السيلُ الجرارُ من النساءِ المتسوقات ليلًا ونهارًا ما هو نصيبك منهن.. وهل يليق أن تبقى في محرابك خاشعًا وبناتُك يفتنَّ الرجال.. أو أبناؤك يؤذون المسلمين والمسلمات بالمعاكسات تارة، وبالأصوات المزعجة للمصلين أخرى، وبالسهر على الخنا والفجور تارةً ثالثة، إنها مشاهد تتكرر في كلّ رمضان، فمن المسئول عنها؟

وثمة ظاهرة تستحق الاهتمام والتنبيه؛ إنها ضياعُ الأبناء أو البنات حين السفر إلى مكة أو غيرها.. وكم هو مؤلمٌ أن تسمع أخبارًا لا تسر بجوار بيت الله المحرم، ذلك بسبب الإهمال أو ما يُسمى بالثقة، والواقعُ أنه ضعفٌ في الرقابة،

وتهاون في المسؤولية. . نعم إن العمرة في رمضان تعدل حجة. ولكن اللبيب من يحافظ على المكاسب دون خسارة، ويعبد ربَّه دون أن تكون عبادته سببًا للفتنة. . أجل إن رجالات الهيئة يشكون من إهمال عددٍ من الآباء لبناتهم، ويتحدثون بلغة الأرقام عن مئات من حالات الخلوة مع رجال أجانب. . وما ظنك برجلٍ وامرأةٍ تحققت الخلوة بينهما؟ . . فكيف إذا كانوا جميعًا في مرحلة الفتوة والشباب؟! إنها تحذيرات متكررة، ونداءات محذرة يطلقها الغيورون من رجالات الهيئة. . ونحن نبلغها لكم، وكم هي كلمةٌ معبرة قالها أحدُ أصحاب الفضيلة العلماء يصف بها حال هؤلاء الذين يذهبون بصحبة أولادهم أو بدونهم، قال: صنفان مأجوران، وصنفان مأزوران، أما المأجوران: فهما من سافر وحافظ على من معه، أو بقي ولم يسافر وحافظ على أهل بيته في محله.

وأما الصنفان المأزوران: فأحدُهما من سافر وأهمل أهله وهم مسافرون معه. . أو منعهم من السفر معه، لكنه أهملهم في محلهم ولم يدر ما هم صانعون. . تلك حالاتٌ ومسؤولياتٌ تستدعي الرعاية والتنبه والاهتمام. . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(١).



(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله قال في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[١].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، حكم أنّ بذكره تطمئن القلوب، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله دلَّ أمته على كل خير، وحذرهم من كل شر.. اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين.

الوقفة السادسة: وقفة محاسبة مع النفس، فرمضان في أيامه الأولى، فهلا تعهدت نفسك - أيها الصائم - بجملة من أعمال البر، وقرب الطاعات، من تلاوة للقرآن، وإحسان للفقراء، ودعوة بالحسنى، وذكر لله واستغفار واستجماع وإخلاص في الدعاء، وقيام ليل، وصيام نهار على الوجه الأكمل، وتبكير للصلوات وخشوع فيها.. إلى غير ذلك من أنواع الطاعات التي تحاسب نفسك على الإقلال منها أو الإكثار في نهاية الشهر.

وتجري العوائدُ أن من يحسبون للمستقبل بدقةٍ، يحسنون العمل في اللحظات الحاضرة، والموفّق من وفّقه الله، وكلُّ نفس بما كسبت رهينة.

الوقفة السابعة: بين يسر الإسلام وعدم التهاون في ترك الصيام، فمن أرهقه جوعٌ مفرط، أو عطش شديدٌ، فخاف على نفسه الهلاك، أو ذهاب بعض الحواس

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٩، ٣٠.

بغلبة الظنِّ لا الوهم، أفطر وقضى، وليست امتحانات الطلاب عذرًا يبيح الفطر في رمضان[١].

الوقفة الثامنة: وهذا أوان الخلاص من كثير من الذنوب والخطايا والعوائد السيئة والبلايا.. فأيام رمضان بالصيام «والصوم جُنّة»، ولياليه بالقيام ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٢]، مع ما فيه من قبول الدعاء.. كل ذلك فرصةٌ للمبتلى ليعود إلى ربِّه تائبًا خاشعًا نادمًا. إليك -أيها المتهاون بالصلاة- وإليك، أيها المفتون بالدخان أو المخدرات أو المسكرات، أو بألحان الغناء.. وإليك أيها المفتونُ بالنظر إلى النساء، أو أكل الربا، أو الغش في البيع والشراء.. إليكم وإلى غيركم ممن فُتن وتعلق قلبه بمعصية.. إليكم جميعًا يوجه النداء.. والباب للتوبة يُفتح على مصراعيه في شهر الرحمة والمغفرة والعتق من النار، وأنت لا تدري أتدرك رمضان القادم.. أم تكونُ في عداد الموتى؟ فبادر بالتوبة قبل ساعة الندم والحسرة.

الوقفة التاسعة: وهذا -كذلك- أوان الخلاص من شح النفس، وبُخلها، وشهر رمضان شهرُ النفقة والإحسان، والله تعالى يدعوكم في كل حين للنفقة ويقول: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[٣].

أيها المنفق والمتصدق: احمد الله أن جعل لك يدًا تعطي لا تأخذ، واليدُ العليا

(١) المنجد: مختصر سبعين مسألة في الصيام ٢٧.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٣) سورة محمد، الآية: ٣٨.

خيرٌ من اليد السفلى، وأعلم أن صنائع المعروف في الدنيا تقي مصارع السوء، والصدقة تطفئ غضب الرب، وأهلُ المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة - كذا صح عن المصطفى ﷺ(١).

وإذا كانت الصدقةُ يُضاعف الله أجرها أضعافًا مضاعفة، فضلًا من الله ومنّة في كل حين، فالصدقةُ في رمضان لها مزيتها وفضلها لا سيما وأهلُ الحاجات يتطلعون إلى هذا الشهر الكريم لمزيد مواساتهم وتخفيف آلامهم، وقضاء ديونهم، فكونوا عند حسن ظن الفقراء بكم واستجيبوا لربكم، واعلموا أن المال مالُ الله، وهو عاريةٌ عندك أيها المسلم، وأنت ممتحن فيما أنت صانع فيه، واعتبر بما قال الأول:

وما المرءُ إلا مضمراتٌ من التقى ... وما المال إلا عاريات ودائعُ

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تُحنى عليها الأصابعُ

وكن على ثقة من وعد الله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(٢).

ووعد رسوله ﷺ ودعائه: «اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، وأعطِ ممسكًا تلفًا».

أيها المسلمون: وخصوا المجاهدين الصادقين من المسلمين بشيء من صدقاتكم، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٣)، قولهُ: «الجهادُ والحج يُضعَّف

(١) صحيح الجامع الصغير ٣/ ٢٤.
(٢) سورة سبأ: الآية: ٣٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

الدرهمُ فيهما إلى سبع مئة ضعفٍ».

وعن مكحول: يعني من الإنفاق في الجهاد، وإن كان ورد أن الأجر أعمُّ من ذلك إذ يشمل كلَّ إنفاقٍ في طاعة الله[١].

الوقفة العاشرة: ولا يعني تأخيرُها التقليل من شأنها - لكنها إنما وصلت إليَّ مجموعةٌ من أخبارها متأخرة[٢]، إنها وحشية الروس، وصمودُ الشيشان، وقبل يومين تقريبًا - نقلت جريدة الرياض تصريحًا لأحد المسئولين في الشيشان أفاد فيه أن روسيا تجرأت وضربت (قروزني) بالأسلحة الكيماوية، وهذه الأسلحة المحرمة - دوليًا - تحدث آثارًا في الجسم مؤلمة قبل أن تنتهي به إلى الموت، وأغلب المتضررين منها النساءُ والشيوخ والأطفال، الذين لا يستطيعون الفرار والخلاص منها، وإلى الآن أحصي من عدد الوفيات منها ثلاثون حالة - والشيشان بصدد مزيد جمع معلومات لتقديمها للعالم!

وبلغت حدة الروس - كما نقلت وكالات الأنباء، ومنها (رويتز) درجة استنكر فيها العالم الغربي أفعالهم - وإن كان حليفًا لروسيا - فالاتحادُ الأوروبي قال بأنه سوف يوقف التعاون مع روسيا إذا هي استمرت في أعمالها البربرية في الشيشان، والحكومات الغربية تهدد باتخاذ مواقف سياسيةٍ واقتصادية ضد روسيا لارتكابها أعمالًا شنيعةً، وللعنف الشديد المستخدم ضد الشيشانين، وذلك على أثر سيطرة الروس على (شالي) و(عروس مارتان) والأولى بعد عشرين كيلًا من قروزني العاصمة - ولهذه التطورات أصرّت بريطانيا أن تكون قضية الشيشان في أعلى قائمة الموضوعات المبحوثة في مؤتمر الدول الصناعية الثمان، والذي سيعقد قريبًا في

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٧.
(٢) من أخبار الخميس ١/ ٩/ ١٤٢٠هـ.

(برلين)، وكان يُفترض فيه تقديمُ قروض لروسيا! ولا تدري ممَّ العجب؛ أمن تقديم القروض، أم من الاستنكار؟! ولا ندري ما النتائج أتكون إيجابية.. أم هي لذرِّ الرماد في العيون؟ وبكل حال فالأخبارُ المأسوية هناك بوضع اللاجئين والمشردين تحكي شناعة وإجرام الروس ومن وراءهم، وتشي بضعف الصلة والانتصار للمظلومين من قبل المسلمين لإخوانهم.. وأين الاجتماعات والقراراتُ الحازمةُ لإيقاف صلف الروس من قبل الدول الإسلامية؟ ولكَ أن تتصور (أُمًّا) تسافر هائمة على وجهها بين قمم الثلوج وقلة الطعام، وأزيز الطائرات، ثم هي بعد ذلك تحمل معها ستة أطفال! وأبشع من ذلك أن تتصور فتاة عذراء مسلمة يهتك الروس عرضها، ثم إذا انتهوا منها أنهوا حياتها. ولك أن تتصور أطفالًا يهجرون ويطعمون النصرانية أو اليهودية أو غيرها من المعتقدات الفاسدة، مع رضعات اللبن أو كسرة الخبز. «وا إسلاماه» لم تلامس نخوة المسلمين كما ينبغي، وعسى الله أن يجعل لهؤلاء المسلمين فرجًا من عنده، وأن يكون في شدة هذه الضربات ما يوقظ هِمَمَ المسلمين، فيهبُّوا لنصرة إخوانهم، والقوات الروسية تقول إنها سوف تنتهي من قصة الشيشان قبل نهاية ديسمبر الحالي، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾[1].



(١) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

رعاية المُسنِّ في الإسلام[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

أيها المسلمون: من طبائع الأشياء أن الإنسان في هذه الحياة يمر بمرحلة الضعف، ثم القوة، ثم الضعف المؤدي إلى النهاية: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[٢].

ومن عظمة الإسلام اهتمامُه بالإنسان في مراحله كلها، وفي كلِّ مرحلةٍ لون من الاهتمام وأسلوب من الرعاية.

وحديث اليوم عن الإنسان في مرحلته الأخيرة (الضعف والشيبة)؛ كيف قدَّرها الإسلام؟ وما ألوانُ رعايته لها؟ وكيف ينبغي أن يُعامل المسنّ؟

إنها مرحلة صعبةٌ وعصيبة، ولا عجب أن يتعوذ الرسولُ ﷺ منها حين يقول: «**وأعوذ بك أن أردَّ إلى أرذلِ العُمر**»[٣].

كيف لا وبعضُ من يُردُّ إلى أرذل العمر لا يعلم من بعد علم شيئًا، وقد يعيش فترةً من عمره في حكم الأموات، وإن كان في عداد الأحياء.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١١/٨/١٤٢٠هـ.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٤.

(٣) صحيح البخاري ٣/١٠٣٩.

ولا أدق من وصف المسنِّ لنفسه، وقد سأل الحجاجُ رجلًا من بني ليثٍ قد بلغ سنًا كبيرةً، قال: كيف طُعْمُك؟ قال: إذا أكلتُ ثَقُلتُ، وإذا تركت ضَعُفتُ، قال: كيف نكاحُك؟ قال: إذا بُذل لي عجزت، وإذا مُنعت شرهت، قال: كيف نومُك؟ قال: أنام في المجمع، وأسهر في المضجع، قال: كيف قيامُك وقعودُك؟ قال: إذا أردت الأرض تباعدت منّي، وإذا أردت القيام لزمتني، قال: كيف مشيتُك؟ قال: تعقلني الشعرة، وأعثر بالبعرة. هذه صفة أرذلِ العمر(١).

وأرذل العمر أخسُّه وأدونُه وآخره -كما ذكر المفسرون- قالوا: وإنما خصّه اللهُ بالرذيلة؛ لأنه حالةٌ لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد(٢).

وهنا لفتةٌ تستحق الانتباه، فقد قيل: إن الإيمان وعمل الصالحات في الصغر قد يمنع الردَّ إلى أرذل العمر في الكبر.

قال القرطبي ﷺ: إن هذا لا يكون للمؤمن -يعني الخرف والرد إلى أرذل العمر- لأن المؤمن لا يُنزع عنه علمه(٣).

وقال الشنقيطي ﷺ: إن العلماء العاملين لا ينالهم هذا الخرفُ وضياعُ العلمِ والعقل من شدة الكبر، ويستروح لهذا المعنى من بعض التفسيرات في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(٤). إلى قوله: وقد تواتر عند العامة والخاصة أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته لا يُصاب بالخرف ولا بالهذيان(٥).

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ج٢/ ٢٢٧، ٢٣٢.
(٢) تفسير ابن كثير، والشوكاني، والشنقيطي.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٤١.
(٤) سورة التين، الآيتان: ٥، ٦.
(٥) أضواء البيان ٩/ ٣٣٤.

ونقل السيوطي عن عكرمة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنه قال: ولا ينزلُ تلك المنزلة أحدٌ قرأ القرآن -أي حفظه[١].

وعلى كل حال فالضعف من سيما هذه المرحلة، والإنسانُ في هذا السِّن أحوجُ ما يكون للرعاية والمساعدة، ومن هنا جاءت نصوصُ الشريعة بالاهتمام بالكبير وتقديره بدءًا بالوالدين إحسانًا، وشمولًا لكبار السن رجالًا ونساءً، وعطفًا على الضعفةِ منهم والمحتاجين للمساعدة تقديرًا وإجلالًا.

إنها العظمةُ في تعاليم الإسلام، لا ترمي الكبار في المزابل، ولا تنساهم وتودعهم المستشفيات أو دور الرعاية دون تقدير لمشاعرهم، بل هي الرعايةُ والحنوُّ والعطفُ تقديرًا لماضيهم، ووفاءً لجهودهم وحقوقهم.

إن رعاية الوالدين والإحسان إليهما جاءت بها شريعةُ الإسلام والشرائعُ السماوية قبلها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٢].

وحرم الإسلام عقوقهما -بأي شكل من الأشكال- وإن قلَّ في عين العاق، كالتأففِ مثلًا، وقد نُقِل عن الحسن بن علي قوله: لو علم اللهُ شيئًا من العقوق أدنى من أفٍّ لحرَّمه[٣].

وإذا كان الأبوان في أعلى قائمة المسنين رعاية وتقديرًا واحترامًا، فقد شملت رعاية الإسلام للمسنين عمومًا، واتخذت هذه الرعاية أشكالًا وأساليب كثيرة،

(١) الدرّ المنثور: ٨/٥٥٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٣) الدرّ المنثور ٥/٢٥٨.

ومنها: البدءُ بالتحية للكبار، فقد أمر ﷺ أن يُسلم الصغيرُ على الكبير، ومن الرعاية والتقدير: ألا يتكلم الصغير في أمرٍ دون الكبير، وقد وجه النبيُ ﷺ بهذا حين قال لصغير تحدث عنده: «**كبر الكُبر**» يعني: لِيَلي الحديث الأكبرُ[(١)].

وكذلك يُقدم الأكابرُ في الشرب، فقد كان ﷺ إذا سُقي قال: «**ابدأ بالكبراء**»، أو قال: «**بالأكابر**»[(٢)].

وبلغت عناية الإسلام بالمسنين استثناءهم من القتل وإن كان ذووهم محاربين، فقد كان من وصيته لقواده: «**ولا تقتلوا وليدًا ولا شيخًا كبيرًا**»[(٣)].

وفي أحكام الإسلام تيسيرٌ ومراعاة لأحوال المسنين، فالصلاة تخفف لأجلهم: «**إذا صلى أحدُكم للناسِ فليخفِّفْ، فإنَّ منهم الضعيفَ والسقيمَ والكبيرَ..**» الحديث متفق عليه.

وفي الصيام لهم رخصة في الإفطار حين عجزِهم، ويكفيهم أن يُطعِموا عن كل يوم مسكينًا.

وفي الحجِّ يُرخص لهم في إنابة من يحجُّ عنهم، وفي حديث المرأة الخثعمية وإقرار الرسول ﷺ لها ما يشهد لذلك[(٤)].

والحجابُ المشروع يؤذن للمرأة المسنة في تركه، وإن أُمرت به صغيرة: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾[(٥)].

---

(١) رواه البخاري في «الأدب»، ومسلم.

(٢) رواه أبو يعلى، وهو في «السلسلة الصحيحة» ٤/ ٣٨١.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني: ٢/ ٢٥٥.

(٤) متفق عليه.

(٥) سورة النور، الآية: ٦٠.

عباد الله: وفوق ما مضى، فقد جاء في جملة آداب الإسلام توقيرُ الشيخِ الكبير، والرحمةُ بالمرأة المسنة، فذلك من إجلالِ الله.

أخرج البخاري في الأدب المفرد: «**إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم**»(١).

بل جاء النهي والوعيد عن عدم توقير الكبار، ففي «سنن الترمذي» و«الأدب المفرد» للبخاري: «**ليس منَّا مَنْ لم يرحمْ صغيرَنا، ويوقِّرْ كبيرَنا**»(٢).

ومن النصوص النظرية إلى الواقع العملي في المجتمع الإسلامي نرى عجبًا في تقدير الكبار واحترامهم وقضاء حوائجهم، وحين كان رسولُ الله ﷺ القدوة في هذا الأدب تسارع المسلمون للعناية بالكبار، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون.

وفي «تاريخ عمر» لابن الجوزي أن عمر رضي الله عنه خرج في سواد الليل، فرآه طلحةُ، فذهب عمرُ، فدخل بيتًا ثم دخل بيتًا آخر، فلما أصبح طلحةُ ذهب إلى ذلك البيت، فإذا عجوزٌ عمياءُ مقعدة، فقال لها: ما بالُ هذا الرجل الذي يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يُصلحني ويُخرج عني الأذى(٣).

وفي معارك المسلمين تمثل قادتُهم الأدب والرحمة بالكبار، وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يُدرج في صلحه لأهل الحيرة رعاية المسن، وقد جاء في صلحه معهم: «**وجعلتُ لهم أيُّما شيخ ضَعُفَ عن العمل، أو أصابته آفةٌ من الآفات، أو كان غنيًا فافتقر، وصار أهلُ دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيلَ من بيت مال**

(١) وهو في «صحيح الأدب المفرد».

(٢) عارضة الأحوذي: ٨/ ١٠٧، والأدب المفرد: ١٣٠.

(٣) ابن الجوزي: «تاريخ عمر» ص٨٦.

المسلمين»[١]، وقد قرَّر أبو يوسف في كتابه «الخراج» أن الجزية لا تؤخذ من الشيخ الكبير الذي لا يستطيع العمل، ولا شيء له[٢]. الله

أكبر.. هكذا شمل أسلافُنا رعاية المسنّ في حال السلم والحرب، ومع المسلمين وغير المسلمين، ومع القريب والبعيد، والرجال والنساء - فهل ندرك عظمة هذا الأدب، وهل نتمثل هذه الرعاية وتلك الآداب للمسنين؟

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[٣].



(١) أبو يوسف «الخراج» ص٢٩٠.
(٢) الخراج ص٢٥٤.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، أمر بالإحسان وأخبر أنه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمر بالرحمة وهو أرحم الراحمين، ورحمتُه وسعت كلَّ شيء.

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله أخبر أن «الراحمين يرحمهم الرحمن»، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

معاشر المسلمين عامة، ومعشر الشباب خاصة، كيف تتعاملون مع المسنِّ، وكيف تنظرون لكبار السنِّ؟

إن دينكم أمركم بالرعاية والإحسان، وعلمكم الأدب مع الكبار، وما أروع المجتمع يرحم الكبيرُ فيه الصغيرَ! ويوقر الصغيرُ الكبيرَ! وما أجمل الشاب يأخذ بناصية الكبير يُقبله، ويأخذ بيد الضعيف والأعمى يوجِّه مسيرته ويجنبه المزالق وآفات الطريق، وكم هو أدبٌ جميل أن يستمع الصغارُ أثناء وجود الكبار وحديثهم، يوقرونهم في الحديث ويستمعون لآرائهم ويحفظون رصيد تجاربهم في الحياة، وكم هو أدبٌ رفيع أن يُنادي الكبيرُ بأحبِّ الأسماء إليه، وأن يكنى بدل أن يسمى، وأن لا يُتقدّم قبله في الأكل والشرب والمشي.. وأجملُ من ذلك أن تُعفى زلتُه، وأن يتجاوز عن خطئه، وأن لا يؤاخذ ببعض تصرفاته.. فَللِكِبَرِ دوره، وللكبارِ نفسياتُهم وطبائعهم، وتقدير هذا وذاك من آداب الإسلام، ومن جميل المكارم ومعالي الأخلاق.

يا معشر الشباب: وبتوقير الكبار ورعاية المسنين عمومًا وبأي شكل من الأشكال تصفو الحياة، وتتحقق السعادة، ويتمثل الناسُ حالةً من البرِّ والوفاء،

ويشيع الإحسان وتطمئن نفوسُ الأكابر.

وفوق ذلك فالبرُّ سلف، والإحسان محفوظ، و«من يفعل الخيرَ لا يعدم جوازيه»، وقد ورد عن أنسٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أكرمَ شابٌّ شيخًا لسِنِّه إلا قيّضَ اللهُ له من يُكرِمُه عند سِنِّه**» رواه الترمذي.

قال أحد العلماء: إن في الحديث دليلًا على إطالة عمرِ الشابّ الذي يُكرم المسنين؛ لقوله في الحديث: «**قيّض اللهُ له عند سِنّه**»(١).

وكم هي لمسةُ وفاء من ذلك الابن لأبيه الذي قال لإخوته الثلاثة حين مرض أبوهم، قال: إمّا أنْ تُمرّضوه وليس لكم من ميراثه شيء، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء، قالوا: بل مَرِّضه وليس لك من ميراثه شيء، فمرّضه حتى مات، ولم يأخذ من ماله شيئًا(٢).

أين هذا ممن يتبرّمون بإعالة آبائهم إذا طال مكثُهم عندهم، وإذا لم يستطع أحدُنا أن يتنازل عن ميراثه من أبيه في مقابل خدمته وتمريضه، فلا أقلّ من واجب الإحسان والرعاية وإن لم يتنازل عن شيء من المال.

معاشر المسلمين: ولربما دلّس الشيطان على بعض الأبناء، فأوحى لهم أن الرعاية التي تقدمها الدولة أو الجمعيات الخيرية من خلال دور رعاية المسنين، أفضلُ وأشملُ من رعاية الأبناء، وسوّغ لهم ذلك سهولة إدخالِهم في هذه الدور وظنوه بهم برًا وإحسانًا.

وقد صدرت الفتوى بعدم جواز التخلي عن الوالدين أو أحدهما بالحجة

---

(١) عارضة الأحوذي ٨/ ١٠٩، ١١٠.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» عن طاووس ١١/ ١٣٣.

السابقة. لأن ولاية الدولة ولاية عامة، وولاية الولد ولايةٌ خاصة، وهذه الولاية (الخاصة) أوجبُ وألزم من الولاية العامة[١].

وإذا شُكرت الدولةُ أو الجمعيات الخيرية على رعايتها وعنايتها بالمسنين.. فإنما أقيمت هذه الرعاية أصلًا لمسنٍّ لا عائل له لظرف أو لآخر، ولا ينبغي أن يتسابق الناسُ ويتخلصوا من مسنيهم لأدنى سبب من الأسباب.. فليس هذا جزاء الإحسان.

معاشر الشباب: ورعايتكم للكبار وتقديركم للمسنين ينبغي أن تنبع من ذوات أنفسكم، مدركين حكمةَ التشريع، ومبتغين الأجر من الله، ولا ينبغي أن يسوقكم لذلك ضغطُ المجتمع عليكم، أو مجاملةُ الآخرين من حولكم، وقد كان المسلمون فيما مضى ولا زالوا يأخذون على يد من لم يوقر الكبير. وفي «الآداب الشرعية والمنح المرعية»؛ أن إبراهيم بن سعد رأى شبابًا قد تقدموا على المشايخ، فقال لهم: ما أسوأ أدبكم! لا أحدثكُم سنة[٢]..

ويروى في ذلك عن إمام السنة أحمد ابن حنبل أنه كان من أشدّ الناس توقيرًا لمن هو أسنُّ منه من الشيوخ.

وعن ليث، قال: كنت أمشي مع طلحة بن مصرف فقال: «لو كنت أسنَّ مني بليلة ما تقدمتك»[٣].

على أن رعاية الكبار وتقدير المسنين - فوق أنها مطلبٌ شرعي وأدب إسلامي هي كذلك ذوق وجمال، وهي تعبيرٌ عن كريم الخلق وطيب النفس، ومؤشرٌ للوفاء

(١) كذا جاء في مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، العدد العاشر سنة ١٤١٢/ محرم.
(٢) رعاية المسنين في الإسلام، عبد الله السدحان ٦٧.
(٣) الحدائق في علم الحديث والزهديات، ابن الجوزي ٣/ ١٠٥.

والإحسان، وهي تنمُّ عن معدن طيب، تتخلى عن الذات في سبيل إكرام ذوي الشيبات.

أيها المسلمون: إننا مطالبون جميعًا برعاية المسنين وتقدير الشيوخ، ومراعاة أحوال ونفسيات الكبار.. فهل نستشعر ذلك في واقعنا العملي، وهل نتنافس في الإحسان.. وهل نشيع ذلك في المجتمع كلِّه عبر وسائل عدة.. بالمحاضرات والندوات والخطب، وبحديث المجالس، وبطباعة المطويات المختصرة التي تعنى بهذا الجانب، وتأليف الكتب التي تدرس الظاهرة وتؤصلها، ويمتد ذلك إلى وسائل الإعلام في برامج مسموعة ومرئية، وفي أعمدة الصحف والمجلات، وفي القنوات الفضائية فرصة لعرض هذا الجانب المضيء من حضارتنا؟ وما أجمل أن تساهم مناهجُ تعليم البنين والبنات بالعناية بهذه القضية، فينشأ ناشئُ الفتيان والفتيات مغروسًا في قلبه تقدير المسن واحترام الكبير، والإحسان للوالدين.

وكم هو جميل أن تُزود الملتقياتُ العامة، كالمدارس والمستشفيات والطرقات، بملصقات تحمل عبارات التقدير والعطف على المسن وإعطائه الأولية فيما يحتاج فيه للمساعدة، إشعارًا بقدره وتقديرًا لسنه.

عباد الله: وأخيرًا يحق لنا أن نفاخر بعظمة ديننا وشمولِ وسموِّ آدابنا، في مقابل ما يُسمى بالحضارة الغربية أو الشرقية الكافرة، وفيها - فيما نحن بصدده - سلوكياتٌ يترفع عن سلوكها الحيوانُ الذي لا يعقل، ووقع فيها الإنسانُ حين غابت عنه شريعةُ السماء، وقد جاء في إحدى صحفنا المحلية من نماذج هؤلاء: مسنٌّ يبقى متوفيًا داخل شقته لمدة أربع سنوات ولم تكتشف جثته إلا صدفة[1]. وعجوزٌ

(١) الجزيرة ٥/ ٧/ ١٤١٤.

تموت جوعًا في شقتها بسبب ابنها الذي قطع عنها الماء والكهرباء والغاز حتى اكتشف الجيران أمرها![١] وثالثة الأثافي -في هذا المجتمع البهيمي- أن هرمًا جاوز التسعين مات في دار خاصة بالمسنين، ولم يعلم بموته إلا بعد خمسة أيام[٢].



(١) الشرق الأوسط ١٤١٧/٣/١٣.

(٢) اليوم السعودية ١٤١٧/٦/٢٢هـ عن السدحان «رعاية المسنين» ص٦٠، ٦١. وهو بحث جميل في بابه وقد أفدت منه في إعداد هذه الخطبة.

النُّخَب الثقافية(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره..

أيها المسلمون: على مدار التاريخ الإسلامي يظل للعلماءِ الربانيين مكانتهم السامية ومنزلتهم الرفيعة، كيف لا والله فضلهم على غيرهم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

ورفعهم فوق مَنْ سواهم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(٣).

وأحال الأمةَ إليهم لسؤالهم والأخذ عنهم: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٤).

وجعل المصطفى ﷺ غيابهم عن الوجود سببًا للضلال والإضلال: «**إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا اتخذ الناس رؤساء جُهَّالًا، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلوا**» رواه أحمد واتفق عليه الشيخان وغيرهم.

ولكن من المقصود بهؤلاء العلماء؟ وما الفرقُ بينهم وبين حملة المصطلح

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٨/ ٢/ ١٤٢١هـ.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٤) سورة النحل، الآية: ٤٣، والأنبياء، الآية: ٧.

الجديد (المثقفون) أو (النخب الثقافية)؟ وما أثر العلماء، وما تأثير المثقفين على مسيرة الأمة المسلمة وتقدمها، أو تخلفها وتبعيتها؟

وهنا أسوق كلامًا جميلًا للإمام أحمد رحمه الله بيّن فيه مكانة العلماء وأثرهم، ومن يقولون على الله بغير علم، وكيف يخدعون الناس.

قال رحمه الله في كتابه «الرد على الزنادقة والجهمية»: الحمدُ لله الذي جعل في كل زمانِ فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله تعالى الموتى، ويُبصرون بنور الله أهلَ العمى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍّ تائه قد هَدَوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثرَ الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عِنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقةِ الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جُهَّالَ الناسِ بما يُشبِّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتنةِ المُضلين[1].

إخوة الإسلام: وحديثُ اليوم ليس عن العلماء الربانيين، بل له علاقة بالفئة التي حَذَّر منها الإمام أحمد في زمنه، وهي ظاهرة تتكرر في كل زمان، لكن بأشكالٍ مختلفةٍ، وأسماء متباينة، إنها فئاتٌ قديمةٌ تتجدد، تفتن الناس عن دينهم وتدعوهم إلى التمردِ على قيمهم، وتحاول الفصلَ بين الأمة المسلمة وتاريخها المجيد، وتنظر إلى أصالتهم على أنها نوعٌ من الجمود والرجعية والتطرف والأصولية،

---

(١) أعلام الموقعين ١/ ٩.

وأرباب هذه الفئة يُطلق عليهم أحيانًا اسم (النخب الثقافية)، وهذه النُّخب من أبرز ملامحها: أنها مشدودة إلى الفكر الخارجي -من الغرب أو الشرق- وحسب هيمنةِ هذا الفكر أو ذاك، وهي مولعة باجترار (ثقافة الاغتراب) في مختلف الأفكار والمذاهب السياسية والاقتصادية والأدبية، ونظرًا لغُربتها (الثقافية) فبينها وبين مجتمعاتها المسلمة نوعٌ من النفرة والجفوة.

ولذا فهذه الفئة كما تعيش غُربةً فكرية - هي كذلك تعيش عُزلةً شعوريةً.. إذْ لها همومها وأهدافها، وللمجتمع من حولها همومٌ وأهدافٌ تخالفها.

هذه النخب حين تُخطط للمجتمع أو تكتب عن سُبل نهضته، فإنما تتحدث بعقول غيرها، وتتحدث -حين تتحدث- كما لو كانت تتحدث عن أمة أخرى، وديار أخرى، غير أمةِ الإسلام، وديار المسلمين.

إن هذه الفئة المستغربة يمكن أن توصف بالرائد الذي كذب أهله. فقد نهل عدد منهم من معين الثقافة المستوردة، فأشربوا حبَّها، وذهب البعض منهم إلى ديار الغرب ليكون سفيرًا لأمته في نقل حضارتها الإسلامية المشرقة، والقادرة على الانقاذ لمن تَرَدَّوا في الهاوية، فإذا بهم يعودون أُجراءَ يرددون بوعي أو بغير وعي ما يريده أعداءُ الأمة، من أساتذتهم الذين باتوا يسخرون من تبعيتهم لهم، ويعترف هؤلاء الأسيادُ أنهم جعلوا من هؤلاء عبيدًا وخدمًا لنقل أفكارهم، بل أسموهم (دليل الطريق)، حيث قام هؤلاء المنهزمون بنقل الفكر الرديء والثقافة المستوردة إلى بلاد المسلمين نيابة عن هؤلاء الغزاة.. بل كفوهم مؤنة السلاح، وكانوا بديلًا عن الاستعمار المكروه للشعوب المسلمة والمكلفِ للدول المُستعمرة.

إخوة الإيمان: وأسوق لكم نموذجًا يؤكد به الغربُ سُخريته، يسخر به الغربيون من أتباعهم من أبناء المسلمين.. يقول سارتر: كُنّا نُحضر رؤساء القبائل وأولاد

الأشراف، والأثرياء والسادة من أفريقيا وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيام في: أمستردام، ولندن، والنرويج، وبلجيكا وباريس، فتتغير ملابسهم ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة.. ويتعلمون منا طريقةً جديدة في الرواح والغدو، والاستقبال والاستدبار، ويتعلمون لغتنا وأساليب رقصنا.. وكنا نُدبِّر لبعضهم أحيانًا زيجةً أوروبية، ثم نُلقنهم أسلوب الحياة على أثاث جديد، وطراز جديد من الزينة.. كما نضع في أعماق قلوبهم الرغبة في (أورُبة)، ثم نرسلهم إلى بلادهم وأي بلاد؟ بلاد كانت أبوابها مغلقةً دائمًا في وجوهنا، لم نكن نجد منفذًا إليها، كنا بالنسبة لها رجسًا ونجسًا، وخنا، كنا أعداءً يخافون منا وكأنهم همج لم يعرفوا بشرًا، لكنا بمجرد أن أرسلنا المفكرين -الذين صنعناهم- إلى بلادهم، كُنا بمجرد أن نصيح من أمستردام، أو برلين، أو بلجيكا أو باريس قائلين: (الإخاء البشري) نرى أنَّ رجعَ أصواتِنا يرتدُّ من أقاصي أفريقيا، أو فج من الشرق الأوسط، أو الأدنى، أو الأقصى، أو شمال إفريقيا. ثم يقول: إننا كنا واثقين من أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمةً واحدةً يقولونها غير ما وضعناهُ في أفواههم، ليس هذا فحسب بل إنهم سُلبوا حقَّ الكلام من مواطنيهم.

إلى أن يقول (سارتر): هذا هو دورُ المفكرِ الذي يتشكل بالشكل الأوروبي، ويلعب في الدول الإسلامية دور (دليل الطريق) للاستعمار في البلاد التي لم يكن يعرفها أو يعرف لغاتها، وهو السوس الذي عمل في الشرق من أجل تثبيت هذه المادة الثقافية والاقتصادية والأخلاقية والفلسفية والفكرية المسمّمة للاستعمار الغربي، داخل هذه الأشجار الوارفة الأصيلة، هذا هو السوسُ الذي كنا قد صنعناه وسميناه بالمفكرين.

ثم اسمع إلى هذا الغربي كيف يسخر من أذنابهم -حين يقول: كانوا عالمين

بلغاتنا، وكان قُصارى همهم ومنتهى أملهم أن يصبحوا مثلنا، في حين أنهم أشباهُنا وليسوا مثلنا، إنهم نخروا من الداخل ثقافة أهليهم وأديانهم (القومية) التي تصنع الحضارات، ومُثُلهم وأحاسيسهم وأفكارهم الجميلة وأصالتهم الأخلاقية والإنسانية، وتحت أي شعار؟ وبأي اسم؟ باسم مقاومة الخرافات أو مكافحة الرجعية، أو الوقوف ضد السلفية. انتهى

وهنا وبإزاء هذه الاعترافات من الأعداء أردد مع الكاتب المسلم[١] قوله: إنني كعربي مسلم أشعر بالخزي من مثل هذه الحقيقة، فهل يشعر بمثل ذلك نُخبُنا الفكرية، التي مارست وما زالت تمارس الدور الذي سماه (سارتر) (دليل الطريق)؟[٢]

إخوة الإيمان: إن المؤسف أن هذه النُّخب وجدت وتكاثرت في البلاد العربية والإسلامية، وقطارها يتحرك مؤثرًا في بلد، ثم يتوجه القطار بعرباته إلى بلد آخر، وفيهم القادة والأتباع، وهكذا غُربت الأمة وحصلت لها الانتكاسة إثر الانتكاسة، واكتفى الأعداء بهذه العقول المنهزمة والأفكار الغازية والرواد الكذبة عن الحروب المسلحة، واستنفاذ الجنود والمعدات الحربية.

وهذه النخب المنحرفة يتسللون لإفساد فكر الأمة عبر الكتاب المؤلف، والرواية والقصة، والمقالة الصحفية، وعبر وسائل الإعلام بقنواته المختلفة، وربما غلفوا طروحاتهم بمصطلحات التجديد والتحديث والمصلحة الوطنية، وهم إنما يخدعون الأغرار من الرجال والنساء، يرمون بالعلمنة حينًا، وبالحداثة حينًا، وقد يكون من بينهم أصحاب بدع وانحرافات في المعتقدات، وعلى المجتمع بأسره مسؤولية

(١) صاحب كتاب «دفاعٌ عن ثقافتنا».
(٢) جمال سلطان: دفاع عن ثقافتنا ص٤٣، ٤٤.

فضحهم وتحذير الأمة من شرورهم، وعلى الدول المسلمة أن تحذرهم فهم بوابات للنفوذ الأجنبي، ولو تسلل العدوّ إلى أحدِ بلادِ المسلمين لوجدت هؤلاء المنحرفين أول مصفق لهم ومرحبٍ بمقدمهم.

وإذا قيل للمنافقين في زمن النبوة: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[1]، فكيف الحالُ في زمن ضعف الأمةِ، وغلبة الأعداء؟ وكلما تأخرت الأمة في كشفهم كلما استفحل شرُّهم، ودفعت ضريبة هذا التأخر الأجيال اللاحقة.

اللهم احفظ المسلمين وبلادهم من كلِّ سوءٍ ومكروه، واجعل كيد الأعداء في نحورهم.

❀ ❀ ❀

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، يقصُّ الحق وهو خيرُ الفاصلين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نوّر قلوب عباده بالإيمان واليقين، ومن زُين له سوءُ عمله فرآه حسنًا، فإن الله يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولهُ، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر المرسلين.

إخوةَ الإسلام: وهذه (النُّخبُ الثقافية) المنهزمةُ من داخلها، يزعمون أنهم في طروحاتهم مجددون، وهم في الحقيقة مقلدون، ويزعمون التحرر، ويرمون غيرهم بالرجعية والتقليد، والواقعُ يشهدُ على تبعيتهم لغيرهم، وإذا اعتزّ المسلم بتبعيته للنص الشرعي وبالاقتداء بالنبي العربي محمدٍ ﷺ، فأولئك معروفة هوياتهم، ولمن يتبعون. إنهم معوقون للأمة المسلمة عن التقدم، فهم مشغِلون لها بمعارك جانبية تهدم أكثر مما تبني، وتفرق ولا تجمع، وتشكك ولا تبعث اليقين، وأين حضور هذه النخب في تعرية الاستعمار وأهدافه الحديثة وآثاره المستقبلية على الأمة، وأين مشاريعُ هذه النخب في سبيل وعي الأمة واستعادة مكانتها وتحرير شبابها من الوهم والوهن، وانتشالهم من الشهوات التي تقعد بهم عن مراقي العز والشرف؟ أين هم من نُصرة المظلومين والمشردين من أبناء العالمِ الإسلامي على أيدي المستعمرين الجدد؟ أين هم من ردّ الهجمات الإعلامية على الإسلام وأبناء المسلمين من أصحاب الملل الكافرة والنحل المحرفة؟

إن المتأمل في معظم طروحات هذه (النُّخب) المنهزمة يراها تتركز على الشهوات أو إثارة الشبهات، وتتخذ من المرأة وسيلة لإفساد المجتمع وتميعه، فتراهم يسخرون من الحجاب حينًا، ويدعون للاختلاط حينًا، ويرون في المرأة الغربية الكافرة نموذجًا يحتذى.

لا يكادون يذكرون الله في كتاباتهم إلا قليلًا ، ويستحي بعضُهم من الاستشهاد بآية قرآنية أو حديث نبوي، ويفخر إذ يُدبج كلامه مستشهدًا بكلام فلانٍ أو فلان -من غير أبناءِ الملة- وكأننا أمة لا تاريخ لها ولا رجال ولا رصيد من التجارب يستحق أن يُنشر ويُشهر، وبه يفخر هؤلاء النخب أو بعضُهم على الأقل. اختلط عليهم ما ينبغي نقله والاستفادة منه من حضارات وتجارب الآخرين المادية مع الشعور بالعزة والاستعلاء، وما ينبغي طرحُه ونقده من قيمٍ فاسدة وثقافاتٍ مستوردة، نجد في قيمنا وثقافتنا الإسلامية غنًى عنه.

وليت هؤلاء يستفيدون من تجارب السابقين لهم ممن تورط في جلب الثقافة الغربية إلى أبناء أمته، فعاد بعد حين يندب حظَّه ويعلن لبني قومه فشل تجربته، بل يحذر ويفرق بين ما ينبغي أن ينقل أو يهمل. ويقول (هيكل) في تقييم تجربتهِ: وقد حاولتُ أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية، وحياته الروحية لنتخذهما جميعًا هدى ونبراسًا، ولكننِي أدركتُ بعد لأي أنني أضعُ البذر في غير منبته، فإذا الأرضُ تهضمه ثم لا تتمخضُ عنه ولا تبعثُ الحياة فيه، وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد، وفي عهد الفراعين موئلًا لوحي هذا العصر يُنشئ فيه نشأةً جديدةً، فإذا الزمنُ، وإذا الركودُ العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرًا لنهضةٍ جديدة، وروأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذرُ الذي يُنبت ويُثمر[(١)].

أيها المسلمون: أما الرسالةُ التي ينبغي أن نحملها (النُّخب المثقفة) بل عمومُ المثقفين -من الجنسين- فهي استشعارُ أمانة الكلمة ومسؤولية البلاغ للناس بصدقٍ ونزاهة، فالرائدُ الجادُّ لا يكذب أهله -ولا بدَّ أن يُدرك المثقفون وسواهم أن الثقافة

(١) في منزل الوحي ص٢٤، ٢٥.

الإسلامية ليست مجرد معارف ومعلوماتٍ مجردة، وليست ثقافة ترفيه وتسلية، وإنما هي قيمٌ سلوكية تُمارس في الحياة، وأفكارٌ وتصورات تحدد هدف المسلم في الوجود ودوره المنشود.

وعلى المثقف المسلم أن يعتزَّ بهذه الثقافة، ولا يسوغُ له بحال أن يكون علماني التفكير، غربي أو شرقي الهوى. وإذا كان في الأديان المحرفة ما يستحي أتباعُها من ذكره، أو لا يؤهل للإتّكاء عليه، فليس في الإسلام الدين الحق من ذلك شيء، فنحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله.

وعلى المثقفين المعتزين بالإسلام، والمدركين لمعنى الثقافة الإسلامية أن يقوموا بنقلها وتعميقها في المجتمع بأنماطها السلوكية وتصوراتها الصحيحة، حتى ولو كان المجتمعُ الذي تُنقل له مجتمعًا أميًا، فليست الأمة عيبًا إذا تمثل المجتمعُ أخلاق الإسلام، وليس بخفي أن مجتمع خير القرون كان أميًا، ولكن هذه الأميّة لم تقعد بهم عن حمل رسالة السماء وتبليغها للعالمين: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١).

أيها المثقفون: وفي سبيل صراع الحضارات على المثقف المسلم أن يُحذِّر من آثار الثقافات الوافدة، وأن يقوم بدوره في كشف صراع الحضارة الغربية للإسلام، ففي ذلك تحصينٌ لأبناءِ الأمةِ من آثارِها المدمرة، وفيه حمايةٌ للأمة من الذوبان في حضارات وثقافات الآخرين. ونحن اليوم في مرحلة صراع قيمي وأخلاقي وغزو فكري رهيب، والبقاءُ للأصلح والأقوى.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

وينبغي أن يعلم أن الصراع مع أي ثقافةٍ وافدةٍ منحرفةٍ لا يعني الصراع مع الإنسان، إذ الصراع مع مظلة القيم وليس مع الإنسان ذاته، بل قد يكون هذا الصراع سببًا لحياة أفراد أو مجتمعاتٍ كانت في عداد الموتى.

إن صراعنا -نحن معاشر المسلمين- مع الآخرين ليس الهدف منه فرض الجبروت وإذلال الشعوب، وإنما يهدف إلى تعبيد الناس، والكون لله ربِّ العالمين، وتخليصهم من العبودية لبعضهم، وحمايتهم من التشرد والضياع.

عباد الله: وهنا كلمةُ حقٍ وإنصاف تقال -في الحديث عن الثقافة والنُّخب الثقافية، فليست كلُّ النخب الثقافية معاول هدمٍ، أو تابعين أجراءُ، بل فيهم فئةٌ صالحون أصلاء، يحملون هموم الأمة ويعالجون قضاياها ويُعدُّون في طلائع الرواد الذين لم يكذبوا أهليهم، ولم يخونوا أماناتِهم، ولهؤلاء يُقال: أنتم مكانُ تقدير الأمةِ وثقةِ أبنائها، وإلى مزيد من تفعيل الثقافة الإسلامية الأصيلة في المجتمع، وفضح الثقافات الواردة والحوار مع النخب المنهزمة، وعسى الله أن يكتب الخير على أيديكم. فإما أن يهدي الله بكم من ضل، أو تكونوا سياجًا مانعًا عن ضلال آخرين، وحسبكم أن تؤدوا الأمانة، وأن تكونوا خلفاء الأنبياء عليهم السلام في البلاغ الحق للناس، بما شرع وأوحى.



فرص استثمارية ودعوية في الإجازة[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله: اتقوا الله وراقبوه، واسمعوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[3].

أيها المسلمون: متقررٌ عند العقلاء -بله المسلمين- أن الحياة دقائقُ وثوانٍ، وأن الوقت عمارٌ أو دمارٌ، وأن عملية الزمن لا تتوقف بانتظار الكسالى والمبطئين، وأن من زرع اليوم حصد غدًا. وفَرْقٌ بين من يحصد الشوك ومن يحصد العنبَ.

عباد الله: وفي عقيدة المسلمين متقررٌ أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الزمن وعاءٌ لعمل الصالحات، أو سبيلٌ لارتكاب الموبقات، ومن وصايا الرسول ﷺ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٧/ ٢/ ١٤٢٠هـ.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

وتوجيهاته أن إضاعة الوقت غبنٌ، كما أن عدم استثمار الصحة -فيما يعود على المرء بالنفع- غبن آخر، ومما يلفت النظر أنّ الكثير من الناس مغبونٌ في هاتين النعمتين؛ كذا قال الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ**».

ولهذا وغيره فطن العارفون لأهمية الوقت، وسارت حياتُهم وانتهت بجلائل الأعمال، حتى إذا رحل أحدهم عن هذه الحياة عجب الناس كيف قاموا بهذه الأعمال كلها، وكيف خلَّفوا هذا التراث الضخم من العمل والعلم، والإنجاز والإنتاج، والدعوة والإحسان، والصلة والصلاة، والذكر وتلاوة القرآن، ونفعِ الخلق وإرضاء الخالق.

إنه شعورٌ بالمسؤولية أولًا.. يتبعه همةٌ عالية، تذلل الصعاب وتقهر النفس عن شهواتها الدنيئة، وتحجبها عن سفاسف الأمور، وتطوعها لاستثمار الأوقات.

وقد استشعر هؤلاء العارفون قيمة الزمن، فقال أحدهم: إضاعةُ الوقت أشدُّ من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموتُ يقطعك عن الدنيا وأهلها.

يا أخا الإسلام: هل فكرت أيَّ شيءٍ صنعتَ اليوم، وماذا ستعمل غدًا، وهل غَدُك أحسن من يومك. وهكذا حتى تلقى ربَّك، مطمئنًا لعمل الصالحات، واستثمار الأوقات.

وإليك نموذجًا من استثمار الوقت يشهد به العدول، يقول إبراهيمُ الحربي رحمه الله: لقد صحبتُ الإمام أحمدَ بن حنبَل عشرين سنةً صيفًا وشتاءً، وحرًا وبردًا، وليلًا ونهارًا، فما لقيته في يوم إلا وهو زائدٌ عليه بالأمس[1].

---

(١) الوجازة في استثمار الوقت والإجازة، مقبل العصمي ص٢٥.

«**إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما**» كذا قال عمرُ بن عبد العزيز ﷺ، وقبله قال ابنُ مسعود ﷺ: ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسُه؛ نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي.

أيها الناس: واستثمار الوقت ليس خاصًا بزمن دون زمن، ولا بجنس دون جنس، ويدور الزمان ويدور معه البطّالون، ويوجد فيه المشمرون المستثمرون لحياتهم، وتشارك المرأةُ الرجل في الإحساس بقيمة الزمان، ويُذكر أن امرأة حبيب الفارسي كانت توقظه من الليل وتقول: قُمْ يا حبيبُ فإن الطريق بعيد، وزادُنا قليلٌ، وقوافلُ الصالحين قد سارت من بين أيدينا، ونحن قد بقينا.

يا عبد الله: لست ملكًا مقربًا- لا تعصي الله ما أمرك -ولكن من أدلة شعورك بقيمة الزمن أن تُعقبَ خطأ اليوم بإحسان الغد، وكأن الشاعر يعنيك حين قال:

مضى أمسُكَ الماضي شهيدًا مُعدَّلًا   وأعقبَه يومٌ عليك جديدُ
فإن كنتَ بالأمس اقترفت إساءةً   فثنّ بإحسانٍ وأنت حميدُ
فيومُك إن أعقبته عاد نفعُه   عليك، وماضي الأمس ليس يعودُ

عباد الله: وفي مُقتبل الإجازة يتساءل عددٌ من الناس بم يقضون أوقاتهم؟ وما المشاريعُ الدعويةُ الخيرة التي يمكن لهم أن يسهموا فيها؟

وإذا عُلم أن نصف عدد المجتمع من النساء في البيوت أوجب ذلك التفاتةً جادةً للنساء، وشمولهن بهذه البرامج لاستثمار أوقاتهن، ومساهمتهن في الدعوة للخير.

وبالجملة، فسأقترح عليك، وأذكرك بأكثر من وسيلة لاستثمار الوقت عمومًا، وفي الإجازة خصوصًا، وأرجو أن تكون شاملةً للرجل والمرأة، والشاب والفتاة، والموظف والمُعلم، والمتسبب، والتاجر، وطالب العلم، والداعية.

ألا وإن كتاب الله خيرُ ما بُذلت فيه الأوقات إن تعلُّمًا أو تعليمًا، تلاوةً أو حفظًا، أو تجويدًا أو تفسيرًا، فماذا تنوي أن تحفظ أو تراجع منه في هذه الإجازة؟ ومطالعةُ كتب العلم النافعة طريقٌ للعلم الذي يرفع اللهُ به أصحابه درجات، «وخيرُ جليس في الزمان كتابُ»، ولكن اختر واستشر فيما تقرأ.

* وحضورُ حلق العلم، والمشاركة في الدورات العلمية قربة إلى الله، مع ما فيه من تحصيل العلم ومعرفة الآداب، مع حسن نيةٍ وحضور قلب. وهذه الدروسُ، فيها- أحيانًا -أماكنُ للنساء، وينبغي أن يُعتنى مستقبلًا بدروس النساء، زمانًا، ومكانًا، وموضوعًا، ومُحاضِرًا أو محاضِرةً، ويمكن للنساء أيضًا أن يلتقين في حلقة علمٍ في إحدى البيوت إذا كُنَّ متجاورات، أو قريبات.

* والمراكز الصيفية للشباب، والدور الصيفية للفتيات مما تستثمر فيه الأوقات، وقد كانت لفتة كريمة من مجلس الوزراء إذ أشار إلى أهمية هذه المراكز للشباب، وتُشكر الجهاتُ الحكومية- وفي مقدمتها وزارة المعارف -إذ تدعمُ هذه المراكز، وتزيد في عددها إنْ رسميةً أو تطوعيةً، ويُشكر الأساتذة المشرفون الذين يقطعون إجازاتهم في سبيل الإشراف على هذه المراكز، ورعاية المنتسبين لهذه المراكز، ويُشكر الأولياء الذين يساندون هذه المراكز، كما تشكر جماعات تحفيظ القرآن الكريم، إذ تُعنى بالدور الصيفية للطالبات، وحبذا لو كثَّفت من إعدادها مراعية كثرة الراغبات في الالتحاق بهذه الدور، وحاجتهن لملء الفراغ بما ينفع، ومؤمّنةً السُّبُل لنقلهن، ومراعية التوزيع على الأحياء ما أمكن، ومجددة في البرامج والوسائل، فذاك الأهم.

* أيها المسلمون: وفي القرى والهجر النائية حاجةٌ لنشر العلم ورفع الجهل لمن به ذلك، والدعوة بالحسنى، وإعانة المحتاجين، وكل ذلك ينبغي أن يستنهض همم

العلماء والدعاة والمحسنين، فيزوروا ويفيدوا.

* والدعوة في الحي وتقديم الخير للجيران، وتفقد حوائجهم، أسلوب ربما غفل عنه بعض الخيرين مع أهميته.

* وللجاليات الوافدة لهذه البلاد حق على أهلها، فهل نمنحهم شيئًا من وقتنا بدعوتهم للخير، والإسهام في حلِّ ما نستطيع من مشكلاتهم؟ وهل نتعاون مع مكاتب توعية الجاليات لمعرفة الواقع والاحتياج، وهل نبدأ الخطوة مع من هم تحت أيدينا من العمالة والمستخدمين؟؟

* والرحلاتُ النافعةُ لصلة الأرحام، أو أداء مناسك العمرة، أو التمتع بالجو الجميل، والتفكر في عظيم مخلوقات الله، وسعة ملكه، مما يُستثمر به الوقت، ولا سيما إن صاحَبَه برامجُ للأسرة؛ كشيء من الحفظ أو القراءة النافعة.

* وإذا قُدر لك أيها المسلم السفر إلى إحدى بلاد المسلمين، أو إلى بلاد بها جالياتٌ مسلمة، فساهم قدر استطاعتك في الدعوة إلى الله، أو مساعدة المحتاجين، وانقل الصورة بأمانة ودقة إلى إخوانك المسلمين ليطَّلعوا على حال إخوانهم، وفرق بين السفر لهذا الغرض النبيل، وبين السفر لإشباع البطون والفروج. كما الفرقُ بين من يراقب ربَّه ويشعر أنه يُمثل دينه، ومن يسيء إلى نفسه ومجتمعه وأمته؟

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

* * *

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، أجرى ذكره وشكره على ألسنة المخبتين، وأضلَّ آخرين، فهم عن ذكر ربهم معرضون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اصطفى من خلقه من همهم هدايةُ الناس ونفع الخلق -إما بأنفسهم أو بجاههم أو بأموالهم، وحرم آخرين فلا يُفكرون إلا في ذواتهم ولا يعنيهم كثيرًا حالُ إخوانهم من المسلمين.

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين.

* إخوة الإسلام: وثمة فئةٌ من الشباب مغفولٌ عنها، أو يضعف الاهتمام بها مع ما في هؤلاء من خير واستعدادٍ لقبول الحق، إنهم شباب الأرصفة والحدائق، وأصحابُ الاجتماعات في الاستراحات، أو الرحلات البرية -هنا أو هناك- أفلا يستحق هؤلاء منا الزيارة والملاطفة بالقول، والهدية النافعة ودعوتُهم لرحلاتِ أكثر فائدة، أو الالتحاق بالمراكز الصيفية، أو ما شابه ذلك؟

* وتُشكر الإدارات الحكومية ومؤسسات القطاع الخاص حين توفر فرصًا وظيفية للشباب في الإجازة يقضون بها وقت فراغِهم وتعينهم على سدِّ حوائجهم المادية، وتكسبهم مهارةً وخبرة.

* يا أيها المسلمُ والمسلمة: وفي زمن العلم والوعي والتقدم التِّقني يمكنك أن تُساهم بنشر العلمِ والمعرفة -وإن لم تكن عالمًا- وذلك بالإسهام في نشر علم العلماء عبر الشريط والمطوية والكتاب والمجلة النافعة ونحوها، فهل فكّرت حين تُسافر وترحل باصطحاب مجموعة من هذه وتلك، وتوزيعها لمن تراه محتاجًا لها.

* أيها الغني أو الراغبُ في الصدقة -وإن لم تكن في عداد الأغنياء، وإذا لم يمكنك أن تسهم بعلمك، ولا بنفسك، فليكن في مالك مساهمةٌ للدعوة ودعم المشاريع الخيِّرة، واعلم أن في دعمك شحذًا لهمم العاملين، وعسى أن يكون في صدقاتك حفظ لمالك وتنمية لثروتك، فضلًا عن تكفير الخطايا ورفعة الدرجات، وهنيئًا لك أيها المتصدق قوله ﷺ: «**كلُّ امرئٍ في ظل صدقته يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس**»(١).

* أيها العلماء والدعاةُ والمفكرون! وعلى شبكات الانترنت فرصٌ ومواقع للدعوةِ والتعريف بالإسلام، والتصدي لحملات الكفر والإلحاد، وفضح المذاهب المنحرفة، ووسائل العلمنة وتغريب الأمة، فلا تتأخروا في استثمار هذه الوسيلة العالمية.

* أيها الرجال وأيتها النساء: ولذوي رحمكم عليكم حقٌّ خاص، وقد أوصى الله بهم في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾(٢). فهل تحتسبون في تخصيص جزءٍ من وقتكم للالتقاء بهم، والأنسِ معهم، والتعرف على محتاجهم، وحثهم على الخير، وتبصيرهم بالمخاطر، وذلك عبر لقاءات دورات الأسرة، ومناسبات الزواج، وسلام الأعياد، ونحوها. وتحيةً للأسر المتواصلة التي شقَّت طريقها في اللقاءات الأسرية المبرمجة الهادفة، والدعوةُ لا تزال مفتوحةً لمن لم يبدأ مشوار الصلة الجماعية، في زمن باتت الصلات الفرديةُ فيها شيءٌ من الصعوبة.

* أيها العلماءُ والدعاةُ، وأساتذة الجامعات، والمدرسون، والموظفون:

---

(١) رواه أحمد وغيره، وهو في «صحيح الجامع»: ٤/ ١٧٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

وهناك تواضعٌ غير محمود، واتهامٌ للنفس في غير محله، واتكالية وسلبية، وذلك بضعف الإسهام في الكتابة في الصحف، والاعتذار عن تقديم البرامج المفيدة في وسائل الإعلام، مما أتاح الفرصة لكتابات هزيلة أو منحرفة أحيانًا، وسبَّب كذلك في ضعف أو قلة البرامج الإسلامية مقارنةً بغيرها. وأنتم بهذا تتحملون كفلًا من المسؤولية حين تتأخرون وأنتم قادرون، فإن كان عذرُكم ضيق الوقت، ففي الإجازة فرصةٌ للإعداد والكتابة، فهل أنتم فاعلون ومسهمون؟

* أيها الآباء، أيتها الأمهات: ولديكم في هذه الإجازة فرصة أكبر للعناية بأولادكم ومزيد تربيتهم، وإذ يتفرغون من الدراسة ففرغوا لهم جزءًا من وقتكم تُسمعونهم، وتسمعون منهم، وتقرؤون عليهم ويقرؤون عليكم، توجهون وتحذِّرون، وتقصون وتمازحون، وهكذا من وسائل التربية المختلفة، حتى ينشئوا نشأةً صالحةً بإذن الله، وليكن ذلك عامًا للذكور والإناث.

إخوة الإسلام: أكتفي بهذه الخمس عشرة فرصة ووسيلة للدعوة -أو تزيد- في هذه الإجازة، على أن ذلك لا يعني الحصر لها، فثمة وسائل وفرص أخرى قد تراها أو يراها غيرُك سبيلًا لاستثمار الوقت لنفسك ونفع الخلق من حولك، وهناك كتيباتٌ ورسائل مؤلفةٌ لهذا الغرض، وفيها استجماع لعدد من الوسائل الدعوية فليطالعها من شاء. والمهم أن تحملَ همَّ الإسلام وتُشارك في نَشر الخير، ودفع الشر حسب قدرتك وما وهبك الله، وهذه الفرصُ والوسائل -أيضًا- ليست قصرًا على الإجازة فحسب، وإنما يمكن استمرارُها واستدامتُها فيما بعد، وإنما جاء الحديث عنها مقرونةً بالإجازة لتوفر الفراغ فيها أكثر من غيرها.

عباد الله: وأختم الحديث منبهًا ومحذرًا عن قضاء الوقت في أمور لا تحمدُ عقباها، ولا ينبغي أن يُقضى الوقتُ بمثلها.

ومنها كثرة النوم، أو طولُ السهر في المقاهي، أو على التلال الرملية ونحوها دون فائدة، والسفر للخارج، وإضاعة الوقت والمال وربما الدين، باسم السياحة، والسهرُ على الأفلام الخبيثة ومتابعةُ القنوات الفاسدة، والإكثار من الرحلات دون فائدة، وكثرةُ التجول في الأسواق لغير حاجة، والمعاكساتُ الهاتفية، والارتباط بسماعة الهاتف مدةً طويلة، وكثرة التجوال في الحدائق والمتنزهات العامة، والقراءةُ في الكتب المنحرفة أو المجلات والجرائد الساقطة، والاجتماع للحديث في أعراض الناس، وأكل لحومهم سواءٌ بالغيبة أو النميمة، وسواء كان ذلك من قبل الرجال أو من قبل النساء.

إلى غير ذلك من أمور يعرفها العقلاء، ولا يرضى المسلمُ أن يضيع شيءٌ من وقته هدرًا.

واعلم -أخا الإسلام- أن النفس إذا شغلتها بالخير شُغلت عن الشر، وإذا خلت من عمل الخير وقعت في الشر، ولذا فأنتم جميعًا مدعوون للتفكير في قضاء وقت الفراغ بما ينفع، ومما يدفعكم إلى ذلك قصرُ أعمار هذه الأمة مقارنة بغيرها من الأمم، وعظمُ الجزاء ودقةُ الحساب عند المولى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(١).

واختيارُ الرفيق الصالح خيرُ معين على قضاء الوقت بما ينفع، وعكسه رفيقُ السوء، وكلما قوي الإيمان باليوم الآخر، كلما كان الإنسان أكثر جديَّة وحفظًا لوقته، ودعاءُ الله بالإعانة والتسديد، كذلك عونٌ للمرء على الاستفادة من وقته

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

وحفظ نفسه. أسأل الله أن يبارك في أعمارنا وأعمالنا، وأن يجنبنا الزلل، وأن يوفقنا لأحسن الأخلاق والأعمال، لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرفنا عن سيئها، لا يصرفنا عن سيّئها إلا هو.



المسارعة للخيرات، واغتنام فرص الطاعات(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره...

عباد الله: تختلف هممُ الناس واستعدادُهم لفرص الخيرات، كما يختلف نوعُ مسعاهم في تحصيل الأجر حين يكون موسمُ الطاعات، فهناك ذو الهمة الضعيفة والعزم المتراخي، وهناك الغافل اللاهي، وهناك المنافق والمرائي، وهناك أصحابُ الجدِّ والهمم العالية والإخلاص والمتابعة.

وبالجملة، فمواسم الطاعة وفرص العبادة تحتاج - فيما تحتاج إليه - إلى مبادرة ومسارعة، وإلى حسن نيةٍ، وقصدٍ حسن، هذا قبل العمل، وتحتاج بعد العمل إلى صدقِ المتابعة، ولزوم السنة فيما يعمل أو يدع، وسؤال الله القبول، والتجاوز عن الخطأ والتقصير.

أما المبادرة، فقد جاء الأمر بها والحثُّ عليها في أكثر من موضع من كتاب الله وبأكثر من عبارة، وكلها تحثُّ الخُطى، وتدعو للمسارعة، والمسابقة، والمنافسة؛ قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾(٣). ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾(٤).

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٢/ ٨/ ١٤١٩هـ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٤) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

فهل تجدون -معاشر المسلمين- أقوى وأمثل من عبارات المسارعة هذه والمسابقة والمنافسة لاغتنام الفرص والتقرب إلى الله بزاد ينفع العبد يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم؟

ألا إنها دعوةُ القرآن، ورحمة الرحمن، وإلا فالله غنيٌّ عنَّا وعن عبادتنا، ولا يضره كفرُ الكافرين، وإن لم يرضَه منهم، ولا تنفعه طاعة المطيعين، وإن كان يحبها ويرضاها لهم: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

يا عبد الله! إياك أن يُسرع الناسُ الخُطى للخيرات وأنت واقفٌ أو تزحف، أو تتلفت، أو تلهو وتلعب، حتى إذا فجأك الحقُّ عضضت أصابع الندم ولات ساعة مندم، أترضى أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[2]؟ أم ترضى أن تكون حالك كحال من قال الله عنهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؟[3].

وأين أنت - يا عبد الله - من دعوة محمد ﷺ لك بالمبادرة لعمل الصالحات، وهو القائل: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطعِ الليل المظلمِ، يصبح الرجلُ مؤمنًا، ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع أحدهم دينه بعرَضٍ من الدنيا**

(١) سورة الزمر، الآية: ٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ١ - ٣.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

قليل». أخرجه أحمد ومسلم والترمذي[١].

يا أخا الإيمان وإذا كانت الفتنُ عوائق عن عمل الصالحات فالبدار البدار في عمل الصالحات، واغتنام مواسم الطاعات قبل كثرة الفتن، وصدِّها عن عمل الصالحات، وأنت لا تدري، إذا انفلق عليك الصباحُ بأمر الله ما يحمله لك المساء من أقدار الله، والله حين يتوفى الأنفس في منامها يمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . . ولست تدري أنفسُك ممن تمسك أم ترسل، وإن أرسلت فلست تدري كذلك ماذا ما بقي من أجلها.

أين نحن من قوم كثُرت أعمالهم الصالحة، وزاد خوفهم ومراقبتهم؟ عن ابن شوذب قال: لما حضرت أبا هريرة رضي الله عنه الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: بُعدُ المفازة، وقلة الزاد، وعقبةٌ كؤود، المهبط منها إلى الجنةِ أو النار[٢].

وعن عمران بن نمران، أن أبا عبيدة رضي الله عنه كان يسير في العسكر فيقول: ألا رُبَّ مُبيِّضٍ لثيابه مُدَنِّسٌ لدينه، ألا ربَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين، بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات[٣].

أيها المسلمون: وبعد المبادرة والاستعداد لفعل الخير، ينبغي أن يكون القصدُ حسنًا، والعملُ لله خالصًا، وفرقٌ كبيرٌ بين من يريد بعمله الله والدار الآخرة ومن يريد الدنيا وزخرفها . . وهنا تستوقف المتأمل مجموعة آيات تفترق مواضعُها من كتاب الله، وتقترب معانيها ودلالتها، فتأملوهن، واعملوا بموجبهن.

أما الموضع الأول؛ فقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٣/ ٤.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٦٩٤.
(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ١٨، «أين نحن من أخلاق السلف» ص١٧.

أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

أما الموضع الثاني؛ فقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[2].

وفي الموضع الثالث؛ قال تعالى في سورة الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[3].

عباد الله: ومن جملة المعاني التي ذكرها العلماءُ في تفسير هذه الآيات، ما ذكره القرطبي -عند آية الإسراء- ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ قال: وهذه صفةُ المنافقين الفاسقين والمرائين.. يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يُقبل ذلك العملُ منهم في الآخرة، ولا يعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم[4].

ألا فاتقوا الله عباد الله، وسارعوا إلى طاعته وجنته، ولا تنتهي بكم الآمال عند حُطام الدنيا، واستجيبوا لندائه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[5].

---

(١) سورة هود: الآيتان، ١٥، ١٦.

(٢) سورة الإسراء: الآيتان ١٨، ١٩.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٣٥.

(٥) سورة فاطر، الآيتان: ٥، ٦.

الخطبة الثانية:

الحمد لله صاحب الفضل والإحسان، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، كل من في السماوات والأرض خاضع لجبروته وسلطانه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، كان أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في رمضان.. اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين.

إخوة الإسلام: ووقف أهلُ العلم عند آيتي هود: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[١] والتي بعدها؛ من المقصود بهم؟: فقيل: نزلت في الكفار، وقيل: المراد بالآية: المؤمنون، والمعنى: من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجل له الثوابُ، ولم يُنقصْ شيئًا في الدنيا، وله في الآخرة العذابُ؛ لأنه جرّد قصده إلى الدنيا، وهذا كما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**».

فالعبدُ إنما يُعطى على وجه قصده، وبحكم ضميره، وهذا أمرٌ متفق عليه في الأمم بين كل ملة.

وقيل: هو لأهل الرياء الذين يقال لهم: صمتم وصليتم، وتصدقتم وجاهدتم، وقرأتم ليقال ذلك، ومعلوم من أول من تُسعر بهم النار.

وقيل: في معنى الآية العموم، أي: ليس أحدٌ يعمل حسنةً إلا وُفِّي ثوابها، فإن كان مسلمًا مخلصًا وفِّي في الدنيا والآخرة، وإن كان كافرًا وفِّي في الدنيا[٢].

عباد الله: الله لطيف بعباده، ومن رحمته ولطفه بعباده أن يسَّر لهم طرق الخير، وعظّم لهم الأجر، وقواهم وأعانهم عليه إن كان قصدهم حسنًا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ

---

(١) سورة هود: الآية ١٥.

(٢) تفسير القرطبي ٩/ ١٤.

حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: حرثُ الآخرة: عملها، ومعنى ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي: نقويه ونعينه على ما هو بصدده؛ ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى ما يشاء الله، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي: ومن كان إنما سعيُه ليحصل له شيءٌ من الدنيا، وليس له إلى الآخرة هِمّةٌ البتة بالكلية حرَمَهُ الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة[٢].

معاشر المسلمين: شمروا في طلب الآخرة، واسعوا لها سعيها وأنتم موقنون بلقاء الله وجزائه وعدله، في كل حين، وخصوا مواسم الخيرات بمزيد من السعي تُفلحوا وتنجوا من عذاب الله.

قيل للأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ: إنك كبيرٌ والصوم يُضعفك، قال: إني أعدُّه لسفرٍ طويل. وقيل: كانت عامةُ صلاتهِ بالليل، وكان يضع أصبعه على المصابيح ثم يقول: حِسَّ، ويقول: ما حملك يا أحنفُ على أن صنعت كذا يوم كذا[٣]؟!

وهكذا إخوة الإيمان تكون الجدية في العبادة، والمحاسبة؛ وتذكر الآخرة.

إن هذه الأمة أمةُ خير، بشَّرها الرسولُ ﷺ ببشائر -ما التزمت الطريق الحق- وحذرها من عمل الآخرة لأجل الدنيا، فقال ﷺ: «**بشِّر هذه الأمةَ بالسَّناء،**

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/١٨٦.
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/٩١، ٩٢.

والدين، والرفعة، والنصر، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب».

رواه أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم وسنده صحيح(١).

والسَّناءُ: ارتفاع المنزلة والقدرِ عند الله تعالى(٢).

يا أخا الإيمان: تدارك ما فاتك، واستثمر أنفاسك في طاعة خالقك، وإياك أن تؤثر الفانية على الباقية، ومهما تعلقت نفسُك بشهوة أو متاع فاعلم أن في الجنة خيرًا منه، ومهما مرَّ بك من آلام وأحزان وسوءِ حال فاعلم أن في النار شرًا منه. تحمّل ألم ساعة في سبيل حصولك على اللذةِ والحبور الدائم في الجنة، وحذار أن تقودك الشهوة العارضةُ إلى النار والحميم والزقوم في جهنم، وبئس المصير، واختر لنفسك أي المنزلتين شئت.

قال شدادُ بن أوس: إنكم لن تروا من الخير إلا أسبابه ولن تروا من الشرَّ إلا أسبابه، الخيرُ كلُّه بحذافيره في الجنة، والشرُّ بحذافيره في النار، وإن الدنيا عَرَضٌ حاضرٌ يأكل منها البرُّ والفاجر، والآخرةُ وعدٌ صادق يحكم فيها ملكٌ قاهر، ولكلٍّ بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا(٣).

اللهم هيّئ لنا من أمرنا رشدًا، وعلق آمالنا في الآخرة، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا إلى النار مصيرنا.



(١) صحيح الجامع الصغير ٣/ ٦.
(٢) ابن الأثير، «النهاية في غريب الحديث» ٢/ ٤١٤.
(٣) صفة الصفوة ١/ ٧٠٩، عن «أين نحن من أخلاق السلف»، الجليل وزميله ٣٣، ٣٤.

الألفية الثالثة وقائع ووقفات[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله ربِّ العالمين، أكمل لنا الدين، ورضي الإسلام لنا دينًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، حكم ببطلان الشرائع والأديان غير ملة الإسلام - فقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2].

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه وخاتم أنبيائه ورسله، أنزل عليه القرآن بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومُهيمنًا عليها، وأخبره أن أهل الكتاب حرفوا الكلم عن مواضِعه ونسوا حظًا مما ذُكّروا به. اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[4].

أيها المسلمون: ونحن الآن على مشارف نهاية قرن ميلادي متمم لألفي سنة من

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٥/ ٧/ ١٤٢٠هـ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

ميلاد المسيح ﷺ، ويبدأ بعده الألفُ الثالث للميلاد.. يتوقع المراقبون للأحداث، والمتابعون لما يُكتب وينشر في الكتب والمجلات والصحف ونحوها، والمتابعون للفضائيات وشبكات الانترنت -أن تكون الألفية الثالثة ألفية تطرف لليهود والنصارى، وألفية تنامي الشعور الديني.. وألفية ظهور أكبر وقيادة أوضح للأصوليين والمتطرفين- من أرباب الديانتين (اليهودية والنصرانية).

ويعتمد هؤلاء الأصوليون والمتطرفون على نبوءات يعتقدونها في كتبهم (العهد القديم والعهد الجديد) وعلى أساطير وخرافات ورؤى.

ويرون أن القرن المقبل (الميلادي) سيكون ميدانًا للصراع العقدي -مع خصومهم المسلمين- وسلاحُه الحربُ النووية ومسمى المعركة المتوقعة -في نظرهم- (هَرْ مَجدون) وأرض المعركة - كما يقولون في أرض (مجدو) التي تبعد عن (تل أبيب) بخمسة وخمسين ميلًا، وهي في موقع يبعد عشرين ميلًا شرق (حيفا) وعلى بعد خمسة عشر ميلًا من شاطئ المتوسط.

والاعتقادُ بوقوع هذه المعركة اعتقادٌ مشتركٌ بين اليهود والنصارى، وكلٌّ من الأمتين الضالتين يعتقد بأن خلاصه سيكون بعد هذه الحرب، ولكن هذا الخلاص (الموهوم) عند الأمتين الضالتين لن يتم -في اعتقادهم- إلا بالتخلص من جُلِّ سكان الأرض عن طريق تلك الحرب المدمرة الهرمجدونية[1].

فأين الحرب الهرمجدونية ذات السلاح النووي مما يتهمون المسلمين به بالتطرف في ساحات الجهاد؟!

عباد الله: ومما يؤكد وجود هذه المعتقدات والنزعات الدينية عند اليهود

---

(١) عبد العزيز مصطفى كامل، «حمى سنة ٢٠٠٠» ص١٦٠.

والنصارى، استعدادُهم لحفلات ولقاءات دينية ستتم في (بيت لحم) عام ٢٠٠٠، وهو عبارة عن مهرجان عالمي نصراني، قدّرت بعضُ المصادر عدد من سيحضر للقدس للمشاركة فيه بمليون ونصف، وبعد أن تأكد حضور البابا لتلك الاحتفالات، قدّرت بعضُ الأوساط القادمين بثلاثة ملايين، وبالغت مصادر أخرى فأوصلت الرقم إلى ستة ملايين لهذا المهرجان.

ومما يؤكد هذه النزعات الدينية عند اليهود والنصارى كذلك جديتُهم في بناء الهيكل (المزعوم)، وفي هذا يقول أحد ساستهم: لا قيمة لإسرائيل بدون القدس، ولا قيمة للقدس بدون الهيكل[١].

وبناءُ السور العازل بين المسلمين واليهود بطول ستين وثلاث مائة كيلًا، وارتفاع ثلاثة أمتار، وقد بدأ اليهود بتنفيذه في عام ١٩٩٦م، وتعهدت (أمريكا) بتمويله كاملًا، وقدَّم (كلينتون) قسطه الأول (مئة مليون دولار)، وبناءُ هذا السور تحقيق لأسطورة دينية عند اليهود، وله ذكر في كتبهم، فهم ينطلقون من موروثاتٍ دينية وتعاليم كتابية - وإن كانت محرّفة.

ويعتقد اليهودُ كذلك -ويؤازرهم النصارى- بذبح ما يسمونه (بالبقرة الحمراء) ولذا فهم يهتمون بـ(قدس الأقداس) أو (المذبح) الذي ستُذبح فيه البقرةُ الحمراء، وقد انتهوا من بنائه - وهو جاهزٌ للنقل إلى مكانه، في الوقت المناسب، ويهتم (حاخامات) اليهود بهذه البقرة، وقد أُعلن عن ولادتها في شهر أكتوبر من عام ١٩٩٧ وبنفس المواصفات التي يزعمون وجودها في كتبهم وبزعمهم أنها لا بد أن تُذبح بعد ثلاث سنوات من ولادتها!

---

(١) هو بن غوريون.

إلى غير ذلك من معتقدات وأساطير تصبُّ كلّها في التوجه الديني عند اليهود والنصارى، وتشير إلى تغلغل الأصولية والعودة إلى الكتب المقدسة في نظرهم، وإن وجد علمانيون يخالفونهم النظرة.

وهنا ومن جرّاء هذه الأحداث الواقعة والمتوقعة حريٌّ بنا أن نقف الوقفات التالية، ونعرض لجملة من التساؤلات ذات الدلالة:

١ - هذه الأحداث والوقائع تُضعف أو تبطلُ الظنَّ القائم عند بعض الناس - بأن اليهود والنصارى قد تخلوا عن الدين إلى اللادين بشكل نهائي، وربما ظن هؤلاء أن شيوع المذاهب الإلحادية، وطغيان الانحلالية العلمانية، قد أوهم بهذا، ولكن واقع اليوم يشهد تحولًا دينيًا كبيرًا في مجتمعاتهم، وهذا التحولُ تجاوز الدهماء والعامة، إلى الخاصة والساسة، وتجاوز التنظير إلى التطبيق.

٢ - بل تحول هذا التوجهُ الديني -عند اليهود والنصارى- إلى نوع من التطرف في المعتقدات والسلوك إلى حدٍّ أثار غضبة (العلمانيين) من بني قومهم، وبدؤوا يواجهون هذا المدَّ الأصولي المتطرف، ويندّدون به ويسخرون من أصحابه. وقد ذكرت صحيفةُ (نيوزويك) في عددها الصادر في ٩/ ٥/ ١٩٩٦م أن مدينة القدس أصبحت معقلًا للتطرف اليهودي، وأشارت إلى أن أعداد اليهود -غير المتدينين- الذين يُغادرون المدينة في ازدياد، حيث أصبحت المدينةُ مكانًا غير مقبولٍ بالنسبة لهم، نظرًا للطابع الديني والقيود التي يضعها المتدينون اليهودُ على الحياة هناك.

وقد بلغ الأمر أن تخوّفت الدولة اليهودية من إحراج المتطرفين لها بهدم الأقصى في وقت غير مناسب، وقد كتب الصحفي الإسرائيلي (يوسي ليفي) مقالًا في صحيفة (معاريف) في ٢٩/ ٨/ ١٩٩٨م، جاء فيه قولُه: القاعدةُ التحتيةُ للتنظيمات المتشددة موجودة حسب تقديرات قوى الأمن، والمعلوماتُ التي بحوزتها تقول أن

الاتصالات بينها تتمُّ بالوسائل والطرق السّرية، والتنسيقُ بينها موجود، والمشكلةُ القويةُ التي تواجه أجهزة الأمن هي التغلغلُ في هذه الجماعات؛ لأنها مجموعات ذاتُ معتقدات أيديولوجيةٍ متعصبةٍ مرتبطةٍ بعواطف دينيةٍ حادّةٍ، بحيث يعرف كلُّ واحدٍ من أعضائها الآخر بما لا يسمح باختراقها.

وبكل حال، فالواقعُ خيرُ شاهد، وقد اصطلى بنار هذا التطرف أحد زعماء إسرائيل؛ فقد أعلن (عامير) قاتل إسحاق رابين؛ أن سبب قتله؛ لأنه (خان أرض التوراة)[١].

٣ - ومن المفارقات العجيبة أن تنشط الجماعات الأصولية في الغرب، ويصول ويجول المتطرفون في إسرائيل، وتكثر الجماعات الدينية وتدعم عند اليهود والنصارى، بل ويكون لها مواقعُها المهمة، ومنابرها الإعلاميةُ واسعةُ الانتشار والتأثير، وتحظى هذه الجماعات الأصوليةُ بدعم وتأييد الساسة، بل وصلوا إلى أن يكون المرشح للرئاسة نفسُه أصوليًا إنجيليًا[٢]. وفي المقابل يتهمون المسلمين بالأصولية والتطرف والإرهاب إذا ما سعوا لخدمة دينهم والدعوة لإسلامهم، وتلك وربي من إسقاطاتهم.

وهي مؤشرٌ على تخوفهم من الإسلام وأهله، وإلا فكيف يسوغ التدينُ والدعوة والدعم لأصحاب الدين المحرف، ويُعدُّ ذلك تهمةً لأصحاب الدين الحق؟!

وهنا يرد السؤال: بماذا يفكر المسلمون مستقبلًا لمواجهة المدِّ الأصولي والتطرف اليهودي؟ وقبل هذه المواجهة هل يقرأ المسلمون ما يكتبه اليهودُ والنصارى؟ وهل يعلمون وسائلهم وخططهم لمواجهة المسلمين؟ وهل يليق أن

---

(١) انظر «حمى سنة ٢٠٠٠» ص٣٨.

(٢) الأصولية الإنجيلية، الهذلول ٦٩.

يتفوق الصليبُ على الهلال، أو يعزَّ ويقوى من ضُربت عليهم الذلةُ والمسكنة، وشأنهم السعي في الأرض فسادًا؟

ولقد كان بعضُ أئمة الإسلام إذا رأى صليبًا أغمض عينيه عنه وقال: لا أستطيع أن أملأ عيني ممن سبَّ إلهه ومعبوده بأقبح السب.

ولهذا قال عقلاءُ الملوك -كما نقل ابنُ القيم رحمه الله-: إن جهاد هؤلاء واجبٌ شرعًا وعقلًا، فإنهم عارٌ على بني آدم، مفسدون للعقول والشرائع[(١)].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(٢)].

نفعني الله وإياكم بهدي القرآن.

❁ ❁ ❁

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ٣٩٩، ٤٠٠.

(٢) سورة الجاثية، الآيتان ١٨، ١٩.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربّ العالمين علام الغيوب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قال في محكم التنزيل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، ترك أمته على محجةٍ بيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين.

أيها الإخوة المؤمنون:

٥ - أما الوقفة الخامسة فهي تساؤلٌ من نوع آخر ومفادُه: وبماذا سيقابل المسلمون المدَّ الإعلامي لمثل هذه التظاهرات الدينية وما تحمله من عقائد محرَّفة، وما ستبثه من أفكارٍ وتصورات تناهض الإسلام وتُسيء إلى المسلمين؟

ما دورُ العلماء في المرحلة القادمة؟ وأين سيكون موقعُ الدعاة؟ وماذا أعد المسئولون في الإعلام في الدول العربية والإسلامية لمواجهة الحملات الغربية، وغزو الأفكار، ونشر أساطير التوراة والأناجيل المحرفة، ومحاولات الاحتواء، وفرض الهيمنة؟ وهل يُتصور حضور الإعلام العربي والإسلامي لمباركة هذه الاحتفالات والتبرع بنقلها لأبناء العربية والإسلام؟! أم المتوقع إعدادُ برامج لصد آثارها، وحماية المسلمين من مخاطرها؟

وما حالُ رجال الفكر الإسلامي ومستوى قدرتهم على التحدي في حوار الحضارات والإقناع لإثبات الحق وكشف زيف الباطل؟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

٦ - وهل هذه الاحتفالاتُ والمهرجانات جزءٌ من حربٍ نفسية وإعلامية ضد المسلمين، تصدَّر عن طريقها - وبوسائل الإعلام وقنواته المختلفة الأفكار والمعتقداتُ اليهوديةُ والنصرانية، ومن خلالها يشكّك بتعاليم الإسلام الحقة، وعن طريقها يحاولون تحطيم الحواجز الصلبة بين تعاليم الإسلام الحقة والموروثات المحرفة في التوراة والإنجيل، وتُهمش في أذهان المسلمين القضايا العقدية المهمة من مثل الولاء والبراء، والحكمُ بالكفر والنار على من لم يعتنق دين الإسلام؟ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(١)]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[(٢)]، وما يصحب ذلك من دعوات منكرة لوحدة الأديان، أو زمالتها أو إخائها أو تقاربها، أو نحو ذلك من أفكار ومعتقدات قد يكون لها أثرُها على بعض المسلمين؟

٧ - وعلى صعيد آخر؛ وإذا اجتمع أصحاب الديانات المحرفة على كلمةٍ سواء، ولو ظاهرًا رغم اختلافهم في المعتقد، وما بينهم من عداء، فهل يدعو ذلك المسلمين إلى الوحدة والاجتماع وطرح الخلافات والمنازعات وجمع الطاقات والقوى لمواجهة عدوٍّ الجميع؟ ومن يا تُرى يُمسك بالراية ليجتمع المسلمون تحتها يتشاورون ويفكرون في واقعهم وواقع عدوهم؟ وهل تكون الاجتماعاتُ العالمية الكبرى حِلًا لليهود والنصارى، حرامًا على المسلمين؟

٨ - وإذا لم تسيطر علينا نظرةُ الإحباط، أو تقعد بنا مثبطاتُ التشاؤم أمكن القول، وقد يكون في ثنايا هذه البلايا والمحن فرج وفتح للمسلمين، فقد يقود صلفُ المتطرفين من اليهود والنصارى إلى صلفٍ آخر من قبل العلمانيين عندهم،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٧.

فتثور الفتنةُ بينهم، ويتعمق الخلافُ ويتحقق الصدامُ بينهم، فينشطُ كل طرفٍ للانتقام من صاحبه، ثم ينتقم الله من كليهما، ويستفيد المسلمون من ضعفِهم قوة، ومن تفرقهم اجتماعًا ووحدة. ومن مؤشرات هذا الاحتمال ما جاء في صحيفة (معاريف) حيث كتبت تقول في عددها الصادر في ١٤/٧/١٩٩٦: إذا استمرت الأحوالُ على ما هي عليه في ظل حكم الليكود، فإن العلمانيين لن يستطيعوا المعيشة بالقدس، وقد يضطرون إلى المواجهة.

٩ - وأمرٌ آخرُ؛ فقد تدفع تصرفاتُ اليهود والنصارى المتطرفةُ إلى مزيد بعث الشعور الإسلامي، وقد يدعو هدمُ الأقصى - لو حصل - أو مزيد العبث به - إلى إشعال جذوة الجهاد في سبيل الله بين المسلمين.

ولكن ينبغي أن يُعلم أن الأخطر من ذلك أن يكسب العلمانيون الجولة فيُروّجون لأفكار الإخاء والتقارب بين الأديان، والسخرية من الدين وأهله بشكل عام، ويُفعِّلون دور الإعلام العالمي الصليبي واليهودي والعلماني لترويج الأفكار والعقائد الباطلة، فيستمع الناسُ لهم في غمرة انتصارهم وهم يسحبون الهزيمة على المتدينين بشكل عام، فلا يميز الناس حينها بين أصحاب الدين الحق وأصحاب الخرافات والأساطير، أو يقفز العلمانيون في بلاد المسلمين للتشكيك في الدين الصحيح من خلال هزيمة من بدلوا دين المسيح، أو لعنهم الله وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت.

وينبغي أن يعي المسلمون أنهم يتعاملون في عقيدتهم ونظراتهم من منطلقات الكتاب المهيمن على الكتب السابقة والذي حكم الله بحفظه من التحريف والتبديل، ونسخ به الشرائع والأديان، وجعل أمته أمةً وسطًا شاهدة على الأمم كلّها.. ومسئولة عن تبليغ الدعوة الحقة لها، ومَنْ شكَّ في صلاحية الإسلام لكل

زمان ومكان، أو ظن أن أحدًا يسعه الخروجُ عن دين محمد ﷺ، أو تردد في إعجاز القرآن وصلاحيته للهداية والتوجيه، فذلك خارجُ دائرة الإسلام، وليس من أهل الإيمان.

١٠ - ومن العجز والتقصير أن يظل أهلُ الإسلام دائمًا ينتظرون ما تنتهي إليه الأحداث وتنجلي عنه المعركة، دون أن يكون لهم إسهام إيجابي في صُنع الأحداث وإقرار الأصلح، وعلى أهل الإسلام عامة - والمقتدرين منهم خاصة - أن يُساءلوا أنفسهم ماذا قدموا لدينهم، وما هي وسائلُهم لتقديمه للآخرين؟ وعليهم أن يتساءلوا: كم نِسَبُ المواقع الإسلامية في شبكات الانترنت؟ وكم يمتلكون من القنوات الفضائية المؤثرة؟ ما نوعُ تأثير إعلامهم، وما هي المنطلقات والأهداف في السياسة الإعلامية - بشكل عام؟

ما دور الجامعات ومراكز البحوث والهيئات العلمية في تصدير الفكر الإسلامي والعقيدة الحقة للأمم والشعوب الأخرى؟

وما دورُ الهيئات والمنظمات الإسلامية في تبني مشاريع الوحدة والاجتماع للمسلمين عبر مؤتمراتٍ ومهرجانات إسلامية كبرى تدرسُ وتفكر وتخطط وتصدر من القرارات والتوصيات ما ينفعُ الناس كافة؟ ولا شك أن في المسلمين طاقاتٍ وقدراتٍ وعقولًا، ولكنها محتاجة إلى تأليف وتجميع - وعسى أن توقظهم وتشحذ همتهم اجتماعات أعدائهم على المكر والباطل، وفي عقيدتنا أساسًا دعوةٌ لمثل هذا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾[١].

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[٢].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.　　(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

أيها المسلم والمسلمة: واحذر على عقيدتك في زمن الفتن والتشكيك، وإياك أن تنساق وراء موجات التغريب والعلمنة، والزم الصراط المستقيم، واعبد ربَّك حتى يأتيك اليقين، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ولا تُغلبن على سلاحين ضروريين في كل حين، وهما في أزمان الفتن أشدُّ ضرورة، هما: سلاح العلم، وسلاح العبادة، واعتصم بالله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، ولا تغفل كذلك عن سلاح الدعاء، فهو مع الصدق والإخلاص لله مخترق للحجب، وسبب لدفع البلايا، ومفرج للكروب.

ولم ينشأ من فراغ تحذير رابطة العالم الإسلامي من ترويج معلومات مغلوطة عن نهاية العام.

وتأكيدها للناس كافة على أهمية تلقي العلم الصحيح من مصادره الموثوقة وعلمائه الأفذاذ العارفين بفقه النوازل، كل ذلك حتى لا تزلَّ أقدام بعد ثبوتها، ويُورث الشكُّ بعد اليقين.



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.

السُّنة والبدعة في شعبان[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن أصحابه أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3].

عباد الله: وقبل أيامٍ انسلخ شهرُ رجب -وهو من أشهر الله الحرم، واليوم ينسلخ من شهر شعبان نصفه، وبعد سلخ نصفه الباقي يدخل شهر رمضان المبارك، وبين شهرٍ حرام، وشهر مبارك يغفل الناس، وربما فتروا عن العبادة في شهر شعبان؛ ولذا كان رسول الهدى ﷺ يخصُّ شعبان بنوع من العبادة، لا يخصُّ به كثيرًا من أشهر العام، فقد كان يُكثر فيه من الصيام إلى حدٍّ قالت معه أمُّ المؤمنين

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٥/٨/١٤١٩هـ.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

عائشة رضي الله عنها: لم يكن رسولُ الله ﷺ يصوم شهرًا أكثرَ من شعبان، كان يصومُ شعبان كلَّه. أخرجاه في «الصحيحين».

وفي رواية أخرى -وسندها صحيح إلى عائشة قالت: كان أحبَّ الشهور إلى رسول الله ﷺ أن يصومه شعبان، ثم يصله برمضان(١).

وقد فسَّر العلماءُ رحمهم الله قول عائشة رضي الله عنها بأن المعتمد عنه الأئمة كابن المبارك وغيره أن قولها: «يصوم شعبان كلَّه» أي: أغلبه، وجاء اللفظ من باب التكثير، بمعنى أنه ﷺ كان يصومُ أكثر أيام شعبان(٢).

إخوة الإسلام، وقد تحدث العلماءُ في سرِّ تفضيل رسول الله ﷺ للصيام في شهر شعبان، وقارنوا ذلك بما ورد عنه في أفضلية الصوم في شهر الله المحرم، حيث ورد في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**أفضل الصيام بعد رمضان شهرُ الله المحرم**».

ولهم في ذلك كلام يطول شرحه(٣)، وفيما يخص شعبان؛ لعلَّ من أقوى الحكم المُعللة لكثرة صيامه ﷺ في هذا الشهر، ما رواه أسامةُ بن زيد رضي الله عنه حين قال: يا رسول الله! لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: «**ذاك شهرٌ يغفلُ الناسُ عنه بين رجب ورمضانَ، وهو شهرٌ تُرفعُ فيه الأعمالُ إلى ربِّ العالمين، فأحبُّ أن يرفع عملي وأنا صائم**» أخرجه النسائي وإسناده حسن(٤).

---

(١) عبود بن درع: أحكام رجب وشعبان ٢٧.

(٢) المرجع السابق ٢٨.

(٣) الرسالة السابقة ٣١ - ٣٦.

(٤) جامع الأصول ٦/ ٣١٩.

وثبت الحديثُ في «صحيح ابن خزيمة»[(١)].

وفي الحديث يعلل كثرة صيامه ﷺ في شعبان بأمرين:

١) غفلة الناس في هذا الشهر عن العبادة والطاعة بين رجب ورمضان.

٢) ولأن الأعمال ترفع في شهر شعبان لرب العالمين، فيحب ﷺ أن ترفع وهو صائم.

أيها المسلمون: وثمة أمرٌ ثالث وميزة لشهر شعبان، تفسر كثرة صيامه ﷺ فيه، فقد ورد أن الله يكتب المنايا في السنة في شعبان.

قال ابن حجر: وجاء في «مسند أبي يعلى» عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم شعبان كلَّه، فقلت: يا رسول الله! أراك تصوم في شعبان ما لا تصوم في غيره؟ فقال: «**إن الله يكتب على كل نفسْ منيةَ تلك السنة، فأحبُّ أن يكتب أجلي وأنا صائم**». وحسَّن الحديث بعضهم[(٢)].

إخوة الإيمان: أما الميزة الرابعة في شهر شعبان، فهي مغفرة الله لجميع خلقه إلا لمشركٍ أو مشاحن، وذلك ليلة النصف من شعبان، فقد ورد في «سنن ابن ماجه» بسند حسن -كما قال الألباني- عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى ليطَّلعُ في ليلة النصف من شعبان فيغفرُ لجميع خلقه، إلا لمشركٍ أو مشاحنٍ**»[(٣)].

وروي ذلك عن عدد من التابعين -كما في «مصنف عبد الرزاق»- وروي عن

(١) عبود بن درع، أحكام رجب وشعبان ٣٥.
(٢) عبود بن درع: أحكام رجب وشعبان ٣٦.
(٣) صحيح الجامع الصغير ٢/ ٢٨ (ح١٨١٥).

عطاء ومكحول، والفضل بن فضالة، وقال المنذري: مرسل جيد[١].

وعن ليلة النصف من شعبان قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله في «الاقتضاء» (٢/ ٦٣١، ٦٣٢): وروي في فضلها من الأحاديث المرفوعة ما يقتضي أنها ليلة مفضلة، وهناك من السلف من كان يخصها، وهناك من العلماء من السلف من أنكر فضلها.. ولكن الذي عليه كثيرٌ من أهل العلم أو أكثرهم -من أصحابنا وغيرهم- على تفضيلها، وعليه يدل نصُّ أحمد في «المسند»[٢] - عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: **«يطلع الله ﷻ إلى خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لعباده إلا اثنين: مشاحن وقاتل نفس»**. وفيه: **«إن الله يغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب»**[٣]... إلى أن قال: فأما صومُ يوم النصف مفردًا فلا أصل له، بل إفراد مكروه، وكذا اتخاذُه موسمًا تُصنع فيه الأطعمةُ، ويظهر فيه الزينة، هو من المواسم المحدثة المبتدعة التي لا أصل لها، وكذلك ما قد أُحدث في ليلة النصف من الاجتماع العام للصلاة الألفية في المساجد الجامعة ومساجد الأحياء والدروب والأسواق.. فذلك لم يشرع، بل مكروه، فإن الحديث الوارد في الصلاة الألفية موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث.

والصلاة الألفية هي التي يزعمون أنه ورد الفضلُ بقراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٤] فيها ألف مرة[٥].

عباد الله: وإذا حرصتم على السنة فصمتم من شعبان ما قدر الله لكم اقتداءً

---

(١) ابن درع: أحكام رجب وشعبان ٤١. (٢) (٢/ ٦٧٦).

(٣) المسند: ٦/ ٢٣٨، والترمذي، وابن ماجه، (هامش الاقتضاء): ٢/ ٦٣١.

(٤) سورة الإخلاص.

(٥) تحقيق د. ناصر العقل للاقتضاء ٢/ ٦٣٢.

بهدي النبي ﷺ، وتحرّيتم مغفرة ربّكم ليلة النصف من شعبان، فابتعدتم عن الشرك بالله، ومشاحنة خلقه، فإياكم أن تتعدوا إلى البدعة.. فكلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار.. والوقوف عند السنة خيرٌ من الاجتهاد في البدعة، وما صحّ من العبادات والطاعات فيه غنية للمسلم، و«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ» كذا صحّ عن النبي ﷺ.

اللهم بارك لنا في شعبان، وبلّغنا رمضان، وأرنا الحقّ حقًّا وارزقنا إتباعه، والباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، يا سميع الدعاء.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

اللهم انفعنا بهدي القرآن والسنة، واكفنا شرَّ الحادثات المبتدعة في الدين، وسلمنا من الفتن يا رب العالمين.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين.



(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، أكمل الدين وأتمَّ النعمة على المسلمين، وأشهد أن لا إله إلا الله أمرنا بالعبادة الخالصة له: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾(١).

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، حثَّ أمته على سنن الهدى، ونهاهم عن البدع المحدثات في الدين، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

إخوة الإسلام: وإذا كانت الصلاة الألفية من بدع شعبان -سواء صلى المصلي مئة ركعة وقرأ فيها بكل ركعة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات، أو صلاها عشر ركعات وقرأ في كل ركعة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مئة مرة.

فمن الأمور المنكرة البدعية أن يعتقد معتقدٌ أن ليلة النصف من شعبان أفضلُ من ليلة القدر، وربما زعم بعضهم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾(٢) المقصودُ بها ليلة النصف من شعبان.

قال ابن العربي: من قال بأنها ليلة النصف من شعبان فقد أعظم الفرية على الله.

ومن البدع أيضًا الاجتماعُ بعد المغرب والعشاء من هذه الليلة لقراءة سورة ياسين ثلاث مرات بصوت جماعي، وقراءة دعاءٍ بعدها، وهذا كلُّه لا نصَّ فيه(٣).

أيها المسلمون عظموا شرع الله، وإياكم والبدع والمحدثات ما ظهر منها وما بطن، في كلِّ زمان أو مكان، وتأملوا الحديث في «صحيح مسلم» عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوتُه، واشتد غضبه، حتى كأنه

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٣) ابن درع: أحكام رجب وشعبان ٤٥.

منذرُ جيشٍ يقول: صبّحكم ومساكم ويقول: «**بُعثتُ أنا والساعة كهاتين**» ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى -ويقول: «**أما بعد: فإن خير الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ بدعة ضلالةٍ**»[(١)].

وفي رواية للنسائي: «**وكلَّ ضلالة في النار**».

عباد الله: وتذكروا دائمًا فيما تعملون أو تذرون قول النبي ﷺ -كما في الحديث الصحيح عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال ﷺ: «**إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ بدعةٍ ضلالة**».

قال ابن تيمية رحمه الله: وهذه قاعدة قد دلت عليها السنةُ والإجماع، مع ما في كتاب الله من الدلالة عليها أيضًا، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[(٢)].

ثم قال-يرحمه الله-: فمن ندب إلى شيء يتقربُ به إلى الله، أو أوجبه بقوله أو بفعله من غير أن يشرعه الله، فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، ومن اتبعه في ذلك فقد اتخذه شريكًا لله شرع من الدين ما لم يأذن به الله..[(٣)].

وهكذا -إخوة الإيمان- تبدو خطورة البدعة على من شرعها أو عمل بها.. كما قرر العلماء.

بل يقرر ابنُ تيمية أيضًا: إن هذا المُشرَّع قد يكون متأولًا في هذا الشرع، فيغفر له لأجل تأويله إذا كان مجتهدًا الاجتهاد الذي يُعفى معه عن المخطئ ويُثابُ أيضًا

---

(١) مسلم ٣/ ٥٩٢ ح٨٦٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢١.
(٣) الاقتضاء ٢/ ٥٨٢.

على اجتهاده، لكن لا يجوز إتباعُه في ذلك، كما لا يجوز إتباعُ سائر من قال أو عمل قولًا أو عملًا قد عُلم الصواب في خلافه.. إلى أن يقول ابن تيمية: فمن أطاع أحدًا في دينٍ لم يأذن به اللهُ في تحليل أو تحريم أو استحباب أو إيجاب، فقد لحقه من هذا الذمِّ نصيبٌ، كما يلحق الآمر الناهي أيضًا نصيب.

عباد الله: وحين يُحذر العلماءُ من البدع، فلما لها من آثار في تقويض السنن. يقول ابن تيمية معلقًا على حديث: «**ما أحدث قومٌ بدعةً إلا نزعَ الله عنهم من السُّنة مثلها**» يقول: إن الشرائع أغذية القلوب، فمتى اغتذت القلوب بالبدع، لم يبق فيها فضل للسُّنن، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث[١].

ومن رام المزيد فليرجع إلى «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم».

أيها المسلمون: ومن مسائل شعبان: روى أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا انتصفَ شعبانُ، فلا تصوموا**».

وفي رواية الترمذي: «**إذا بقي نصفٌ من شعبان، فلا تصوموا**»[٢].

وفي رواية عند أحمد: «**إذا انتصف شعبان فلا تصوموا حتى يكون رمضان**»[٣].

قال بعض العلماء: وهذا محمول على من يُضْعِفُهُ الصوم، لأجل أن يتقوى على صيام رمضان، أما من لا يضعفه أو له عادة الصيام، ولا ينوي بذلك الاحتياط لرمضان، فلا حرج عليه في الصيام، قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يتقدَّمنَّ أحدُكم**

(١) الاقتضاء ٢/ ٦٠١.

(٢) جامع الأصول: ٦/ ٣٥٤، وصحّحه المحقق.

(٣) صحيح الجامع الصغير ١/ ١٦٨.

رمضانَ بصوم يوم أو يومين إلا أن يكون رجلًا كان يصوم صومًا فليصمْهُ» أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما[1].

وبقي أن نذكر بأهمية وضرورة التعجيل بالقضاء لمن عليه شيء من رمضان السابق، وذلك قبل حلول شهر رمضان القادم، فلا تتهاونوا عباد الله فيما أوجب الله عليكم، ودَيْن الله أحقُّ بالقضاء.



(١) جامع الأصول: ٦/ ٣٥٤. الهامش ١. وانظر: «أحكام رجب وشعبان» ص٣٧، ٣٨.

نذر الكوارث والمعاصي[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله ربّ العالمين، ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[2]، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4]، يخوّف عباده بآياته ونذره، وهو القائل في محكم تنزيله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[5].

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، كان أزكى البرية وأتقاها، وكان أخوف الناس لربه، وأكثرهم تضرعًا له، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[6].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٥/ ١٠/ ١٤٢٠هـ.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٢.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٤.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ١٧.

(٦) سورة الحشر، الآية: ١٨.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[(١)].

عباد الله: والمتأملُ ببصيرةٍ -يرى- في هذه الشهور والأيام مزيدًا من آيات الله ونذره، تعمُّ الأرض، وتهلك من تُهلك من البشر والشجر والحيوان، تهدُّ العوامرَ، وتعصف بالحياةِ والأحياء، وتُحيل المدن الكبرى إلى مجموعة من الركام والأنقاض. لا يستوقفها سدٌّ منيع.. ولا تُحيط بها قوة أو تستطيع أن تمنعها منظمةٌ أو هيئة -مهما أُوتيت من قوة ومعرفة. زلازلُ مدمرة، وأعاصيرُ مهلكة، وفيضانات مفسدة، وانهيارات مروعة، جفافٌ وجدب، خسوف وكسوف، انزلاقات، وسيولٌ، وكوارث، جوعٌ وأمراض وقتلٌ وتشريد.. ولا ندري ما بغيب الله في المستقبل.. ولكن الواقع منذرٌ بخطر، ومخوّف لأولي الأبصار، ومفزعٌ لأهل الإيمان الذين يتخوفون من عقوبة الله وقبضته.

أيها المسلمون: والمطالعُ لما يُنشر في الصحف من عناوين مثيرةٍ يروعه الأمر -ودونكم نماذج ممّا نُشر منها خلال الأشهر الماضية- فتأملوها واعقلوا فيها ما نُذر:

زلزالان يضربان تركيا ويثيران الرعب فيها ١/ ٨/ ١٤٢٠هـ.

زلزال قوي يهز شمال إيران ١٢/ ٨/ ١٤٢٠هـ.

إيطاليا تُعلن حالة الطوارئ في مناطق الفيضانات ١٠/ ٩/ ١٤٢٠هـ.

فنزويلا: الشوارع اختفت تحت ركام الأوحال، خمسة آلاف قتيل، وعشرون ألف مصاب، ومئة وخمسون ألف مشرّد ١٣/ ٩/ ١٤٢٠هـ.

الهند ترحب بالمساعدة الدولية للتغلب على آثار الإعصار المدمّر ٣٠/ ٧/ ١٤٢٠هـ.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١.

انهيار عددٍ من المنازل في الجزائر بسبب الفيضانات ١٣/ ٩/ ١٤٢٠هـ.

في فيتنام إضافة إلى تهديد سبعة ملايين شخص بالجوع والمرض الفيضانات تقتل خمس مئة شخصٍ، وتُنزل خسائر بنحو أربعة وأربعين مليون دولار ٣٠/ ٧/ ١٤٢٠هـ.

السيولُ الفرنسيةُ تثير الجدل حول الوقاية من الكوارث الطبيعية ٨/ ٨/ ١٤٢٠هـ.

المكسيك ارتفاعُ عدد قتلى الزلزال ٢٢/ ٦/ ١٤٢٠ هـ.

كمبوديا تجاوزت أسوأ فيضانات ٢٨/ ٧/ ١٤٢٠هـ.

زلزال قوي يضربُ منطقة توهوكو اليابانية ٨/ ٨/ ١٤٢٠هـ.

توقف البحثُ عن ناجين من الانهيار الأرضي في إندونيسيا ٥/ ٩/ ١٤٢٠هـ.

انزلاقات التربة تقتل وتصيب اثني عشر شخصًا في كولومبيا ١٣/ ٩/ ١٤٢٠هـ.

إلى غير ذلك من أحداثٍ داميةٍ. . ونذرٍ إلهية تمتد في مشرق الأرض ومغربها، وشمالها وجنوبها -فماذا تعني هذه النذر. وما سبلُ الخلاصِ من العقوبات والبلايا والمحن؟

أيها المؤمنون: لقد عمَّ الفساد وكثر المفسدون على وجه الأرض، وصدق الله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[1] وما أعظم العبرة في قول ربِّنا: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[2].

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

لقد أنعم الله على عباده ففجَّر لهم مكنوز الأرض، وفتح لهم أبوابَ السماء.. فاتخذوا من نعمِ الله وسائل للكفرِ والتمردِ على شرعه -إلا من رحم الله- وانتشر الظلمُ والفساد، وكثر القتل والتشريد، وأصبحت لغةُ القوة لغة التخاطب، وبها يأكل القويُّ الضعيف -وربّك يرى ويسمع ويمهل ولا يُهمل، يسبق حلمُه غضبَه، ولكن أخْذَه أليمٌ شديد: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

أيها المسلمون: ويختلف أهلُ الإيمان عن أهل الكفر والفسوق والظلمِ والعدوان في نظرتهم لهذه الكوارث والأحداث الكونية، فإذا أصابت الغفلةُ القومَ الكافرين - ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[3] - فأهل الإسلام والإيمان لهم نظرةٌ أخرى وميزانٌ آخر، تخوّفهم الآيات والنُّذُر، ويربطون بينها وبين كثرة المعاصي والذنوب، وفي كتاب ربهم العزيز: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[4].

ويقولُ أحدُ علمائهم الربانيين -شيخ الإسلام-: ومن المعلوم بما أرانا الله من

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٧.

(٢) سور القصص، الآية: ٥٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

آياته في الآفاق وفي أنفسنا، وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، وأن الطاعة سبب النعمة[١].

ويقول رباني آخر -ابن القيم-: ومن عقوبات الذنوب أنها تُزيل النِّعَم، وتُحِلُّ النقم. ومن تأمل ما قصّ اللهُ في كتابه من أحوالِ الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد أن سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمرِه وعصيانُ رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال عنهم من نعم وجد ذلك من سوء عواقب الذنوب[٢].

إخوة الإيمان: والمخيفُ في الأمر أن العقوبة إذا حلَّت شملت الجميع إلا من رحم ربُّك. وفي التنزيل: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٣].

وفي «صحيح البخاري» (بابٌ إذا أنزل الله بقوم عذابًا) قال رسول الله ﷺ: «**إذا أنزل اللهُ بقومٍ عذابًا أصاب العذابُ من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالِهم**».

قال الحافظ ابن حجر معلقًا على الحديث: وفي الحديث تحذيرٌ وتخويف عظيم لمن سكت عن النهي، فكيف بمن داهن؟! فكيف بمن رضي؟! فكيف بمن عاون؟ نسأل الله السلامة[٤].

وفي الحديث الآخر: أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثُرَ الخَبَثُ**». فإذا قيل هذا للصحابة الكرام، فما الظنُّ بغيرهم؟

إخوة الإسلام: وإذا كان السكوتُ على المنكرات سببًا للهلاك، فلا شك أن

(١) ابن تيمية «الفتاوى» ٢٨/ ١٣٨.

(٢) ابن القيم: الجواب الكافي.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٤) الفتح ١٣/ ٦٠، ٦١.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للنجاة: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾(١).

قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ اللهُ أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يُستجابُ لكم**» رواه الترمذي وحسَّنه.

قال العالِمون: وأيُّ دين، وأيُّ خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك وحدوده تُضاع، ودينه يترك، وسنة رسوله ﷺ يُرغب عنها وهو باردُ القلب، ساكتُ اللسان، شيطانٌ أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطانٌ ناطق، وهل بليّة الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلُهم ورياستُهم فلا مبالاة بما جرى على الدين.

أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢).

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وسنة نبيه ﷺ.



---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، يبتلي عباده بالخير والشر فتنة وإليه يرجعون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا يُردُّ بأسُه عن القوم المجرمين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، حذّر أمته من الفتن والمعاصي وأرشدهم إلى العبودية الحقة. . ومن يضلل الله فما له من هادٍ، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أيها الناسُ: ويختلف كذلك أهلُ الإيمان عن أهل الكفر عند حلول النكبات أو التوقعات والمرتقبات. . فأهلُ الكفر يُصيبهم من الهلع والجزع والذعر والقنوط واليأس ما هو خليقٌ بأمثالهم، ممن لا يؤمن بالله ولا يتوكل عليه. . أما أهلُ الإيمان فهم وإن خافوا وفزعوا فهو خوفٌ وفزعٌ إلى الله وفرارٌ إلى الله منه؛ يهديهم ذلك الخوف إلى مزيد الإيمان به والخوف من بأسه وعقوبته، ويدعوهم ذلك إلى مزيد طاعته، والجهاد في سبيله، والدعوة إلى دينه، والتخفف من الآثام والسيئات، وإعادة النظر في الأحوال والسلوكيات. . ذلكم خوفٌ إيجابي. . وفزعٌ مرغوب، يحققون به الإيمان. . ويخشون صاحب الانتقام. . يتضرعون إلى الله، ويلجئون إليه استجابةً لأمر ربِّهم ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1]. ويجأرون بالدعاء وهم مؤمنون.

يقول حبيبهم ﷺ: «**لا يردُّ القدرَ إلا الدعاءُ**» رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

ويقول ﷺ: «**لا تعجزوا في الدعاء، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد**»، رواه

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٣.

الحاكمُ وصححه، وابنُ حبان في «صحيحه».

ولا يتوقفون في الدعاء عند حلول المصائب، بل شأنهم الدعاء في الشدائد والرخاء، وفي الحديث: «**من سَرَّه أن يُستجابَ له عند الكربِ والشدائدِ، فليكثر الدعاءَ في الرخاءِ**» رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

ويفئ المسلمون -في حال الكروب والشدائد- إلى الاستغفار والتوبة مؤمنون بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

وقوله: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2].

إخوة الإيمان: أحدثوا لله توبة كلما أحدثتم وارتكبتم معصية، وعظموا أمر الله، واستشعروا شدة عقابه، واعلموا أنه ليس القصدُ من النجاة حين الكروب نجاة الأبدان فحسب.. أو طلب النجاة في الدنيا فقط.. بل أهمُّ من ذلك صلاحُ القلوب.. والنجاة من عذاب الله يوم الفزع الأكبر.

إن الاهتمام بنجاة الأبدان فحسب وطلب البقاء في الحياة بأي شكل من الأشكال -سمةُ قوم قال الله عنهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[3].

أيها المؤمنون: وعلى مدى التاريخ كانت تحصل كوارث أو زلازل، ولكن المؤمنين كانوا يقفون منها موقف الاعتبار والاتعاظ، ويُذكِّر بعضُهم بعضًا.. أخرج ابنُ أبي شيبة في «مصنفه» بإسناد صحيح، والبيهقي في «سننه» عن صفية بنت

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٦.

أبي عبيد، قالت: زُلزلت الأرض على عهد عمر ﷺ حتى اصطفقت السرر، فخطب عمرُ الناس فقال: أحدثتم لقد عُجلتم! لئن عادت لأخرجنَّ من بين ظهرانيكم[١].

وأخرج ابن كثير عن قتادة -رحمهما الله- قال: ذُكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود ﷺ، فقال: أيها الناس! إن ربَّكم يستعتبكُم فأعتبوه. أي: يطلب منكم العتبى وهو الرجوع إلى ما يرضيه.

أيها المسلمون: حذار من الغفلة ففيها العطب، وحذار من الغرور فيعقبه الندم وربنا يذكرنا ويحذرنا من غرور الدنيا بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[٢]. إياك أخا الإسلام أن تمتد بنظرك إلى أخطاءِ غيرك وتتناسى أخطاءك.

ابدأ بنفسك، فإنْهَهَا عن غيِّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

ثم انتقل بعد ذلك في الإصلاح والدعوة إلى الأقربين والأبعدين.. كن مشعلًا يضيء الخير أينما حلّ أو ارتحل، كن من مفاتيح الخير.. ومغاليق الشر.. والحذر أن تغتر بعملك أو تغرك صحتُك وقوتُك، أو تأمن مكر الله، فلا يأمن مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون، ولا تنسَ أنك مخاطبٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[٣].

يا عبد الله: حاسب نفسك قبل أن تُحاسب، ولا تنظر إلى الهالك كيف هلك،

(١) السيوطي: كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٣٣.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٥.

ولكن انظر إلى الناجي كيف نجا.. ولا تمتدَّ بك حبالُ الأماني والغرور.. فالعمرُ قصير.. والأجل محدودٌ، والناقد بصير، وموقف العرض على الله عسير، إلا على من يسَّره الله عليه، وإن يومًا عند ربِّك كألف سنةٍ مما تعدون.

تأمل في مطعمك ومشربك، وانظر ماذا ترى وتسمع، وماذا تُسِرُّ وتعلن.. ولئن خفيت منك اليوم خافية، فهناك في أرض المحشر يكشف الغطاءُ وتتكلم الجوارح: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

تذكر هول الموقف.. يوم يقام عليك الشهودُ من نفسك: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

لقد جاءتك من ربك النذر.. ومن تذكَّر فإنما يتذكر لنفسه.. وصدق الله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

اللهمَّ أنقذنا من دَرَكاتِ الغفلة.. وارحمنا يوم النقلة، وأصلح فسادَ قلوبنا.



---

(١) سورة يس: الآية: ٦٥.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢١.
(٣) سورة يس، الآية: ٧٠.

قضايا المسلمين[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله أمر بالعدل والإحسان، ونهى عن الفحشاء والبغي والعدوان، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، له مقاليدُ السماوات والأرض، أزمَّة الأمور بيده، ومفاتيحُ الفرج عنده، أغنى وأقنى وأضحك وأبكى، وهو أعلم بما كان ويكون، وإليه المنتهى، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولهُ، الناصحُ الأمين، والشافعُ المشفّع في المحشر، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[3].

أيها المسلمون: طالعتُ في الأيام الماضية، وفي جريدة الرياض العناوين التالية:

١ - الهدف السهل. ٢ - البلقان والقوقاز.

وتحت العنوان الأول (الهدف السهل) افتتح صاحبُ المقال الكريم مقاله قائلًا: حملةٌ جنونية عاتية تقودها (روسيا) لتحطيم (جمهوريات القوقاز الإسلامية) وبالذات جمهورية الشيشان، تحت ستار محاربة «الإرهاب الإسلامي»، المطاراتُ

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢٨/ ٦/ ١٤٢٠هـ.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

والجسور، ومحطاتُ الكهرباء، والطرق، والبناياتُ وكافةُ تجهيزاتِ البنيةِ الأساسية في جمهورية الشيشان تتعرض للتدمير على أيدي القوات الروسية.. (ويستمر الكاتب قائلًا): ويبدو أن التدمير الذي حدث حتى الآن لا يعتبر كافيًا من وجهة نظر الحكومة الروسية.

ثم يشير الكاتب إلى شيء من المشاهد المأساوية لشعب الشيشان جرّاء قصف الروس.. ثم ينتقل إلى الحملة الإعلامية الروسية ضد الإسلام وأهله واعتبارهم المسلم الروسي مواطنًا من الدرجة الثانية، وهو معرض للاعتقال والحجز لمجرد انتمائه للجمهوريات الإسلامية. ويختم المقال بقوله: وقد وجدت الحكومةُ الروسيةُ في هذه التطورات الأخيرة وسيلةً لحشد التأييد الشعبي حولها، لكي تتجاوز بعض مشكلاتها المزمنةِ، وهكذا انقضَّت بلا هوادةٍ على أهل الشيشان وداغستان.. ثم يقول أخيرًا: مساكين مسلمو اليوم، لقد صاروا هدفًا سهلًا للجميع[(١)].

أما المقالُ الثاني (البلقان والقوقاز) فيستهله كاتبُه بالقول: ما جرى ويجري في أوروبا، سواء في البلقان أو في القوقاز من حملات واشتباكاتٍ عسكريةٍ دينيةٍ أو مذهبية، لا يمكنُ أن يكون عفويًا أو غرائزيًا بحتًا كما تصوره أجهزةُ الإعلامِ العالمية، وأغلبُ الظنِّ أن هناك وراء هذه الظواهرِ يدًا ترى في توتير المشاعر الدينية والمذهبية تمارين في التعصب والكراهية، تتحول بها المجتمعات من العقلانية إلى العصبية العمياء.. إلى أن يقول: إن من حق الناس في كل مكانٍ أن يتحسسوا فظاعة هذه التمارين الآثمةِ التي تُزجُّ فيها شعوبٌ وجيوش، لتخرج منها

---

(١) د. عبد الواحد الحميد، الرياض، عدد ١١٤٢٤ تاريخ ٢٤/٦/١٤٢٠هـ.

أشدَّ تشنجًا وكرهًا للسلام والقانون والعيش المشترك والآمن[١].

أما المقال الثالث -وهو في الجريدة نفسها- فأكتفي منه بالعنوان التالي (مئة ألف لاجئ شيشاني يعيشون ظروفًا قاسيةً في الأنغوش).

إخوة الإسلام: ماذا نقول ونعلّق إزاء هذه الأحداث الدامية والمصائب المتتالية على إخواننا المسلمين، مرةً في أوروبا، وأخرى في روسيا، وثالثةً في كشمير، ورابعة في الفلبين.

ومن قبلُ ومن بعدُ يثعب الجرحُ دمًا في فلسطين، ويجثم الصهاينة على المقدسات، ويسقون المسلمين كؤوس الذل والمهانات، بل ويتجاوزون حدودهم بالتعاون مع الآخرين لضرب المسلمين، وفي مجلّة المجتمع الكويتية عنوان «روسيا تتعاون مع الموساد وتدعو لمحاصرة الشيشان»[٢]. إلى غير ذلك من قضايا إسلاميةٍ ملتهبةٍ هنا أو هناك.

والسؤال المطروحُ هنا: ما موقفُ العالمِ مسلمِهم وكافرهم من قضايا المسلمين؟ وما نوعُ التعامل معها؟

إن الإجابة على هذا السؤال -وما يدور حوله- تحتاج إلى عدةِ وقفاتٍ، منها:

الوقفة الأولى: الإجماعُ الدوليُّ على خطورةِ قضايا المسلمين وتحركاتهم، حتى وإن كانت قليلة العدد، ضعيفةَ العتاد -وهذا جزءٌ من تخوفهم من الإسلام، وخشيتهم من عودة المسلمين لدينهم.

ثانياً: التعاونُ من الدول ذات النفوذ -على شدة الحصار وقمعِ أيِّ تحركٍ

---

(١) منح الصلح، جريدة الرياض، العدد السابق.

(٢) عدد ١٣٩٦ في ١٨ - ١٤٢٠/٦/٢٤هـ.

إسلاميٍّ، ومحاولة إجهاض أي نجاحٍ يحصل بانتصار المسلمين.

ثالثًا: الكيل بموازين مختلفةٍ باختلاف القضايا ونوعيتها. فإن كان العنصر فيها يهوديًا أو نصرانيًا -أو مواليًا لهم- رأيت حماسًا ودفاعًا منقطع النظير، وإن كان العنصرُ المتضررُ إسلاميًا فالتهميشُ والمواطأةُ على التضييق والحصار، بل والمساعدات ما خفي منها وما ظهر.. وفي أحداث (تيمور الشرقية) نموذجٌ لكشف القناع، وليس حماسُ الدول الكبرى لها لكثرة سكانِها ولا لتميُّزٍ في اقتصادها، وإنما لكون غالبية سكانها من الكاثوليك النصارى! إضافة إلى المطامع الدولية في المنطقة. وفي سبيل ذلك تتواجد القواتُ الدولية في تيمور، وتُجبرُ إندونيسيا ويضغطُ عليها حتى تقبل بالأمر الواقع، علمًا بأن سكان تيمور لا يبلغون مليون نسمة، ومن هنا تساءل المراقبون المنصفون: أيهما أولى بالجمهورية المستقلة (تيمور) ذات الخمسين وثمان مئة ألف نسمة، أم (القوقاز) ذات الملايين العشرة، و(كشمير) ذات الخمسة عشر مليونًا، (ومورو) ذات الملايين السبعة؟

رابعًا: وفوق هذا الغشِّ في المكاييل، فهناك تشويهٌ متعمدٌ وغيرُ مقبول، وغشٌّ آخرُ في المصطلحات -ولا سيما من دولٍ تزعم رعاية الحريةِ، وتتشبث بالديمقراطية، فإذا كانت القضيةُ -موطن النزاع- لصالح غير المسلمين، رُفع شعار السلام والأمن والاستقرار -كمبرر للتدخل- وإذا كان المسلمون طرفًا في النزاع سمعت مصطلح الإرهاب، ودعوات الانفصال، والتمرد، وملَّ سمعُك من ترداد عبارات (المتعصبين والأصوليين والمتطرفين المسلمين) ونحوها من عبارات التشويه المتعمد؛ وهل سمعت يومًا مصطلح الإرهاب يوصف به اليهود من قبل دول الغرب وحلفائها؟ وهل رأيت أشدَّ إرهابًا من اليهود؟! ومن حق العالم كله أن يأنف من مصطلح السلام -وتلك صوره وتطبيقاتُه- ومن حقه كذلك أن يرفض

مصطلحات الإرهاب والتطرف، إذا خُص بها قومٌ دون آخرين.

خامسًا: ومن حق العالم كذلك ألا ينخدع بمصطلح (العولمة) ولا يقبل به، فهي ليست عولمةً قائمةً على العدل والإنصاف وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقّه، لكنها نوعٌ من فرض الوصاية لفكر معين وأيدلوجية خاصة - يرضى عنها الغربُ وحلفاؤهم، وهي من جانب آخر هيمنةٌ اقتصاديةٌ وسياسيةٌ وإعلامية لدولٍ معينة ينبغي أن يكون العالمُ كلُّه تبعًا لها، ولا اعتبار فيها للدين الحق، ولا للمسلمين أصحاب الرسالة الحقة، بل الهدفُ تذويبهم وإماتةُ الشعور الإسلامي في أذهانِهم، وفوق ذلك كله محاولة تقليص عددهم، ومن العناوين المثيرة قرأتُ العنوان التالي (القلق الأمريكي من تزايد النسل في اليمن) وفي ثنايا الخبر مساعدة أمريكية لليمن مشروطة، بل ومضمَّنة نوعًا من عقاقير منع الحمل. فقد أقلقهم أن نسبة استخدام منع الحمل عند اليمنيات بلغت ١٣%، وهو من أكثر المعدلات انخفاضًا في العالم[١].

عباد الله: لا نستغربُ هذا أو غيره من أعدائنا، والله تعالى يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[٢]، ولكن المستغرب حقًا مواقفُ المسلمين تجاه قضايا إخوانهم المسلمين. وقد ألف العالم -مع كل أسفٍ- مسلمهم وكافرهم -إلا من رحم الله- أخبار المآسي الواقعةِ على الأقليات المسلمة، وعاد نزيفُ الدماء وتناثر الأشلاء وارتفاعُ أصوات الأيامى والصبايا بالبكاء لا يحركُ ساكنًا، وإن حرّك كان عاطفةً لا تلبث أن تبرد وتسكن، وقلَّ أن يتبعها عملٌ منظم، وإجماع محكم -من المسلمين على الأقل- ينتصر للمظلوم ويمنع الظالم.

وكم يذكر التاريخُ للمعتصم العباسي استجابته لصرخةِ امرأةٍ مسلمة سيّر على

---

(١) المجتمع الكويتية ١٨ - ٢٦/٦/١٤٢٠هـ.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

أثرها جيشًا عظيمًا لتأديب الروم والانتصارِ للمظلوم، وأين مثلُ هذا في واقع المسلمين اليوم؟

رُبَّ وامعتصماهُ انطلقتْ ملءَ أفواهِ الصَّبايا اليُتَّمِ
لامَسَتْ أسماعَهُم لكنها لم تُلامسْ نخوةَ المُعتصمِ

كم يحزن القلبُ، وتدمع العين حين نسمع عن أعداد من المهاجرين المسلمين يهيمون على وجوههم في بيداءَ مهلكة، بحثًا عن المأوى، وطالبًا للقمة العيش، وقد يُقصفون في ثنايا الطريق، ولربما ماتوا عطشًا أو جوعًا في رحلة التشريد والتجويع، وهل دماء المسلمين رخيصة إلى هذا الحد؟! وهل قضايا المسلمين بالمهانة إلى هذا القدر؟! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[1].



(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٣.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حكم بأخوة المؤمنين، وإن اختلفت أجناسهم، أو تباعدت أوطانهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١]. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل ولاية المؤمنين لبعضهم دون الكافرين والمنافقين: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[٢].

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، جعل من لوازم الأخوة في الدين النصرة والمودة والتراحم: «**مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحُمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائرُ الجسد بالسَّهر والحُمّى**»[٣]. اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

أيها المسلمون: وباسم الإسلام نخاطبكم، وبأخوة الإيمان نناديكم للتعرض على قضايا إخوانكم المسلمين ومساندتهم، ومن هَدْي المصطفى ﷺ قوله: «**المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضًا**» وشبك بين أصابعه.

قال القرطبي رحمه الله تعليقًا: هذا تمثيلٌ يفيد الحضَّ على معاونة المؤمن للمؤمن ونصرتهِ، وإن ذلك أمرٌ متأكدٌ لا بد منه.

عباد الله:

الوقفةُ السادسة: ويتساءل المرءُ كثيرًا: وأين أمةُ المليار مسلم من قضايا إخوانهم، وماذا لو كان لهم هيئة عالمية تخصهم، ومنها تُصدر القرارات، وتكون

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) متفق عليه.

بحجم قرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن، وهل يليق بهم أن يعيشوا على موائد الآخرين، وينتظروا توجهاتهم وتوجيهاتهم؟!

إن أمة الإسلام غنية بأعدادها ومواردها، لكنه التفرقُ والتشرذم والغثائية التي أخبر عنها الصادق المصدوق: «**يوشك أن تداعى عليكم الأممُ كما تداعى الأكلة على قصعتها**»، قالوا: أمِنْ قلَّة نحن يومئذٍ؟ قال: «**بل أنتم كثيرٌ، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السَّيل**». والمأمول أن توحد هذه الضربات صفوفهم، وتجمع شتاتهم.

إن حركات الجهاد الإسلامي للتحرر من الظلم والعبودية، والتي تقوم بها الأقليات المسلمة -هنا أو هناك- محرجةٌ لأمة المليار مسلم، لا سيما إذا قدر لهذه الفئة المستضعفة -في نظر الآخرين- إحرازُ قدرٍ من الانتصار على دولٍ هي في طليعة الدول الكبرى، وماذا لو اجتمع شملُ المسلمين وتوحَّدت قواهم، وصدقوا في توجههم؟ لا شك أن النصر سيكون حليفهم، وسيحطمون كبرياء المتغطرسين الذين باتوا يهددون بلاد المسلمين ويستحوذون على مقدراتهم، وكأنهم أوصياءُ عليهم!

الوقفة السابعة: وهناك عنصرُ قوةٍ عند الشعوب المسلمة، لا يتوفر مثلُه عند الشعوب الكافرة، فالأعداءُ وإن فاقوا المسلمين على مستوى الحكومات في الدعم واتخاذ القرارات وتنفيذها حسبما يرون، ففي الشعوب المسلمة قابليةٌ للنصرةِ والمساعدة والإيثار بالنفس والمال لإخوانهم، ما لا يمكن أن يتوفر مثلُه عند غيرهم من أبناء الكفار، فكيف ومتى يستثمر المسلمون هذه القوة لصالحِ قضاياهم؟

إن المسلمين جميعًا -دولًا وشعوبًا- مطالبون -بإسلامهم- بإعداد القوة التي يرهبون بها عدوَّ الله وعدوَّهم، وذلك من الإرهاب المحمود كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ

﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾[1]. وإن رغمت أنوف الأعداء، واستغلوا مصطلح الإرهاب لصالحهم.

الوقفة الثامنة: ينبغي أن يُعلم أنه ليس كلُّ ما يحصل على المسلمين من محنٍ وبلايا وقتل وتشريد شرٌّ محضٌ، فقد يكون هذا الواقع السيّئ والظلمُ والتعسفُ الظاهر من قبل الأعداء موقظًا لعزائم المسلمين، محركًا لهممهم، داعيًا لتجميع طاقاتهم.

ونكاد نرى شيئًا من ذلك على صعيد الواقع، فلا تكادُ تُخطئ نظر المتابع.. تتابعُ حركاتِ المسلمين وتمسكهم بدينهم، ومطالبتهم برفض وصاية الأعداء عليهم -هذه الحركات تتجدد، وكلما ضعفت في مكان انبعثت من جديد -وفي مكان آخر- مؤكدةً حيوية المسلمين، وحماسهم لدينهم -رغم الضربات القاسية، ورغم المؤامرات الدَّوْلية ومؤكدةً كذلك أن الضغط يولد الانفجار، وأن هذه الضربات تغذي عواطف المسلمين تجاه إسلامهم، وإن ظن الأعداءُ أنهم يحرقونها بالجديد من أسلحتهم.

الوقفة التاسعة: وفي حسّ الفاروق عمر رضي الله عنه شعورٌ يَقِظٌ ورحمة بالحيوان ألا يتأذى في بلاد المسلمين: لو أن بغلةً في العراق سقطت لكان عمرُ مسئولًا عنها، لِم لمْ تمهدْ لها الطريق.

ولربما تبلد إحساسُ بعضِ المسلمين تجاه إخوانِهم المسلمين، فلم تُحرِّك مشاعرهم آلافُ الجثث، وبركُ الدماء، ومئاتُ الجوعى والعطشى، وأعدادٌ من النساء تُغتصب، وجموعٌ من الأطفال تُبادُ أو تُهجر تمهيدًا لطمس هويتها! وتحية للإعلام الذي يُعنى بقضايا المسلمين، وتحية للكتاب والمفكرين الذين تتسع دائرةُ

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

تفكيرهم لمثل هذه القضايا المهمة في واقع المسلمين، ومؤسف ومؤلم أن يَلُفَّ الصمتُ أفواه قادةٍ أو علماء أو دعاة أو مفكرين، فلا يشاركون إخوانهم المسلمين مشاعرهم ولو بالكلمة الصادقة التي تشحذ هِمَمَهم، أو تسليهم ببعض مصابهم.

الوقفة العاشرة: معاشر المسلمين جميعًا! إخوانكُم في الدين يستنصرونكم، والله يقول: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾(١)، ألا وإن أول وأسهل واجب للنصرة الدعاءُ لهم بالثبات والنصر، والدعاء على أعدائهم بالهزيمة والفشل.

ومن النصر لهم أن تكون قضاياهم حاضرة في أذهانكم ولها حجمها في تفكيركم، ولها حظٌّ من مشاعركم ودعمكم، وليس يخفاكم أثر الدعم المعنوي والمادي، ولا يخفاكم كذلك طرقه وقنواته.

ألا وإن إخوانكم المسلمين المستضعفين يستنزلون نصر ربهم بدعائهم ودعائكم ولا سيما في مثل هذه الأوقات الفاضلة.

اللهم منزل الكتاب، مجري السحاب، هازم الأحزاب، انصر إخواننا المسلمين في الشيشان وداغستان، وكشمير والفلبين وفلسطين، والبوسنة والهرسك، وفي كل مكان يا رب العالمين، اللهم ثبت أقدامهم، وارحم ضعفاءهم، وأطعم جياعَهم، وآمن روعهم، اللهم اشدد وطأتك على القوم الكافرين، اللهم أرنا بهم عجائب قدرتك.

عباد الله: ويتعاظم مصاب الأمة في موت العلماء الربانيين، في ظل هذه الظروف الحرجة للأمة، وفي الأيام الماضية توفي شيخ فاضلٌ، وعلم من أعلام

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

المسلمين نذرَ نفسه لخدمة السنة، فدعا وألَّف وتكلّم ودرَّس، وكان لجهوده أثر في عالمنا الإسلامي؛ إنه العلامة محمد ناصر الدين الألباني تغمده الله بواسع رحمته، وأحسن الله عزاء الأمة فيه، وعوَّض المسلمين عنه خيرًا.

اللهم ارفع درجته في المهديين، واخلُفه في عقبه الغابرين وافر لنا وله يا رب العالمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجوبه وفضله[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره..

إخوةَ الإسلام: وثمةَ شعيرةٌ من شعائر هذا الدين جاء الحثُّ عليها، بل والأمرُ بها في كتاب الله، وأشاد بها وأهلها رسولُ الله ﷺ في سنته، ومارسها المسلمون قديمًا ولا يزالون يتواصون بها، وإن اختلفوا في أساليب تطبيقها وقوة القيام بها بين جيل وجيل، وطائفة وأخرى، هذه الشعيرة سببٌ لحصول كلِّ خير، والوقاية من كل شر، إنها شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وصف الله بها نبيه ﷺ فقال: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[2]. وهذا الوصفُ بيانٌ لكمال رسالته[3]. بل وُصف بها وتمثلها الأنبياءُ قبله، ووصف بها الصالحون من أهل الكتاب: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4]، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾[5]، وما من نبي إلا قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[6].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٨/٦/١٤٢٠هـ.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) الفتاوى ٢٨/١٢١.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٥) سورة مريم، الآيتان ٥٤، ٥٥.

(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٣٢.

ووصف بها الصالحون من أهل الكتاب: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١).

ووصف بها الصالحون من هذه الأمة في غير ما موضع من كتاب الله من مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(٢).

وهي من الفوارق الكبرى بين أهل الإيمان وأهل النفاق، فقد وصف المنافقون بنقيض ما وصف به المؤمنون في الآية السابقة: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾(٣).

عبادَ الله: لقد استنبط الحسنُ رحمه الله من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٤).

إن في الآية دليلًا على أن الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر تلي منزلتُه عند الله منزلةَ الأنبياء، فلهذا ذُكر عقيبَهم.

بل عدّه بعضُ أهل العلم سهمًا مهمًا في الإسلام بعد أركانه الأساسية. عن حذيفة رضي الله عنه قال: الإسلام ثمانيةُ أسهم؛ فالإسلامُ سهم، والصلاة سهم، والزكاة

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٣، ١١٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) سورة التوبة: الآية: ٦٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

سهم، وصومُ رمضان سهم، والجهادُ سهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سهم»[١].

ونقل طائفة من أهل العلم الإجماع على وجوبه، وأنه من شعائر الإسلام الظاهرة، كالنووي، والجصاص، وابن حزم.

واعتبره شيخُ الإسلام ابنُ تيمية من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، تُقاتل الطائفةُ الممتنعةُ عنها[٢].

أجل إن خيريةَ الأمة وفلاحها مرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٣].

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

إنه الخيرُ الذي يؤمر به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، و«**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت**».

والرسالةُ الواجبةُ على كل مستطيع: «**من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان**».

وفي رواية: «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل**». إنها مسئوليةٌ يمارسها

(١) رواه البيهقي في «الشعب» ٧٥٨٥.
(٢) الفتاوى ٤/ ١٨١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

الوالدان مع أولادهما، والمعلمون والمعلمات مع طلابهم وطالباتهم، والمسئولُ في عملٍ أو على فئةٍ مع من يتولى مسؤوليتهم، والعالم على الجاهل، والمعافى على المبتلى، والجارُ على جاره، والمسلمُ بشكل عامٍ على أخيه المسلم حين يرى منه خطأً أو انحرافًا، أو يدعوه إلى معروفٍ وخيرٍ غائبٍ عنه أو جاهلٍ به.

وبالجملة فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة للخير همّ للجميع، ومسؤولية مشتركة، وهي تعكس خيرية المجتمع ووعيه، ولا سيما إذا حُملت للناس بقوالب جميلة، وحكمةٍ وموعظة حسنة.

ولقد كان للسلف اعتناءٌ بهذا الأصل العظيم وقيامٌ به، وكانوا يعدون من لم يقم به من أهل الريب، فعن جامع بن شدادٍ قال: كنتُ عند عبد الرحمن بن يزيد الفارسي، فأتاه نعيُ الأسود بن يزيد، فأتيناه نعزيه، فقال: مات أخي الأسودُ، ثم قال: قال عبدُ الله: يذهب الصالحون أسلافًا، ويبقى أهلُ الريب، قالوا: يا أبا عبد الرحمن وما أصحابُ الريب؟ قال: قومٌ لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر[1].

وكم تأسن الحياة ويفسد الأحياءُ إذا لم يبق إلا أهل الريب، وكم تفشو المنكرات، ويغيب المعروف إذا قلَّ الصالحون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وكم تتوارى المنكرات ويتستّر المفسدون بفسادهم إذا قويت شوكةُ الأمر والنهي، وكم يقوى سلطانُ الخير في النفوس، ويشيع المعروفُ في الناس، إذا قام قائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

تُرى يا أخا الإيمان: كم تُسهم في إحياء هذه الشعيرة بقولكِ وفعلك وفي أي

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» ٧٥٨٤.

موقع كنت؟ أم تراك تسند الأمر إلى غيرك، وتحاول اختلاق المعاذير لنفسك؟

لقد كان السلفُ يرون من لا يأمر ولا ينهى في عداد أموات الأحياء، وهذا حذيفةُ رضي الله عنه يُسأل: ما ميتُ الأحياء؟ قال: لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه[١]. وقيل لابن مسعود: من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا.

وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه[٢].

أعوذ بالله من الشيطان ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣].



(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» ٧٥٩٠.

(٢) الفتاوى ٢٨/١٢٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٤.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله إمام المتقين وخيرةُ الآمرين والناهين، اللهم صل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياءِ والمرسلين.

عباد الله: ويرتبط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فضائلُ ومزايا حريَّةٌ بأن تدعو المسلم للحصول عليها، إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر - على علم وبصيرةٍ بما يأمر به وما ينهى عنه، وبحلم وصبر -كما سيأتي البيان- ومن هذه الفضائل والمزايا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من علامات إيمان العبد - كما مرّ في الآية السابقة، وفي حديث عبد الله بن مسعود عن الخلوف التي تخلف؛ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، قال ﷺ: «**فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل**»[١].

ويقول الإمام أحمدُ موضحًا الفرق بين المؤمن والمنافق في القيام بواجب الأمرِ والنهي: يأتي على الناس زمانٌ يكون المؤمنُ فيه بينهم مثل الجيفة، ويكون المنافقُ يُشار إليه بالأصابع.

قال الراوي -عمرُ بنُ صالح-: يا أبا عبد الله! وكيف يشار إلى المنافق بالأصابع؟ يا أبا حفص! صيروا أمر الله فضولًا، وقال: المؤمنُ إذا رأى أمرًا بالمعروف أو نهيًا عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهى، يعني: قالوا: هذا فضول،

---

(١) رواه مسلم ح٥٠.

والمنافقُ كلُّ شيءٍ يراه قال بيده على فمه، فقالوا: نعم الرجل، ليس بينه وبين الفضول عمل[١].

وهكذا تتجدد المصطلحات والاتهامات، وربما قيل للآمر والناهي: هذا متعجل أو متسرعٌ أو يتحدث فيما لا يعنيه، أو صاحبُ فتنة.. وهكذا! والله المستعان.

ومن فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه سببٌ للرحمة، وفي آخر الآية التي وصفت المؤمنين بالأمر والنهي، خُتمت بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[٢]. وما أحوج الخلق كلَّهم إلى رحمةِ الله، وإنما يرحم اللهُ من عباده الرحماء، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر إنما قاموا بهذا الواجب رحمةً بالخلق، ولذا وصف أهلُ السنةِ بأنهم «يَعْلمون الحقَّ ويرحمون الخلق».

وحصول الأجر العظيم ورد إثر الأمر بالمعروف والإصلاح بين الناس، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾.. ثم ختمت الآية بقوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[٣].

وهنا يلحظ المتأمل أن الأجرُ نكِّر ووصف بأنه عظيم، وكفى بهذين دلالة على عظمه.

---

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال ٦٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٤.

والأمر بالمعروف بابٌ من أبواب الجهاد، بل أخبر النبي ﷺ أن أفضل الجهاد كلمةُ حق عند سلطان جائر.

وهو كذلك بابٌ من أبواب الصدقات، أرشد إليه ﷺ فقراء المهاجرين حين شكوا أنهم لا يجدون ما يتصدقون به، فقال: «**قد جعل الله لكم ما تتصدقون به؛ إن بكل تسبيحةٍ صدقة، وبكلّ تحميدة صدقة، وبكل تهليلة صدقة، وأمرٍ بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة**».

وبالأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر تُكفَّر السيئاتُ، وفي الحديث المتفق على صحته عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر، فقال: أيكُم يحفظُ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ قال فقلتُ: أنا، قال: إنك لجريءٌ! وكيف قال؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**فتنةُ الرجل في أهله وماله ونفسه وولدِهِ وجاره يكفّرها الصيامُ والصلاة والصدقةُ والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر..**» إلخ. الحديث[1].

بل وصح الخبر أنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُضاعف الأجر، ويعطون مثل أجور من سبق من هذه الأمة. فقد روى أحمدُ -وحسَّنه الألباني- أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من أمتي قومًا يعطون مثل أجورِ أولهم ينكرون المنكر**»[2].

عباد الله: ومن اللطائف أن حجية الإجماع لهذه الأمة مرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) البخاري ١٤٤، ومسلم ٥٢٥.

(٢) أحمد ح ٢٢٦٧٠، وهو في «صحيح الجامع».

قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله: ولهذا كان إجماعُ هذه الأمة حجةً؛ لأن الله تعالى أخبر أنهم يأمرون بكل معروفٍ وينهون عن كل منكر -هذا شيء- وشيء آخر أن الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر، سمةٌ تميز أمةَ الإسلام عن غيرها من سائر الأمم.

وعن ذلك قال شيخ الإسلام: وسائرُ الأمم لم يأمروا كلَّ أحدٍ بكلِّ معروف، ولا نهوا كلَّ أحدٍ عن كل منكر، ولا جاهدوا على ذلك، بل منهم من لم يجاهد، والذين جاهدوا كبني إسرائيل، فعامةُ جهادهم كان لدفع عدوِّهم عن أرضهم كما يُقاتلُ الصائلُ الظالم، لا لدعوة المجاهدين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فطائفة منهم قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[١]، والذين جاؤوا من بعد موسى علَّلوا القتال بأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم[٢].

ألا فحققوا -عباد الله- خيرية هذه الأمة وتميزها على الأمم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل وحققوا الخيرية والتوبة لأنفسكم، وللناس من حولكم بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عباد الله: وثمة فضائلُ ومزايا للأمر والنهي، بل وعقوباتٌ وآثارٌ سيئة مترتبة على تركه أو التخاذل في أدائه، وهناك فقهٌ للأمر والنهي وآدابٌ وصفات للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وإضافة إلى ذلك فهناك شبهات حرية بالبيان.. وهذه الأمور كلُها تحتاج إلى حديث آخر في خطبة متممة لهذه الخطبة -أسأل الله الإعانة والتسديد، وأعوذ بالله من فتنة القول وفتنة العمل.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

(٢) الفتاوى ٢٨/١٢٣ - ١٢٥ بشيء من التصرف.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آداب وصفات، وفقه الإنكار[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره.

إخوة الإسلام: سبق -في الخُطبة الماضية- بيانُ شيءٍ من فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنزلتِه في الإسلام، وأستكمل اليوم شيئًا من هذه الفضائل وأبسطُ القول في الآداب التي ينبغي وجودُها في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والصفات المناسب توفرها في الآمر والناهي، حتى يعمَّ الخيرُ والمعروف، ويتقلص الشرُّ والمنكر.

ولكني أستهلُّ ذلك بكلام جميل لابن القيم رحمه الله بيّن فيه منزلة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وعَرّض بالذين لا يرفعون به رأسًا -وإن كانوا من ذوي الديانة، فقال: وقد غرّ إبليسُ أكثر الخلقِ بأن حسَّن لهم القيام بنوع من الذكرِ والقراءةِ والصلاة والصيام والزهد في الدنيا، والانقطاع، وعطلوا هذه العبوديات - يعني عبودية نشر السنة على العلماء، وإقامة الحقِّ وتنفيذه على الحكام، وأداء الحقوقِ المالية على الأغنياء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على القادرين عليه. يقول: فلم يُحدِّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياءِ من أقلِّ الناس دينًا، فإن الدين هو القيامُ لله بما أمر به.. ومن له خبرةٌ بما بعث اللهُ به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابهُ رأى أن أكثر من يُشار إليهم بالدين هم أقلَّ

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ١٤/ ٦/ ١٤٢٠هـ.

الناس دينًا والله المستعان، وأيُّ دينٍ، وأيُّ خيرٍ فيمن يرى محارم اللهُ تُنتهك وحدودَه تُضاع، ودينه يُترك، وسنة رسوله ﷺ يُرغب عنها وهو باردُ القلبِ ساكتُ اللسان؟ شيطانٌ أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطانٌ ناطق، وهل بليةُ الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلُهم ورياساتُهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارُهم المتحزّن المتلمظُ، ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذّل، وجدَّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم، قد بُلوا في الدنيا بأعظم بليةٍ تكونُ وهم لا يشعرون، وهو موتُ القلوب، فإن القلب كلما كانت حياتُه أتمَّ كان غضبُه لله ورسوله أقوى، وانتصارهُ للدين أكمل[١].

عباد الله: وكيف لا يعلو شأنُ الأمرِ بالمعروف، وترتفعُ منزلة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله ﷻ جعله شرطًا للتمكين في الأرض، وجعل القائمين به أهلًا للتمكين؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[٢].

ترى ما مدى العناية بهذه الشعيرة في المناهج الدعويةِ القائمة؟ وما نصيبُ المحسوبين على الدعوة من المساهمة والقيامِ بهذا الواجب العظيم؟

على أن مما ينبغي أن يدرك أن الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مجرد عاطفةٍ تثور ثم تخبو، ولا مجرد حماسٍ طارئٍ لمنكر ولفترة معينة ثم يُنسى.

بل الأمر جدٌّ وجهاد، ومواصلةٌ واحتساب، وطولُ نفسٍ وتفكيرٌ في المنكر وجذوره، وكيف يُستصلح والبديلُ عنه، إلى غير ذلك من أمور تتطلب الحديث عن

---

(١) أعلام الموقعين ٢/ ١٧٦، ١٧٧.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤١.

صفاتٍ يحتاجها الآمر الناهي، وآدابٍ وفقهٍ تجعل من الأمر بالمعروف دعوةً للناس بالحسنى، وبها ينحسر المنكر ويتوارى أهلُه خجلًا وحياءً.

أيها المسلمون: ومن أبرز هذه الصفات والآداب العلم، فلا بد أن يكون الآمرُ والناهي عالمًا بما يأمر به وما ينهى عنه.

قال الشيرازي: فالحسنُ ما حسَّنه الشرع، والقبيحُ ما قبحه الشرع، ولا مدخل للعقول في معرفة المعروفِ والمنكر إلا بكتاب الله ﷻ، وسنةِ نبيه ﷺ، ورُبَّ جاهلٍ يستحسن بعقله ما قبّحه الشرعُ، ويرتكب المحظور وهو غيرُ عالمٍ به[1].

ويقول الغزالي: العامي ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات المعلومة كشرب الخمر، والزنا، وترك الصلاة، فأما ما يُعلم كونه معصيةً بالإضافة إلى ما يطيف به من الأفعال، ويفتقرُ فيه إلى الاجتهاد، فالعاميُّ إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه[2].

والإخلاصُ إلى جنب العلم صفةٌ -بل شرط- للآمر، وموجبٌ للقبول، فلا يأمر وينهى ليُحتسب في الآمرين، أو ليصل بذلك إلى مالٍ أو مرتبةٍ أو جاه.. أو نحو ذلك من أعراض الدنيا الزائلة، وكذا الانتصار للنفس مُذهِبٌ للإخلاص، عن أرطأة بن المنذر قال: المؤمن لا ينتصر لنفسه، يمنعه من ذلك القرآن والسنة، فهو ملجم[3].

والصبرُ سلاحٌ لا ينفك عنه الآمرُ والناهي، فلا بد أن يناله من أذى الناس وسخريتهم وصدودهم ما يحتاج معه إلى صبر يوطّنه على مواصلة الطريق، محتسبًا

(١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص٦.
(٢) إحياء علوم الدين م٣ ج٧/٢٨.
(٣) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال ٨٦.

أجره على الله.

ومن وصايا لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[(١)].

قال العارفون: من وطَّن نفسه على الأذى، وأيقن بثواب الله لم يجد مسَّ الأذى[(٢)]. وحسبك بتوجيه الله لنبيه ﷺ معلمًا: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[(٣)].

والرفقُ ما كان في شيء إلا زانه، ولا نُزع من شيء إلا شانه، كذا نقول جميعًا ونعتقد، ولكن الناس متفاوتون في تطبيقه؛ فمنهم من لا يملكُ أصحابُ المنكر إلا الاستجابة العاجلة له لحسنِ أسلوبه ورفقه وحلمه، ومنهم من يزيدُ النار اشتعالًا بشدته وفظاظة أسلوبه، وليس الأمرُ والنهيُ مجردَ أداء، أو تخففًا من المسؤولية - كيفما اتفق- بل هو دعوةٌ للخير والحق، وشفقةٌ على الخلق، وعلاجٌ للمنكرات بأفضل الطرق وأحسن الخُلق.

يقول ابن تيمية رحمه الله: والرفقُ سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا قيل: ليكن أمرُك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر[(٤)].

ومع أهمية الرفق وكونه الأصل، فينبغي أن يعلم كذلك أن الحاجة قد تدعو للعنف والشدة أحيانًا - وذلك بحسب المنكَرِ وصاحبه، قال الحليمي: وينبغي أن يكون الآمرُ بالمعروف مُميِّزًا؛ يرفق في مواضع الرفق، ويعنف في مواضع العنف،

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٢) من وصية عمير بن حبيب لأبنائه، «الزهد» للإمام أحمد ٣٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

(٤) «الأمر بالمعروف» لابن تيمية ص١٧.

ويكلمُ كلَّ طبقةٍ بما يعلم أنه أليق بهم، وأنجع فيهم.. وكما لا ينبغي لمن يقومُ بهذا الأمر أن يعنف في مواضع الرفق، فكذلك لا ينبغي له أن يرفق في مواضع التعنيف، لئلا يُستخف قدرُه، ويُعصى أمره[١].

ومن الفقه في الإنكار أن يجتهد المنكرُ ألا يترتب على المنكرِ منكرٌ آخر - قد يكون أكبرَ أو أوسع انتشارًا من المنكر الأول، فما تحقق بذلك الهدفُ، ولا انتهى صاحبُ المنكر، ولا سلم غيرُه من آثارِ منكره. ومن هذا الفقهِ كان شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يفتي بعدم الإنكار على التتار لشربهم الخمر؛ لأنهم إذا أفاقوا واستقامت لهم عقولُهم التفتوا إلى المسلمين يقتلون ويفسدون.

والمداراة من أخلاق المؤمنين وهي تلطفٌ في العبارة، واجتهادٌ في الأسلوب، لا تصل إلى المداهنة المنهي عنها، بل يُراعى في المداراة أحوال الناس ومنازلهم، وتقال لذوي الهيئات عثراتُهم ويُكتفى بالتعريض أحيانًا دون التبكيت، وبالتلميح دون التصريح، وهكذا يوصل إلى النفوس من أقرب الطرق إليها، إلا أن يكون صاحبُ المنكر مجاهرًا خبيثًا، فلا بد من فضحه وتحذير الناس من شرِّه؛ لأنهم قالوا: ليس لفاسق حرمة[٢].

إخوة الإسلام: والتدرج بالناس على طريق الخير، واستلالُ الشرِّ من نفوسهم -وإن طال الزمن- أدبٌ وأسلوب مارسه الصالحون، وأفلحوا. وهذا عبدُ الملك ابن عمر بن عبد العزيز -رحمهما الله- يقول لأبيه: يا أبتِ! ما يمنعُك أن تمضي لما تريده من العدل؟! فوالله ما كنتُ أبالي لو غلَت بي وبك القدورُ في ذلك، قال:

---

(١) المنهاج للحليمي ٣/ ٢١٨، عن كتاب: المنتدى في الأمر بالمعروف، خالد السبت ص١٩٦.

(٢) الخلال: «الأمر بالمعروف» ص٨٠.

يا بُني إني إنما أُروِّض الناس رياضة الصَّعب، إني أريد أن أُحيي الأمر من العدلِ فأؤخر ذلك حتى أُخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فينفروا من هذه ويسكنوا لهذه[١].

ومن الفقه في الإنكار: مراعاةُ ما يتعلق به الناسُ من أمور الدنيا، وعدمُ مصادمتهم، إذا لم يقعوا في الحرام، بل إن من التدرج بهم للخير بسطُ شيءٍ من الدنيا لهم، وإن كان الآمرُ زاهدًا فيها، وهذا عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله يقول: ما طاوعني الناسُ على ما أردتُ من الحقِّ حتى بسطتُ لهم من الدنيا شيئًا[٢].

عباد الله: وبالجملة فالآمر ينبغي أن يكون طبيبًا ماهرًا يوازن بين الأمور في حال الإنكار أو السكوت، وكان العلماءُ يوازون بين سواء الأسلوب في الأمر والنهي، وبين السكوت على المنكرات، وينهون عن كليهما. يقول أحدُهم: فإيذاءُ المسلمِ محذورٌ، كما أن تقريره على المنكر محذور، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول، ومن اجتنب محذور السكوتِ على المنكر، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول على التحقيق[٣].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾[٤].

---

(١) **الخلال**: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٨٢.

(٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٨٨. عن كتاب «المنتدى في الأمر بالمعروف» خالد السبت ٢٥٦.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين م٣ جـ٧ ص٤٥.

(٤) سورة لقمان، الآيات: ١٧ - ١٩.

الخطبة الثانية:

الحمد لله أهل الفضل والثناء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يحب المحسنين، ويجزي العاملين المخلصين، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، قدوةُ المجاهدين، وخيرةُ الآمرين والناهين، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى سائر النبيين.

أيها المسلمون: ويغفل بعضُ الناس عن جانب مهمٍ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألا وهو إيجاد البديل عن المنكر، فالنفسُ قد تكون متعلقةً بهذا المنكر إلى حدٍّ تتوقع معه أنها لا يمكن أن تنفك عنه، ولكنَّ عرضَ البديل المشروع قد يساعد على التخفف من المنكر، ويروِّض النفس على المشروع، وهذا منهج رباني، وأسلوب نبوي، ففي القرآن من مثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ﴾[1].

وقال تعالى - في سبيل معالجة قوم لوط عن اللواط، وعرض البديل المشروع: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[2].

وقد مارس السلفُ هذا الأسلوب في الإنكار فنجحوا، وفي «صحيح البخاري»: أن رجلًا سأل ابن عباس فقال: إني إنسانٌ إنما معيشتي من صنعةِ يدي، وإني أصنعُ هذه التصاوير. فقال ابنُ عباس: لا أحدثك إلا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ؛ سمعتُه يقول: «**من صوّر صورةً فإن الله معذّبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ**

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٦٥، ١٦٦.

فيها أبدًا»، فربا الرجلُ ربوةً شديدة -أي: انتفخ- واصفرّ وجهُه، فقال له ابن عباس: ويحك، إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر، وكلِّ شيء ليس فيه روح[١].

واستمر سوقُ الأمر والنهي مع إيجاد البديل في أمة الإسلام عبر القرون، وفي حوادث سنة ثمانين وسبع مئة، ذكر صاحبُ «أنباءِ الغمر»: أن رجلًا من أهل الصلاح يُقال له «عبدُ الله الزيلعي» توجه إلى الجيزة فبات بقرب «أبي النمرس» فسمع حسَّ الناقوس، فسأل عنه، فقيل له: إن بها كنيسة يُعمل فيها ذلك كلَّ ليلة، حتى ليلةِ الجمعة، وفي يومها والإمامُ يخطب على المنبر! فسعى عند جمال الدين المحتسب في هدمها، فقام في ذلك قيامًا تامًا إلى أن هدمها وصيَّرها مسجدًا[٢].

وهذا الأمرُ -مع أهميته- يرد التقصيرُ فيه، وذلك لأنه يحتاج إلى علمٍ وعمل وهمّة وتفكير، وقد عُني به شيخُ الإسلام وبيَّن تقصير الناس فيه، ومما قاله في ذلك: وكثيرٌ من المنكرين للبدع في العبادات والعادات تجدهم مقصرين في فعل السنن من ذلك، أو الأمر به.. إلى قوله: بل الدينُ هو الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، فلا يُنهى عن منكرٍ إلا ويُؤمر بمعروف يُغني عنه، كما يؤمر بعبادة الله ﷻ، ويُنهى عن عبادة ما سواه[٣].

عباد الله: كما يُغفل أحيانًا -في سبيل إنكار المنكرِ ونصح صاحبه- البدء بذكر محاسنه التي تفتح الطريق لاستقبال النصح فيما بعد، وفي القرآن الكريم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ

(١) صحيح البخاري ح٢٢٢٥، ٥٩٦٣.
(٢) «إنباء الغمر» ١/ ٢٧١ عن كتاب «المنتدى في الأمر بالمعروف»، خالد بن عثمان السبت ٢٥٧.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦١٦، ٦١٧.

عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾(١).

وهكذا فإذا كان لصاحب المنكر حسناتٌ، فابدأ بالثناء عليها وشكره على القيام بها، ثم اعطف على المنكر وضعه نشازًا في سياقها، وخوفه أن يكون هذا المنكرُ سببًا لذهاب أجرها، ونقله من قائمة الأخيار إلى الأشرار.. وهكذا يكون التدرجُ في الأمر والنهي والعدل في الذم والمدح، والإنصافُ بذكر الحسنات والسيئات. واحذر أيها الآمر والناهي ألا تقع عينُك إلا على المستقبحات وتتناسى الحسنات فهن ماحيات. ذلك ذكرى للذاكرين.

يا أخا الإسلام: وحذاري أن تُعدم الغيرة لدين الله، وألا يتمعَّر وجهُك حين ترى منكرًا، فإن كنتَ قادرًا على إزالته - بالطريق المشروع - فأزله، وإن كنت غير قادر، فأخبر من تراه قادرًا على الإنكار، وليكن احتسابُك - إذا لم تستطع بنفسك - بطريقين:

الأول: إبلاغ القادرين. والثاني: مشاركتُهم في الإنكار، وهو ما يمكن أن يسمى (بالإنكار الجماعي)، ولو أن أصحاب المنكرات وجدوا - على منكراتهم - استنكارًا جماعيًا لهابوا المنكرين، واستوحشوا لمنكراتهم، ثم أقلعوا عنها.

وفي مقابل هذه الإيجابية في الإنكار، حذار من السلبية القائمة على النقد والتجريح للآمرين دون مساهمة في الأمر، أو تقديم البديل الصالح، وما من أحدٍ إلا وهو عرضةٌ للخطأ إلا من عصم الله، ولكن إصلاح الأخطاء لا يكون فاكهة المجالس، وفرق بين من يكون هدفُه المساهمة في الإصلاح، والنقد البنّاء، وبين

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

من ينتهي بهم النقدُ إلى انتهاك الأعراض، وأكل لحوم الناس دون أيٍّ مساهمة في التغيير.

أيها المسلمون عامة! أيها الآمرون خاصة: وحذار أن يقعد بكم لومُ الناس وتثبيطُ المرجفين منهم عن القيام بواجب الأمر والنهي -إذا اجتهدتم وسعكم وأخلصتم في أعمالِكم- فذلك أمرٌ سيواجهكم، كما واجه من قبلكم، إذ لا تنفك الحسبة عن ذلك، ولا يسلم الدعاةُ من الأذى.

يقول القرطبي رحمه الله: أجمع المسلمون، فيما ذكر ابنُ عبد البر رحمه الله؛ أن المنكر واجب تغييرُه على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللومُ الذي لا يتعدى إلى الأذى، فإن ذلك لا ينبغي أن يمنعه من تغييره[1].

ويقول الغزالي: لو تُركتِ الحسبة بلوم لائم أو باغتياب فاسق أو شتمه أو تعنيفه أو سقوط المنزلةِ عن قلب أمثاله، لم يكن للحسبة وجوبٌ أصلًا، إذ لا تنفك الحسبةُ عنه[2].

هذه معاشر المسلمين بعضُ وقفات وآداب وصفات وشيء من فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وثمة أساليبُ، وشبهات، وعقوبات على ترك الأمر والنهي أرجئ الحديث عنها للخطبة القادمة بإذن الله. أسأل الله أن ينفعنا بما نعلم ونسمع، وأن يهيّئ لنا من أمرنا رشدًا، وأن يعز دينه وينصر أولياءه، ويذل أعداءه.



(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٤٨.

(٢) إحياء علوم الدين: ٧/ ٣٣.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائله، شبهات، آثار تركه[١]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره . . .

عباد الله: هذا حديث متممٌ لأحاديث قبله، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويُعنى حديث اليوم بوسائل الأمر والنهي، وشبهاتٍ قد تقعد ببعض الناس عن القيام بهذه الشعيرة المهمة في الدين، والآثار المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مستوى الفرد أو مستوى الأمة.

أما وسائلُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكثيرةٌ ومتنوعة تتناسبُ وظروف الزمان والمكان، وتختلفُ باختلاف الناس وطبائعهم، ونوع المنكر وحجمِه.

وجماعها: الحكمةُ، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢].

قال العالمون: جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيبُ القابلُ الذكي الذي لا يُعاند الحقَّ ولا يأباه، يدعى بطريق الحكمة، والقابلُ الذي عنده نوعُ غفلةٍ وتأخرٍ يُدعى بالموعظةِ الحسنة وهي الأمرُ والنهي المقرونُ بالترغيب والترهيب، والمعاندُ الجاحد يُجادَلُ بالتي هي أحسن[٣].

---

(١) ألقيت هذه الخطبة يوم الجمعة الموافق ٢١/ ٦/ ١٤٢٠هـ.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) ابن القيم: «مفتاح دار السعادة» ١/ ١٥٣.

أيها المسلمون: ونشرُ العلم -بالمحاضرات أو الدروس أو التأليف، أو الفُتيا- كلّ ذلك وسائلُ عظمى لإقرارِ المعروف ونشره وإنكارِ المنكرِ، وبالعلم يعلم الناسُ الحلالَ من الحرام، ويرغبون في المعروف، ويحذرون من المنكر، وإذا غاب أو تقلص أثرُ العلماء اضمحلت الهداية، وفشت الجهالةُ، واتسع نطاقُ المنكر، وكثر المبطلون.

والنصيحةُ سِرًّا، أو جهرًا، بحسب مقتضى الحال -من هدي المرسلين عليهم السلام-، وهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[1].

ومن قبله نوحٌ عليه السلام قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[2].

ومن بعدهم محمدٌ ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» (أي عمادُ الدين وقوامُه النصيحة) قلنا: لمن؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[3].

وفَقِهَ المسلمون -فيما بعدُ- حاجتهم وحاجة إخوانهم إلى النصيحة، فكانوا يبايعون على ذلك، كما يبايعون على الصلاة والزكاة.

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعتُ رسول الله ﷺ على إقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم[4].

وكانت النصيحة تبرم لها المعاهدات والعقودُ - ضمن أمور الدين الأساسية. وفي بعية العقبة قال عبادة بنُ الصامت رضي الله عنه -في خبر بيعتهم للنبي ﷺ-: وعلى أن نقول بالحقِّ أينما كنّا لا خاف في الله لومة لائم[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٢.

(٣) رواه مسلم ح٥٥، «رياض الصالحين» ص٩٩.

(٤) متفق عليه.

إخوة الإيمان: وينبغي أن يستثمر المحتسبون وسائل الإعلام والمنابر العامة، وحيث يجتمع الناسُ، ويستفيدوا من وسائل التقنية الحديثة لنشر المعروفِ والأمر به، والتحذير من المنكر والنهي عنه، ومؤلمٌ أن تكون هذه الوسائل قنواتٍ لنشر المنكر، وفرصًا واسعة الانتشار يستحوذ عليها المبطلون.

أيها المسلمون: وإذا كانت الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالحسنى، والنصح، واستثمار وسائل الإعلام، ونشر العلم بطرقه المختلفة - كلُّها وسائلُ عامة للأمرِ والنهي، فثمة وسائل خاصة ثبت نفعُها والاستجابة لها، فالمهاتفةُ، والزيارةُ، والرسائل الشخصية، والكتابة.. كلُّها وسائل لإقرار معروف، وتشجيع صاحبه، وإشعاره بتقدير الناس له، أو لإنكار منكرٍ وتذكير صاحبه وتخويفه بالله وعاقبة أمره، وما أروع هذه الوسائل إذا استخدمت بعبارات لطيفة، وأسلوب حسن، وكانت نصحًا لا تشهيرًا، وشفقةً لا تشفِّيًا، وظهرت فيها بوادر الصدق والإخلاص، ولم تكن تعالمًا وتعاليًا وعُجبًا، ويقلُّ نفعُها إن صاحَبها تزكيةٌ للنفسِ وازدراءٌ بالآخرين.

أيها المحتسبون: وإمامُ المسجد يمكن أن يحتسب - بالتعاون مع جماعة مسجده - على جيرانِهم وأهلِ حيِّهم - في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمام المعلمِ والمعلمةِ فرصةٌ كبرى للاحتساب في مدارسهم، والموظف الناجح، والمسؤول الناصح سِرُّ وجودهم في العمل إقرارُ المعروف والدعوةُ له، وإنكارُ المنكرِ ومنعُ الناس من الوقوع فيه - في دائرته أو محيط عمله - وفرقٌ بين من يُحرقه العملُ دون أن يقيم وزنًا للمعروف أو المنكر، بل همُّه مصالحُه الشخصية، وإن تعطلت مصالحُ الآخرين، وبين من يتخذ من مركزه وسيلةً لخدمةِ عباد الله، فهو قائم بالحق والعدل، منصفٌ للمظلوم، قاضٍ للحوائج، ميسرٌ لا معسر. فذاك

الذي يذكره الناسُ بالخير، وهو ممارسٌ للدعوة والأمر بالمعروف بسلوكه، وإن لم يكن من الممارسين بلسانه.

عباد الله: ولا تحقروا من المعروف شيئًا، ولو أن تلقوا إخوانكم بوجوهٍ طَلِقة، وقد تكون الابتسامةُ مع كلمة خفيفة لطيفة ذات أثر فاعل - وقد تكتفي أحيانًا بقسماتِ الوجهِ -في سبيلِ إنكار منكر- مع صغيرٍ أو شخصٍ حيي، وهكذا.

ولا تنسوا الإحسان والهدايا، فهي وسائل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومَنْ ملك قلوب الناس بإحسانه، وعطاياه استمعوا له، وقدروا أمرَه، واستجابوا لنهيه.

أحسن إلى الناس تستعبدْ قلوبهُمُ فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

ولا تنسوا التعاون مع رجال الحسبة -المعتمدين- فذلك يشجعُهم من جانب، ويفتح لكم مجالًا للمساهمة في الأمر والنهي.

أيها المسلمون: وينبغي أن يعلمَ أن هذه الوسائل وأمثالها تصلح لفئةٍ من الناس، وقد لا تصلح لفئة أخرى مَرَدُوا على الفجور والفسوق، وتمرسوا في ارتكاب الجرائم والتخطيط لها، وهؤلاء لا بد لهم من وازع السلطان لردعهم وتأديبهم وحماية المجتمع من شرورهم، بالعقوبات أو الحدود، أو القصاص، وإذا لم تنفع الكتبُ تعيَّنت الكتائبُ - كما قال العلماء - وذلك مقتضى توجيه القرآن: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[1][2].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) وانظر كلام الشنقيطي في «أضواء البيان» ٢/ ١٧٤، ١٧٥.

أيها الناس: وهناك وسائل أخرى يعلمها المجربون، ويمارسها الآمرون الناهون.

ومن الوسائل إلى شبهات يتعلق بها بعض الناس ويعللون لأنفسهم بها القعود عن واجب الأمر والنهي، ولا متعلق لهم بها، ومنها: خطأ بعضهم في فهم المقصود بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾(١).

قال القرطبي رحمه الله في أحد تعليقاته على هذه الآية: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكرِ متعيّنٌ متى رُجي القبولُ، أو رُجي ردُّ الظالمِ ولو بعنف، ما لم يخفِ الآمرُ ضررًا يلحق في خاصته، أو فتنةً يُدخلها على المسلمين، إما بشقِّ عصا، وإما بضرر يلحق طائفةً من الناس، فإذا خيف هذا فـ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ محكم واجبٌ أن يوقف عنده، ولا يُشترطُ في الناهي أن يكون عدلًا، وعلى هذا جماعةُ أهل العلم فاعلمه(٢).

وقال ابن كثير رحمه الله: «وليس في الآية مستدل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنًا...»(٣).

ومن الشُّبَه التي تقعد ببعض الناس عن الإنكار: السكوتُ عن منكرٍ أصغر من أجل إزالة منكرٍ أعظم، ثم لا يعملُ من ذلك شيئًا، أو الاعتذارُ عن المشاركة في الإنكار بحجة أنه مشغولٌ بواجب آخر، مع إمكانية الجمع بين الواجبين وعدم تعارضهما.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٤٥.

(٣) تفسير ابن كثير عند الآية، وقد نقل عن السلف نقولات مفيدة فراجعه إن شئت ٣/ ٢٠٧.

أو المداهنةُ مع أصحابِ المنكرات، وربما شاركهم أو سكت عنهم لإظهار الدعاة بمظهر الاعتدال.

أو اتخاذُ مواقف غير شرعية -دون ضرورة- من أجل دفع تهمة التطرف أو غيرها من التهم الباطلة.

ومن الشُّبه ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قال: ومن الناس من يتعلل لترك ما أوجب عليه من الأمر والنهي بأنه يطلبُ السلامة من الفتنة -وقد يقعُ فيها- والمخرجُ من ذلك القيامُ بالواجب، وتركُ المحظور الذي قد يؤدي إلى الفتنة، في كلام وتقسيم - ليس هذا موطن بسطه[1].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2].



(١) الفتاوى ٢٨/ ١٦٥ - ١٦٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، جعل هذه الأمة خير أمةٍ أخرجت للناس؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة، حذّر أمته عن التقاعس بهذا الواجب العظيم فقال: «**والذي نفسي بيدِهِ لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكن اللهُ أن يبعثَ عليكم عقابًا من عنده، ثم لتدْعُنَّه فلا يستجيبُ لكم**».

حديث حسن رواه أحمد عن حذيفة رضي الله عنه[١].

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى سائر أنبياء اللهِ ورسله.

أيها المسلمون: والخطْب عظيمٌ، والآثارُ المترتبةُ على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها ما ينال المرء في خاصةِ نفسِه، ومنها ما يصيب الأمة بمجموعها.

ومن هذه الآثار: أنه سببٌ للعن والطرد من رحمة الله، قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٢].

بل إن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببٌ للعقوبةِ العامةِ وتعجيلها، وفي القرآن: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[٣].

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٦/ ٩٧، ٩٨.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

وعن أصحاب القرية قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾(١).

عن عدي بن عميرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله ﷻ لا يعذبُ العامة بعمل الخاصةِ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذّب اللهُ الخاصةَ والعامةَ**»(٢).

وعن الحسن أنه خرج على قومٍ يتحدثون، قال: فيم أنتم؟ قالوا: ذكرنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال: نعم مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، وإلا كنتم أنتم الموعظات(٣).

ومن آثار ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انتشارُ المنكرات وفشوُّها في المجتمع إذ لا يجد أصحابُ المنكر رادعًا، ويقل التشجيعُ لأهل المعروف، فيعمُّ الفساد، ويستوحش الأخيار، ويهلك العباد، وقد علم المنصفون تفوق الإسلام - بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - على سائر الأنظمة البشرية، إذ لا يوجد في النُّظم التي ابتكرها الإنسانُ لرعاية القوانين والدساتير نظامًا يصل إلى فكرةِ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر كمبدأ تربوي جاد، ومدرسةٍ تعليمية تتيحُ لأكبر قاعدةٍ في الأمة أن تعرف ما لا بد من معرفته من الحرام والحلال، والواجب والمسنون.. ونحوها في وقتٍ قصير، وبلا نفقات، وبطريقة مستمرة، وشاملة(٤).

عباد الله: والفسادُ ولو كان قليلًا، يُوحِش، والمفسدون، ولو كانوا رهطًا،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.

(٢) أخرجه أحمد، وحسَّنه ابن حجر في «الفتح»: ١٣/٣، ٤.

(٣) يعني يوعظ بكم غيركم لما يحل بكم من العذاب، الخلال «الأمر بالمعروف»: ٤٤.

(٤) عبد القادر عطا، في مقدمته «للأمر بالمعروف» للخلال ٤٦.

يُخيفون ويمكرون ويُحذرون، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(١).

إلى قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٢).

وحين قرأ مالكُ بنُ دينارٍ -هذه الآية- قال: فكم اليوم في كلِّ قبيلةٍ وحَيٍّ من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون(٣)!

أما اليوم فماذا عساه يقول الناظر في أحوال المسلمين وما حلَّ بهم؟ ولا شك أن لقعود المصلحين وسكوت الغيورين أثرًا في ذلك، فإلى الله المشتكى وهو المستعان.

أيها المسلمون: ومن آثار ترك الأمر والنهي أنه سببٌ لردِّ الدعاء، وقد سبق حديث المصطفى ﷺ في هذا.

ومن آثار تركه: ظهورُ الجهل، واندراسُ العلم، وذلك أن المنكر إذا ظهر فلم يُنكر نشأ عليه الصغيرُ وألفه الكبير - وظنوه مع مرور الزمن - من الحق - وتحمّل الخيرون تبعةَ وتكاليف التغيير فيما بعد، ولو عولج المنكرُ في حينه لكان أخف، ولم تنطمسْ معالمُ الحق.

ومن الآثار لترك الأمر والنهي ما يحصل من الفتنةِ بالمنكر إذ أنّ صاحبه كالبعير الأجرب يختلط بالإبل فتجرب جميعًا، والناسُ - كما قيل - كأسراب القطا جُبل بعضُهم على التشبه ببعض(٤).

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٠.

(٣) رواه البيهقي في «الشعب» ٧٦٠٠.

(٤) خالد بن عثمان السبت، «الأمر بالمعروف» ص٨٤.

ومن آثار تركه على الفرد اسودادُ قلبه وتنكيسه، وفي الحديث الصحيح: «**تُعرض الفتنُ على القلوب كالحصير عودًا عودًا. فأيُّ قلبٍ أشربها نُكت فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصير (القلوبُ) على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ مادامت السماواتُ والأرض، والآخر أسود مُربادّ كالكوز مُجَخِّيًا، لا يعرفُ معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه**»[1].

يا عبد الله: انجُ بنفسك، وساهم في حماية سفينة المجتمع من الغرق وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحذر من أن تُرضي الناس بسخط الله، فيسخط عليك، ويُسخط الناس عليك، بل أرضِ الله ولو سخط الناسُ عليك، فإن رضا الله عنك سببٌ لرضا الناس عليك.

عباد الله: تواصوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفلحوا وتسعدوا في الدنيا والآخرة، ولا يَقعدنَّ بأحدكم عن الأمر والنهي ما يجده في نفسه من ضعف أو قصور، فكلُّ ابن آدم خطاءٌ.. ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلُّها؟ ولو لم يعظ الناس إلا كاملٌ ورعٌ تقيٌّ نقيٌّ، فمن يعظ العاصين بعد محمد ﷺ؟

ومن عجائب خلق الله أنك قد ترى شخصًا هاجسه الأمر والنهي أينما حلَّ وارتحل، وقد يكون نصيبه من العلم قليلًا.

وترى شخصًا آخر لا يرفع بذلك رأسًا، حتى وإن أبصر المنكر عيانًا، أو أتيحت له الفرصة لقول المعروف، وقد يكون نصيبه من العلم كثيرًا ومؤهلاته عالية، ولكنه فضل الله، والفرق بين الناس في الغيرة، ونعيذ هؤلاء أن يكونوا كمثل الحمار يحمل أسفارًا.

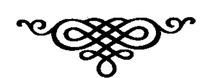
---

(١) رواه مسلم ١/ ٨٩.

أيها الآمر والناهي: ولا يمنعْ أن تنهى الناس وتنهى نفسك، وتأمر الناس بالمعروف وتجاهد نفسك على الالتزام به، ولئن تعمل منكرًا وأنت له كاره، فتظل تستغفرُ خيرٌ من أن تعمله وأنت باردُ القلبِ فاقدُ الإحساس، ولئن تأمر غيرك بمعروف -وأنت صادق- حتى وإن لم تطاوعك نفسُك عليه في البداية، خيرٌ من أن تدعه وتَدَع تذكير الآخرين به ولا تيأس من إصلاح نفسِك وإصلاح الآخرين.

يا عبد الله: وحذار من الاستكبار حين تؤمرُ أو تُنهى، حتى ولو كان الآمر لك أصغر سنًا أو أقلَّ علمًا، مادام يتحدثُ بحقٍّ ويأمرُ بمعروف، وإياك والعناد حتى وإن ساء أدب الناصح لك أو أخطأ في الأسلوب. فخذ منه الحقَّ، ولا تشاركه الخطأ في أسلوب الرد، فذلك من تمام العقل ومن علائم الخير، وحذار أن يركبك الشيطان وأنت لا تعلم.

اللهم اجعلنا جميعًا هداة مهتدين، ومن أصحاب اليمين، ويوم الفزع من الآمنين.



فهرس خطب الجزء الخامس

فهرس خطب
الجزء السادس

